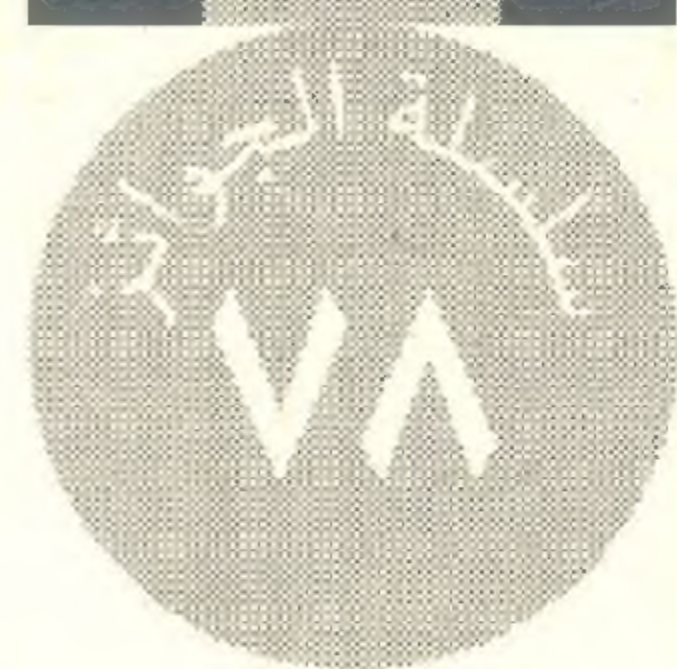


الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز



رواية

دانييل بيناك

حزن ملدري

ترجمة: عاطف محمد عبدالمجيد

الكاتب

• دانييل بنات. واسمه كاملاً "دانييل

بناكشيوني".

• كاتب وروائي ومؤلف كتب أطفال

فرنسي شهير.

• ولد في مدينة كازابلانكا في المغرب

عام ١٩٤٤.

• قضى طفولته متنقلاً بين إفريقيا

وآسيا بمصاحبة أسرته التي كانت

عسكرية.

• بدأ مشواره الأدبي بالكتابة للطفل.

• حاز العديد من الجوائز الأدبية

معظمها عن منجزه الاستثنائي في

الكتابة للطفل.. ففي عام ١٩٩٠ حصل

على جائزة الكتاب العالمي عن كتابه

"بائعة النثر الصغيرة". وفي عام ٢٠٠٥

حاز جائزة الأدب في الكتابة للطفل عن

كتابه "عين الذئب". وفي عام ٢٠٠٨

حصل على الجائزة الزرقاء الكبرى عن

مجموع أعماله.

أما روايته "حزن مدرسي" فقد حازت

جائزة "رينودو" لعام ٢٠٠٧.

الجائزة

جائزة رينودو

من الجوائز الأدبية الفرنسية رفيعة

المستوى. شرع عدد من نقاد الأدب

والصحفيين في تأسيسها عام ١٩٢٥.

وذلك لتعلن قبيل الإعلان عن الجائزة

الشهيرة "الجونكور". وأطلقوا عليها

اسم "تيوفرست رينودو". وهو أول من

أسس جريدة فرنسية في عصر لويس

الثالث عشر عام ١٦٣١.

وقد أثبتت جائزة "رينودو" جدارتها بعد

أكثر من نصف القرن وحازها أهم كتاب

فرنسا ابتداءً من أولى دوراتها عام ١٩٢٦.

التي حصل عليها "أرماند لوينل" عن

كتابه "نيكولوبيكا في". وكان آخر

حائزها "داديس كامارا" عن كتابه

"قصائد في الولاء للزهور" عام ٢٠١٠.

إهداء ٢٠١٠
دار الكتب و الوثائق القومية
جمهورية مصر العربية

حزن ملهى

أ. د. محمد صابر عرب	رئيس مجلس الإدارة
د. سهير المصادفة	رئيس التحرير
السماح عبد الله	مدير التحرير
وردة عبد الحليم	سكرتير التحرير
د. مدحت متولى	التصميم الجرافيكى
صبرى عبد الواحد	الاخراج الفنى
على أبو الخير	

بناك، دانيال.

حزن مدرسى: رواية/ تأليف: دانيال بناك؛
ترجمة: عاطف محمد عبد المجيد. - القاهرة:
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.

٤٠٠ ص : ٢٢ سم. - (سلسلة جوائز)

تدمك ٥ ٦٥١ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - القصص.

أ - عبد المجيد، عاطف محمد. (مترجم).

ب - العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٧١٩٩ / ٢٠١٠

I. S. B. N 978 - 977 - 421 - 651 - 5

ديوى ٨٠٨,٨٢

حزن ملهى

تأليف: دانييل بوناك
رواية

ترجمة: عاطف محمد عبدالمجيد



المجلة المصرية العامة للكتاب

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الإسكندرية

● الكتاب: حزنٌ مدرسى

Chagrin d'école

● تأليف: دانيال بناك

Daniel Pannac

● ترجمة: عاطف محمد عبد المجيد

● يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من
الناشر الأصلي للهيئة المصرية العامة للكتاب.

● جميع حقوق الإصدار باللغة العربية محفوظة للهيئة
المصرية العامة للكتاب في مصر والخارج.

● جميع الحقوق الأخرى محفوظة للمؤلف:

© Editions Gallimard 2007,

● الطبعة الأولى ٢٠١٠.

● طبع في مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

مِنْ أَجْلِ مِين (*)..

أَوْه..إلى أَىِّ مَدَى!

إلى..

فانشون دلفوس

بيير أرين

جوزيه ريشو

فيليب بونيه

على مهيدى

فرانسواز دوسيه

ونيكول أرليه

محررى التلاميذ إن كنتُ أحدهم.

والى ذكرى جان رولان

الذى لم ييأس أبداً من التلميذِ الكسولِ

الذى كُتِّه.

(*) مين.. اسم زوجة المؤلف.

١

صندوق قمامة جيبوتي

إحصائياً: يتضح كل شيء...

شخصياً: يتعقد كل شيء.

فلنبدأ بالخاتمة: أمي ذات المائة عام تقريباً
تُشاهدُ فيلماً عن مؤلف تعرفه جيداً نرى المؤلفَ
حيثما يُقيمُ. في باريس مُحاطاً بكتبه.. في مكتبته
ومكتبته في آن تطلُّ النافذة على فناء مدرسة جليلة
مُسليّة نعرف أنه خلال ربع قرن مارس المؤلف مهنة
التدريس وأنه لو كان اختار هذه الشقة التي تطلُّ على
ساحتين للاستراحة فهذا على طريقة عامل سكة
حديد كان يتقاعدُ أعلى محطة الفرز ثم نرى المؤلفَ
في إسبانيا. في إيطاليا وهو يتناقش مع مترجمي
كتبه ممزحاً أصدقاءه البندقيين^(١) وسائراً على
هضبة فيركور وحيداً.. في ظل سحابة من المرتفعات
يقول ناطقاً: مهنة.. لغة.. أسلوب.. بناءً روائى..
شخصيات.. مكتب جديد يطلُّ هذه المرة على الأبهة
الألبية^(٢). هذه المشاهد تتخلل بمقابلات فنانين يُعجب
بهم المؤلف ويتحدثون بأنفسهم عن عملهم
الخاص: السينمائي والروائي ديه سيجي.. المصمم

(١) نسبة إلى مدينة البندقية الإيطالية. (المترجم).

(٢) نسبة إلى جبال الألب. (المترجم).

سامبيه.. المُغَنَّى توماس فيرسن..الرَّسَّام جورج
كرينبل.

عودةً إلى باريس: المؤلف وراء جهاز
كمبيوتره..وسطَ قواميسه هذه المرّة.

هو مُولَعٌ بها. يقولُ مِنْ جهةٍ أُخْرَى نَعْرِفُ وهذه
هى خلاصة الفيلم: أَنَّهُ دَخَلَ قاموسَ لو روبير^(١) إلى
حَرْفِ (ب/ B) تَحْتَ اسْمِ بِنَاكٍ مِنْ اسْمِهِ^(٢) الكامل
بناكشيونى.. دانيال مِنْ اسْمِهِ. أُمِّى.. والحَالَةُ هذه..
تشاهدُ هذا الفيلم فى رَفْقَةٍ أُخْرَى بِرَنَارَ الذى سَجَّلَهُ
مِنْ أَجْلِهَا. تشاهده مِنْ أَوَّلِهِ إلى آخِرِهِ وهى لا تتحركُ
فَوْقَ مَقْعِدِهَا. عَيْنَاهَا فى حَالَةٍ تَرْكِيزٍ شَدِيدٍ.. دُونَ أَنْ
تُبْسَ بِبِنْتِ شَفَةِ فى المَسَاءِ الذى حَلَّ.

نهايةُ الفيلم.

مُقدِّمةُ الفيلم.

سكوت.

بَعْدَ ذَلِكَ تَسْتَدِيرُ نَاحِيَةَ بِرَنَارَ وتَسْأَلُ: أتعْتقدُ أَنَّهُ
سَيُشْفَى ذاتَ يَوْمٍ؟

(١) اسم أهم وأشهر قواميس اللغة الفرنسية (المترجم).

(٢) اسم المؤلف كاملاً هو: دانيال بناكشيونى. (المترجم).

كَمْ كُنْتُ تَلْمِيزاً سَيِّئاً غَيْرَ أَنَّهَا لَمْ تَصِلْ تَمَاماً إِلَى
درجَةِ أَنْ تَزَجِرْنِي. الْيَوْمَ شَعُورُهَا شَعُورُ امْرَأَةٍ عَجُوزٍ
جِدّاً تَهْجُرُ شَوَاطِئَ الْحَاضِرِ كِي تَرْتَدَّ بِهِدْوٍ فِي اتِّجَاهِ
أَرْخَبِيلِ الذَّاكِرَةِ الْبَعِيدِ.. الْحَشْفَةُ الْأُولَى (*) - كِي تَتَّبِقَ
مَرَّةً أُخْرَى - تُذَكِّرُهَا بِانْشِغَالِ الْبَالِ هَذَا الَّذِي كَانَ
يَقْضُمُهَا طَوَالَ فِتْرَةٍ دِرَاسَتِي.

تَلْقَى إِلَى نَظَرَةٍ مَهْمُومَةٍ وَبِطْءٍ:

. مَاذَا تَفْعَلُ فِي الْحَيَاةِ؟

فِي وَقْتٍ مُبَكَّرٍ جِدّاً بَدَأَ لَهَا مُسْتَقْبَلِي قَاتِماً لِلْغَايَةِ
درجَةِ أَنَّهَا لَمْ تَطْمَئِنِّ تَمَاماً لِحَاضِرِي. لَمْ أَكُنْ شَيْئاً كِي
أَصْبَحَ شَيْئاً.. لَمْ أَكُنْ أَبْدُو لَهَا مُسَلِّحاً حَتَّى أَدُومَ كُنْتُ
طِفْلَهَا الْوَقْتِيَّ. لَقَدْ عَرَفْتَنِي مَعَ هَذَا وَأَنَا أَتَخَلَّصُ مِنْ
مَا زَقَى مِنْذُ شَهْرِ سِبْتِمْبَرِ ١٩٦٩ يَوْمَ أَنْ دَخَلْتُ فَصْلِي
الْأَوَّلَ بِصِفَتِي مُدْرَساً. لَكِنْ فِي غُضُونِ عَشْرَاتِ السَّنِينَ
الَّتِي تَلَتْ هَذَا (هَذَا يَعْنِي أَثْنَاءَ مُدَّةِ حَيَاتِي وَأَنَا
بَالِغٌ) قَاوَمَ انْشِغَالُ بَالِهَا سِراً كُلِّ (بِرَاهِينِ

(*) صَخْرَةٌ كَبِيرَةٌ قَرِبَ شَاطِئِ الْبَحْرِ وَالْكَلِمَةُ مَأْخُودَةٌ عَنِ الْكَلِمَةِ
الْعَرَبِيَّةِ: رَصِيفٍ. (الْمُتَرْجِم).

النجاح) التى جَلَبَتْ عليها مَكالماتى
الهاتفية.. خطاباتى.. زياراتى.. صُـدُور كُتـبى.. مقالات
الجرائد أو مرورى عند بيثوبلا استقرار حياتى المهنية
ولا معرفة عملى الأدبى.. لا شىء مما كانت تسمعه
يُقال عني بواسطة آخرين أو ما كانت تستطيع أن
تطالعه فى الصحف لم يطمئننها كُليَّة بالتاكيد.. كانت
تبتهجُ بنجاحاتى مُتحدثة عنها مع أصدقائها مُعترفة
أن أبى - الذى مات قبل أن يتعرف إليهم - كان يمكن أن
يسر بنجاحاتى.. لكن فى قرارة نفسها كان يقطن قلق
أنها تسببت وإلى الأبد فى ولادة تلميذ سيئ منذ
البداية. هكذا كانت تُعبر عن حب الأم.. حين كنتُ
أمزح معها فيما يخص لذاتِ القلقِ الأمومى كانت تردُّ
بَلُطَفٍ بِنُكْتَةٍ على طريقة وودى ألين:

. ماذا تريدُ.. كلُّ الرِّحالاتِ ليستُ أمهاتٍ لكن كلُّ
الأمهاتِ رحالاتٌ.

و.. اليوم لم تعدُ أُمى العجوزُ الرحالة حاضرة.. إنه
من جديد ذلك القلق الذى يبدو فى عينيها حين
يستقرآن على صغيرها الأخير ذى الستين عاماً قلقٌ
قليل من شدتها.. همُّ متحجّر.. لم يعد سوى عاداتها هى
نفسها.. لكن ما يمكثُ صلباً بالقدر الكافى من أجل
أن تسألنى أُمى.. هو يدها الموضوعة فوق يدي حين
أتركها:

. أديك شقّة فى باريس؟

إذا .. كُنْتُ تَلْمِيزًا سَيِّئًا. كُلُّ مَسَاءٍ مِنْ مَسَاءَاتِ
طِفُولَتِي كُنْتُ أَعُودُ إِلَى مَنْزَلِي تُلاحقنِي مَدْرَسَتِي.
كَانَتْ كِرَاسَاتِي تَرَوِي تَوْبِيخَ أَسَاتِذَتِي الشَّدِيدِ لِي. حِينَ
لَا أَكُونُ الْأَخِيرَ فِي التَّرْتِيبِ عَلَى الْفَصْلِ فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ
تَرْتِيبِي هُوَ قَبْلَ الْأَخِيرِ.

(سَهْلٌ طَبَاشِيرِي!)

عَصَى الذَّهْنَ عَلَى الْحِسَابِ أَوَّلًا. ثُمَّ عَلَى
الرِّيَاضِيَّاتِ بَعْدَ ذَلِكَ. ثُمَّ أَخْطَاءُ إِمْلَائِيَّةٍ
بَعْمَقٍ. مُتَمَرِّدٌ عَلَى حِفْظِ التَّوَارِيخِ. عَلَى حَصْرِ الْأَمَاكِنِ
الْجُغْرَافِيَّةِ. غَيْرُ جَدِيرٍ بِالتَّدْرِبِ عَلَى اللُّغَاتِ الْأَجْنِبِيَّةِ..
مَشْهُورٌ بِالْكَسَلِ (دُرُوسٌ لَا تُسْتَذَكَّرُ. عَمَلٌ لَا يُؤَدَّى)..
كُنْتُ أَجْلِبُ إِلَى الْمَنْزِلِ نَتَائِجَ تَدْعُو إِلَى الرِّثَاءِ. لَمْ
تَكُنْ تُكْفَرُ عَنْهَا لَا الْمَوْسِيقَى وَلَا الرِّيَاضَةُ وَلَا حَتَّى أَيْ
نَشَاطٍ دِرَاسِيٍّ آخَرَ.

.. هَلْ تَفْهَمُ؟ .. هَلْ تَفْهَمُ مَا أَقُومُ بِشَرْحِهِ لَكَ
فَقَطُّ؟

لَمْ أَكُنْ أَفْهَمُ. كَانَ عَدَمُ الْقُدْرَةِ عَلَى الْفْهَمِ هَذَا
يَعُودُ إِلَى طِفُولَتِي أَبْعَدَ كَثِيرًا مِنَ الْأَسْطُورَةِ الَّتِي

تَخَيَّلْتُهَا أُسْرَتِي كِي تُورَخَ مِنْهَا لِلْأَسَاسِيَّاتِ تَدْرِبِي عَلَى
الْحُرُوفِ الْأَبْجَدِيَّةِ. كُنْتُ أَسْمَعُ مَنْ يَقُولُ بِأَنَّنِي أَحْتَاجُ
إِلَى عَامٍ كَامِلٍ كِي أَحْفَظَ حَرْفَ الـ (a) . حَرْفُ الـ (a)
فِي عَامٍ.

كَانَتْ صَحْرَاءُ غُبَائِي تَبْدَأُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ حَرْفِ الـ
(b) الذِي لَا يُقْهَرُ. مَا مِنْ هَلَعٍ.. فِي غَضُونِ سِتَّةٍ
وَعَشْرِينَ عَامًا سَيَعْرِفُ حُرُوفَ أَبْجَدِيَّتِهِ بِأَمْتِيَّازٍ. هَكَذَا
كَانَ أَبِي يَتَهَكَّمُ كِي يُلْهِى نَفْسُهُ عَمَّا فِي دَاخِلِهِ مِنْ
خَوْفٍ. فِيمَا بَعْدُ بِسِنَوَاتٍ عَدِيدَةٍ كُنْتُ أُعِيدُ سَنَتِي
الْنَهَائِيَّةَ لِنَيْلِ الشَّهَادَةِ الثَّانَوِيَّةِ الَّتِي أَفْلَتْتُ مِنِّْي
بِإِصْرَارٍ.. ثُمَّ سَيَقُولُ أَبِي هَذِهِ الْعِبَارَةُ:

- لَا تَقْلَقْ.. حَتَّى بِالنَّسْبَةِ إِلَى الثَّانَوِيَّةِ الْعَامَةِ
سَتَحْصِلُ عَلَيْهَا بِشَكْلِ آلِي...

أَوْ.. فِي سِبْتَمْبَرِ ١٩٦٨ كَانَتْ شَهَادَةُ لَيْسَانْسِ
الْآدَابِ أَخِيرًا فِي جَيْبِي:

- كُنْتُ تَحْتَاجُ إِلَى انْقِلَابٍ مِنْ أَجْلِ شَهَادَةِ
الْلَيْسَانْسِ.. أَلَا بُدَّ أَنْ نَخْشَى وَقُوعَ حَرْبٍ عَالَمِيَّةٍ مِنْ
أَجْلِ شَهَادَةِ الْأُسْتَاذِيَّةِ؟

قِيلَ هَذَا دُونَ سُوءِ نِيَّةٍ شَخْصِيَّةٍ. كَانَ هَذَا هُوَ
حَالُنَا فِي التَّوَاطُؤِ بِسُرْعَةٍ تَكْفِي فَضْلُنَا الْإِبْتِسَامَ.. أَبِي
وَأَنَا.

لَكِنْ لِنَعُودَ إِلَى بَدَايَاتِي. كُنْتُ الْمَوْلُودَ الْآخِرَ بَيْنَ
أَرْبَعَةِ إِخْوَةٍ. وَكُنْتُ حَالَةً شَاذَةً لَمْ يَكُنْ لَدَيَّ أَبِي وَأُمِّي
وَقْتُ لِيَتَدْرَبَا مَعَ إِخْوَتِي الذِينَ كَانُوا يَكْبِرُونَنِي وَالذِينَ

جَرَتْ الأُمُورُ دونَها مُعارضةً كى لا تكون دراستهم مُتألّقة بِشكْلِ اسْتِثْنائِيٍّ. كُنْتُ مُتارَ ذَهولٍ.. ذَهولٍ دائِمٍ إِذْ إِنَّ السَّنَواتِ كانتْ تَمُرُّ دونَ أَنْ تَحْمَلَ لى مَعها أدنى تَحسِّنٍ فى حالَةِ بلادَتى الدراسِيةِ. (يُذهِلُنِى هَذا).. (لَمْ أَصِرُّ على التَّفكيرِ فىهِ).. كانَ ثَمَّةَ تَعَجَّبٍ عائِلِيٍّ يُشارِكُنِى نظراتِ بِلوغى حَيْثُما أرى بِشكْلِ جَيِّدٍ أَنَّ عَجَزى عَنِ الاسْتِيعابِ أَيّْ ما كانَ يُشَبِّهُ حَفَرَ هاوِيةٍ مِنْ جَعودٍ.

ظاهِريًّا .. كانَ الجَمِيعُ يَفْهَمونَ أَسْرَعَ مِنِّى بِكَثيرٍ.

– أَنتَ بَلِيدُ الذَّهْنِ تَمامًا!.

ذاتَ ظَهِيرةٍ ما فى سَنَةٍ مِنْ سَنَواتِ الشَّهادَةِ الثانَوِيةِ (إِحدى سَنَواتِ الثانَوِيةِ).. أُعْطانى أبى دَرْسا فى مادَةِ حِسابِ المُثَلَّثاتِ فى الحُجْرَةِ الَّتى كانتْ تُودى دُورَ حُجْرَةِ المَكْتَبَةِ. كانَ كَلْبُنا يَرَقُدُ فى هِدوٍ فَوْقَ السَّريرِ خَلْفَنا. لا فِتا الأَنْظارَ مالَ أبى إلى الِوراءِ بِجِفاءٍ وَقالَ:

– اخْرَجْ أَهْيا الكَلْبُ مِنْ هَنا!.

بَعْدَ ذَلكَ بِخَمَسِ دَقائِقَ كانَ الكَلْبُ مرَّةً أُخْرى فَوْقَ السَّريرِ تَحْدِيداً تَعَهَّدَ بِأَنْ يَبْحَثَ عَنِ الفِطاءِ القَدِيمِ الَّذى كانَ يَمُى مَقْعَدُهُ وَأَنْ ينامَ فَوْقَهُ.

إِعْجابٌ عامٌّ.. بِكُلِّ تَأْكِيدٍ.. ومُبَرَّرٌ: أَنَّ يَسْتَطِيعَ حَيوانٌ أَنْ يَرِيطَ ما بَيْنَ المَنعِ والفِكرَةِ المُجَرَّدَةِ لِلنَّظائِفَةِ وَيَخْرُجُ مِنْها بِالْخِلاصَةِ الَّتى يُرتَبُ فِرَاشُهُ بِناءٍ عَلَيْها

كى يَنعمَ بِصُحبةِ مالِكيهِ.. فلأُرفَعْ لَهُ قُبعتى.. بِالتأكِيدِ
هَذَا مَنطَقٌ يُوثِّقُ بِهِ!.

كَانَ هَذَا مَوْضوعاً لِلْمُحَادَثَاتِ الْعَائِلِيَةِ الَّتِي عَبَرْتُ
الْعَصُورَ. شَخْصِيّاً.. فَرَرْتُ مِنَ التَّعْلِيمِ الَّذِي حَتَّى كَلْبُ
الْمَنْزِلِ كَانَ يَسْتَوْعِبُهُ أَكْثَرَ سُرْعَةٍ مِنِّي. أَعْتَقَدُ أَنَّنِي
سَأَهْمِسُ فِي أُذُنِهِ:

غَدَاً.. أَنْتَ مَنْ سَيَذْهَبُ إِلَى الْمَدْرَسَةِ.. مُتَمَلِّقاً.

سَيِّدَانِ مُسْنَانِ يَتَنَزَّهَانِ عَلَى شَاطِئِ اللَّوْبِ. نَهْرُ
 طِفُولَتَهُمَا. أَخَانِ. أَخِي بَرْنَارِ وَأَنَا كَانَا يَفُوصَانِ فِي هَذَا
 النِّقَاءِ مِنْذِ نَصْفِ قَرْنٍ مَضَى. كَانَا يَسْبَحَانِ وَسَطَ
 أَسْمَاكِ الطَّحَّانِ الَّتِي لَمْ يَكُنْ يُرْعِبُهَا ضَجِيجُهُمَا.
 أَتَاكَتْ أَلْفَةُ الْأَسْمَاكِ لَهُمَا أَنْ يَظُنَّا أَنَّ هَذَا السَّرُورَ
 سَيَدُومُ. كَانَ النَّهْرُ يَجْرِي بَيْنَ مُنْحَدَرَيْنِ حِينَ تَتَّبَعُهُ
 الْأَخَانِ حَتَّى الْبَحْرِ.. تَارَةً يَحْمَلُهُمَا التِّيَّارُ وَتَارَةً يَمْشِيَانِ
 عَلَى الصَّخُورِ أَدْرَكَمَا أَنََّّهُمَا سَوْفَ يَتَوَهَّانِ. كَى يَلْتَقِيَا
 مَرَّةً أُخْرَى كَانَا قَدْ تَعَلَّمَا كَيْفَ يُصَفِّرَانِ بِاسْتِخْدَامِ
 أَصَابِعِهِمَا. كَانَ ثَمَّةَ صَرِيرٍ طَوِيلٍ يَرْتَدُّ مِنَ الْحَوَاجِزِ
 الصَّخْرِيَّةِ.

الْيَوْمَ.. انْخَفَضَ مُسْتَوَى الْمِيَاهِ.. اخْتَفَتِ
 الْأَسْمَاكِ.. زَيْدٌ لَزِجٌ وَرَاكِدٌ يُعْلَنُ انْتِصَارَ الْمُبِيدَاتِ
 الْمُنْتَظَفَةِ عَلَى الطَّبِيعَةِ لَمْ يَبْقَ مِنْ طِفُولَتِنَا سِوَى شِدْوِ
 عَصَافِيرِ الْحَصَادِ.. سِوَى حَرَارَةِ الشَّمْسِ الصَّمْفِيَّةِ، ثُمَّ
 نَعَرَفُ دَائِمًا كَيْفَ نُصَفِّرُ بِاسْتِخْدَامِ أَصَابِعِنَا.. لَمْ نَفْقَدْ
 أَبَدًا أَذْنَا.

أَقُولُ لِبَرْنَارِ إِنَّنِي أَحْلَمُ بِتَأْلِيفِ كِتَابٍ يَتَعَلَّقُ
 بِالْمَدْرَسَةِ. لَيْسَتْ الْمَدْرَسَةُ الَّتِي تَتَغَيَّرُ فِي الْمَجْتَمَعِ الَّذِي

يَتَغَيَّرُ كَمَا تَغَيَّرَ هَذَا النَّهْرُ.. لَكِنْ فِي قَلْبِ هَذِهِ الْبَلْبَلَةِ
الْمُتَوَاصِلَةِ يَتَعَلَّقُ بِمَا لَا يَتَغَيَّرُ. تَحْدِيدًا.. بِشَيْءٍ دَائِمٍ لَمْ
أَسْمَعْ أَحَدًا يَتَحَدَّثُ عَنْهُ أَبَدًا: الْأَلَمُ الَّذِي يُشْطَرُّ
التَّلْمِيزَ الْكَسُولَ إِلَى نَصَفَيْنِ.. أَلَمُ الْآبَاءِ.. أَلَمُ
الْمُدْرَسِينَ.. كِتَابٌ يَتَعَلَّقُ بِتَضَاعُلِ كُلِّ هَذِهِ الْأَحْزَانِ
الْمُدْرَسِيَّةِ.

- مَنَهِجٌ ضَخْمٌ.. كَيْفَ سَتُلَمُّ بِهِ؟

- مُهَيِّئًا الطَّعَامَ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ. آيَةُ ذِكْرِيَّاتٍ
مَازَلْتُ تَحْتَفِظُ بِهَا عَنْ عَدَمِ كِفَاعَتِي.. فَلَنَقُلْ فِي
الرِّيَاضِيَّاتِ مَثَلًا؟

كَانَ أَخِي بَرْنَارَ الْفَرْدُ الْوَحِيدُ فِي أُسْرَتِي الَّذِي
لَدَيْهِ الْقُدْرَةُ عَلَى مُسَاعَدَتِي فِي عَمَلِي الدِّرَاسِي دُونَ
أَنْ أَلْجَأَ إِلَى حَبْسِ نَفْسِي كَمَحَارَةٍ. كُنَّا نَتَقَاسَمُ الْحُجْرَةَ
نَفْسَهَا حَتَّى دَخُولِي الصَّفِّ الْخَامِسَ حَيْثُ قُبِلْتُ فِي
مَدْرَسَةٍ دَاخِلِيَّةٍ.

- فِي الرِّيَاضِيَّاتِ؟ بَدَأَ هَذَا بِالْحِسَابِ.. أَنْتَ
تَعْرِفُ!.

ذَاتَ يَوْمٍ سَأَلْتُكَ مَاذَا تَفْعَلُ بِهِذَا الْكَسْرِ الْاعْتِيَادِي
الَّذِي تَرَاهُ أَسْفَلَ عَيْنَيْكَ فَأَجَبْتَنِي بِشَكْلِ آلِي: (يَجِبُ أَنْ
نُحَوِّلَهُ إِلَى عَامِلٍ مُشْتَرَكٍ) (*)

لَمْ يَكُنْ سِوَى عَامِلٍ مُشْتَرَكٍ.. إِذَا عَامِلٌ مُشْتَرَكٌ
وَحِيدٌ. لَكِنَّكَ لَا تَرْجِعُ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ: الْأَبَدُ مِنْ تَحْوِيلِهِ
إِلَى عَامِلٍ مُشْتَرَكٍ!

(*) الْعَامِلُ الْمُشْتَرَكُ هُوَ رَقْمٌ يَقْبَلُ حَدًّا الْكَسْرِ الْاعْتِيَادِي الْقِسْمَةَ
عَلَيْهِ (الْمُتَرَجِم).

كَمْ كُنْتُ لَحَوْحًا: فَكَّرَ قَلِيلًا.. يَا دَانِيْلَ لَا يُوجَدُ
هنا سوى عامل مشترك وحيد سخرت مني
غاضباً: إنه المدرس الذي قال ذلك يجب تحويل
الكسور إلى عوامل مشتركة!.

كَانَ السَّيْدَانِ يَبْتَسمَانِ طَوَالَ نَزْهَتَهُمَا. كُلُّ هَذَا
بَعِيدٌ جَدًّا خَلْفَهُمَا. عَمَلٌ أَحَدُهُمَا مُدْرِسًا خِلَالَ خَمْسَةِ
وَعِشْرِينَ عَامًا: أَلْفَانِ وَخَمْسِمِائَةِ تَلْمِيزٍ تَقْرِيبًا.. كَانَ
عَدَدٌ أَكِيدُ مِنْهُمْ فِي (صَعُوبَةٍ بِالْغَةِ).. حَسَبَ التَّعْبِيرِ
الشَّائِعِ.

كَانَ كِلَا الْاِثْنَيْنِ رَبًّا أُسْرَةً. (قَالَ الْمُدْرِسُ إِنَّ...)..
يَعْرِفَانِ. الْأَمْلُ الَّذِي يَضَعُهُ تَلْمِيزٌ كَسُولٌ فِي كَثْرَةِ
الطَّلِبَاتِ.. نَعَمْ.. كَلِمَاتُ الْمُدْرِسِ لَمْ تَكُنْ سِوَى أَلْوَاحٍ
خَشَبِيَّةٍ يَتَشَبَّهُ التَّلْمِيزُ السَّيِّئُ بِهَا فَوْقَ نَهْرٍ يَجْرِفُهُ
تِيَّارُهُ حَتَّى الشَّلَالَاتِ. رَدَّدَ مَا قَالَهُ الْمُدْرِسُ. لَيْسَ لِأَنَّ
هَذَا كَانَ ذَا مَعْنَى.. وَلَيْسَ لِأَنَّ الْقَاعِدَةَ قَدْ تَجَسَّدَتْ..
كَلَّا.. بَلْ كَى يَتَخَلَّصَ مِنْ مَآزِقِهِ الْمُؤَقَّتَةِ.. كَى (أَحْرَرُ).
أَوْ كَى أَحَبُّ. بِأَيِّ ثَمَنِ.

— ...

— كِتَابٌ عَنِ الْمَدْرَسَةِ حِينَئِذٍ؟

أَلَا تَرَى أَنَّ الْكُتُبَ الَّتِي تَتَنَاوَلُ هَذَا الْمَوْضُوعَ لَيْسَتْ
مَوْجُودَةً بِالْقَدْرِ الْكَافِي؟

— لَيْسَ عَنِ الْمَدْرَسَةِ! فَالْجَمِيعُ مُهْتَمُونَ بِالْمَدْرَسَةِ..

نِزَاعٌ أَبَدِيٌّ لِلْمَقْدَمَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ: مَنَاهِجُهَا.. دَوْرُهَا
الْمُجْتَمَعِيُّ.. قَصْدِيَّاتُهَا.. مَدْرَسَةُ الْيَوْمِ.. وَمَدْرَسَةُ
الْغَدِ.. لَا. كِتَابٌ عَنِ التَّلْمِيزِ الْكَسُولِ!.

عَنْ أَلَمْ عَدَمِ الْفَهْمِ وَآثَارِهِ الْجَانِبِيَّةِ.

... -

... -

- أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُولَ لِي شَيْئاً آخِرَ عَنِ التَّلْمِيزِ
الْكُسُولِ الَّذِي كُنْتُهُ؟

- أَنْتَ تَتَذَمَّرُ مِنْ عَدَمِ امْتِلَاكِ ذَاكِرَةٍ. لَقَدْ كَانَتْ
الدُّرُوسُ الَّتِي أَشْرَحَهَا لَكَ فِي الْمَسَاءِ تَتَبَخَّرُ حَالِماً
يَجِيءُ اللَّيْلُ. وَتَكُونُ فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ وَقَدْ نَسِيتَهَا
كُلَّهَا.

الحقيقة أن... -

لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ يَرْسَخُ فِي ذَاكِرَتِي كَمَا يَقُولُ شَبَابُ
الْيَوْمِ.

لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ مَا يَجْذِبُنِي. لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ يَرْسَخُ فِي
ذَاكِرَتِي. كَانَتْ أَبْسَطُ الْكَلِمَاتِ تَفْقَدُ فَحْوَاهَا مَا إِنْ
يُطْلَبُ مِنِّي أَنْ أَتَأَمَّلَهَا كِمَادَةٍ لِلْمَعْرِفَةِ. لَوْ كَانَ عَلَيَّ أَنْ
أَتَعْلَمَ دَرْساً عَنْ مَرْتَفَعَاتٍ جُوراً (*) عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ
(أَكْثَرُ مِنْ مَثَالٍ.. فَإِنَّهُ بِالنَّظَرِ إِلَى ذَلِكَ تَذَكَّرُ دَقِيقٌ
جِداً).. هَذِهِ الْكَلِمَةُ الصَّغِيرَةُ ذَاتِ الْمَقْطَعَيْنِ تَتَحَلَّلُ فِي
الْحَالِ حَتَّى أَفْقَدَ كُلَّ أَلْفَةٍ مَعَ (فِرَانْش - كُومْبِيه..
لِين).. مَتَجَرَّ السَّاعَاتِ.. الْفِرَادِيسِ.. الْفَلْيُونِ..
الْأَرْتِفَاعِ.. الْبَقَرِ.. صَعُوبَاتِ الشِّتَاءِ.. سُوَيْسِرَا الْمَتَاخِمَةِ
لِحُدُودِنَا. مَرْتَفَعَاتِ الْأَلْبِ أَوْ الْجِبَلِ السَّهْلِ لَمْ تَعُدْ تُمَثِّلُ
تِلْكَ الْكَلِمَةَ لِي أَيْ شَيْءٌ.. جُوراً. قَلَّتْهَا لِنَفْسِي.. جُوراً؟

(*) منطقة جبلية في فرنسا. (المترجم).

جورا.. ورحتُ أردد الكلمة دون أن أكلَّ كطفل لم يَنْتَه
بَعْدُ من مَضْغِها.. مَضْغِها لا ابتلاعها.. ترديدها لا
تَأْمُلُها.. حتى تحللها التام مذاقاً ومعنى.. أمضغ.. أردد..
جورا.. جورا.. جورا.. جو.. را ، جو.. را جورا جو
را جورا جورا جورا حتى تصبح الكلمة مطرقةً ضخمة
ترن بلا نهاية.. دون أقل بقايا المعنى.. ضجة دِيقَة
لِسِكِّيرٍ داخل مخ إسفنجي.. على هذا النحو أنام على
درس الجغرافيا.

ـ كنتَ تؤكد أنك تكره حروف البداية(*)!.

آه! حروف البداية هذه ديدانات مُفزعة!.

كان يبدو لي أنها تنتصب داخل أسماء
الأعلام وداخلى أنا كي تمتنع عن مُخالطتى.. كل
كلمة لَحِقَ بها حرف بدايةٍ كانت منذورة للنسيان
الآنئ: مدن.. أنهار.. معارك.. أبطال.. معاهدات..
شعراء.. مجرّات.. نظريات..

محظورات الذاكرة بسبب حرف البداية
المذهول.. قف.. كان حرف البداية يتعجب.. لم أعبر
باب هذا الاسم.. إنه أكثر خصوصية.. لستُ جديرًا
به.. أنا أبله!

كان برنار دقيقًا.. طوال طريقنا:

ـ حرف صغير جداً.. أبله!.

ضحكاتُ أخين.

(*) حروف كبيرة تبدأ بها أسماء الأعلام فى معظم اللغات الأجنبية
ونسُميها فى العربية بحروف (كابتال). (المترجم).

. فيما بعد.. كان ثمة تمرد على اللغات الأجنبية:
لم أكن أستطيع أن أنتزعنى من فكرة أن هناك فيها
أشياء أكثر ذكاءً بالقياس إلى..

.. ما كان يُعْضيك من تعلم قوائم المفردات.
.. كانت كلمات اللغة الإنجليزية تتبخر كأسماء

الأعلام...

... -

... -

. كنتَ تروى لنفسك حكايات.. فى مُجملها..

نعم إنها ميزة التلاميذ الكُسالى.. يحكون لأنفسهم
فى حلقات قصة تكاسلهم: أنا بلا فائدة.. لن أتوصل
أبداً إلى أن أكون ذا فائدة.. أنا لست أهلاً لتحمل
مشقة التجربة.. أنا مُفلسٌ سلفاً.. نَعَمْ ما أخبرتكم به..
المدرسة ليست مُهيأةً لى...

يُخيل للكسالى أن المدرسة نادٍ مفلقٍ بإحكام
يُمنعون من دخوله.. بمساعدة بعض المدرسين.. أحياناً..

... -

... -

سيدان مُسنَّان يتنزهان بمحاذاة نهر.. فى نهاية
نزهتهما يسقطان فى مسطح مائى تُطوّقه شبكات من
الحصى..

يسأل برنار:

. أنتَ كذلك جيدٌ فى قفزاتك دائماً؟

بطبيعة الحال ثمة سؤال يُمكن أن يُوجّه عن
السبب الأساسي من أين كان يأتي تكاسلى؟
طفل ينتمى إلى الطبقة الوسطى فى
الدولة.. سليل عائلة ودودة.. دون شقاق.. مُحاطٌ
ببالغين على قدر المسئولية كانوا يُساعدوننى فى أداء
واجباتى...

أب بوليتكنيكى^(١) .. أم ربة منزل.. ليس هناك
انفصال.. ليس هناك مدمنو خمر.. ليس هناك
أشخاص انفعاليين.. ليس هناك عاهات وراثية.. ثلاثة
إخوة حصلوا على شهادة البكالوريا (مُغرمون
 بالرياضيات.. عما قريب سيصبحون مهندسين
 وضابطاً).. نظام عائلى سوى.. طعامٌ صحى.. مكتبةٌ
 فى المنزل.. ثقافةٌ مُحيطَةٌ تُناسبُ وسط وحاضر القرن
(أب وأم مولودان قبل عام ١٩١٤): فنُّ الرسم حتى
 الانطباعيين^(٢).. الشعر حتى مالارميه.. الموسيقى

(١) خريج مدرسة البوليتكنيك فى فرنسا. (المترجم).

(٢) معتنقو المذهب الانطباعى فى الفن مدرسة فنية وجدت فى
القرن التاسع عشر، واسمها مستمد من عنوان لوحة للرسم
الفرنسى كلود هوينه (انطباع شروق الشمس) التي قام برسمها
عام ١٨٧٢م وهى باختصار شديد أسلوب فنى يعتمد على نقل
الصورة أو الحدث كما تراه العين المجردة

حتى دبوسى.. روايات روسية.. حَقْبَةُ تيلار دو
شاردان.. چواس وسيوران التى لا مفر منها من أجل
الجرأة... أحاديث مائدةٍ مُضحكةٍ ومُثَقِّفةٍ تتمُّ فى
هدوء.

ومع هذا ثمة تلميذ كسول.

كذلك ما من تفسير لجذبه من الواقع الأسرى. إنه
تدرُّج اجتماعى فى ثلاثة أجيال بفضل المدرسة
العلمانية.. المجانية والإلزامية. ارتقاء جمهورى فى
مُجْمَله. انتصارٌ على طريقة چول فيرى.. چول آخر..
عمُّ أبى.. العم چول بناكشيونى.. قاد أبناء جارجاليه
وبيللا - كانال.. قُرَى العائلة الكورسيكية^(١) فى
الحصول على شهادات دراسية. الجميع مَدِينُونَ له
بأجيالٍ من مُدرِّسى المرحلة الابتدائية.. من سُعَاة
البريد.. من رجال الشرطة.. من موظفى فرنسا
الاستعمارية والأسقفية آخرين.. (كذلك ربما نكون
مَدِينِينَ له بعددٍ من قُطَّاع الطُّرُق.. لكنه جعل مِنْهُمْ
قُرَاءً.)

يُقال إنَّ العمَّ كان يُكَلِّفُ الجميع فى الحِلِّ
والترحال بالإملاء.. بتمرينات الحساب.. كذلك يقال
إنَّه وصل به الحالُ إلى خَطْفِ الأطفال الذين كان
آباؤهم يضطرون لتغيبهم عن المدرسة أثناء قطاف
الكستناء. كان يعيدهم إلى الأدغال ويصحبهم إلى
حيث يقيم ويخبر الأب الرَقَى^(٢):

(١) نسبة إلى جزيرة كورسيكا والوصف هنا للقرى. (المترجم).

(٢) نسبة إلى تجارة الرقيق. (المترجم).

. سأردُّ إليك ابنك فورَ حصوله على شهادته!.

إنَّ كانت هذه أسطورة فأنا أحبها. أنا لا أعتقد أننا نستطيع أن نتصور . على خلاف ذلك . مهنة المدرس كل الأذى الذى نُلحقه بالمدرسة يُخفى عن أعيننا عدد الأطفال الذين تنقذهم المدرسة من الفساد . من التعصب . من العجرفة . من الجهل . من حماقة . من الجشع . من الجمود . أو من جبريَّة العائلات .

كذا كان العمُّ على الرغم من هذا ثمة أجيال ثلاثة فيما بعد .. أنا .. التلميذ الكسول !
ماذا لو عرف العمُّ بى !.

من حُسْنِ حظِّه أنه مات قبل أن يشهد مولدى وإلا لألحقتُ به الخزى والعار . ليس فقط من سبقونى كانوا يمنعوننى من التكاسل .. لكن آخر من يمثِّل الذرية يحْمِلُ شهادةً . كنتُ مُبرمجاً اجتماعياً كى أصبحَ زهرةَ العائلة :

بوليتكنيكياً .. أو طالباً فى دار المعلمين .. أو خريجَ المدرسة الوطنية للإدارة .. ديوان المحاسبة .. أو وزيراً .. ستعرف العائلة التى لم تكن تستطيع أن تحلم بأقل من هذا . على ذلك ثمة اتحاد مؤثر مع الوضع فى عالم الأطفال المُقدَّر لهم منذ الصغر دخول صفِّ لويس لو جران الإعدادى والمدفوعين جهة عرش الإليزيه^(١) أو جهة اتحاد التجميل العالمى .

نمط الدارونية^(٢) الاجتماعية .. إنتاج النُخب ...

(١) أشهر شوارع العاصمة الفرنسية باريس . (المترجم).

(٢) نسبة إلى نظرية دارون فى أصل الأنواع . (المترجم).

وبعد تلميذ كسول.

تلميذ كسول دون سَنَدٍ تاريخي.. دون دراية اجتماعية.. دون انكفاء:

لماذا؟

ربما تكون الإجابة راقدة في حُجرة العالم النفسى.. لكن لم يكن ذاك هو زمن عالم الطلاب النفسى الذى يتأملهم كبديل عائلى. كنا نصنع طاقات من الشاطئ.

مَنْ جانبه كان برنار يُبدى تفسيره:
. وأنتَ فى عمر ست سنوات سقطتَ فى صندوق قمامة جيبوتى.

. ست سنوات؟ عام حرف الـ (A)

. نعم. كان إخراج ريح فى هواء طلق حقاً.
لقد سقطتَ فيه من أعلى جدار. لا أذكر كمّ من الوقت ظللتَ منقوعاً فيه. كنتَ قد اختفيتَ.. بحثنا عنك فى كل مكان فيما كنتَ تتخبطُ فى هذا المكان.. فى حرارة شمسٍ قاربت على الستين درجة مئوية.
أنا أفضلُ ألا أتخيل ما كان يشبهه هذا المنظر.

صورة صندوق القمامة إن أردنا الدقة تقترب بشكل كافٍ من الإحساس بالنقص الذى يشعر به تلميذ ضائع فى علاقته بالمدرسة. من جهة أخرى سمعتُ كلمة (صندوق القمامة) تُتلق لمرات عديدة كى تصف هذه الصناديق الخاصة التى تقبلُ دون تعاقد (بأى ثمن؟) أن تجمع حُثالة مَدْرسة ثانوية. لقد عشتُ

ففيها من الصف الأول حتى الصف الخامس طالباً داخلياً . من بين المدرسين الذين كنتُ أخضع لهم أربعة منهم أنقذوني .

عندما أخرجناكَ من كومة القذارة تلك كان دمك قد تسمّم فظللنا نحَقِّنكَ بالبنسلين لعدة أشهر .
كان هذا يؤلمك كثيراً .. كدتَ تموت خوفاً . كنا نقضى ساعات نبحثُ عنكَ في المنزل حال وصول الممرض . ذات يوم اختبأتُ في دولاب فسقط فوق رأسك .. خوفاً من وخزة الحقنة . ها هو المجاز يتحدث :

انقضتْ فترة دراستي كلها وأنا أفرُّ من المدرسين الذين كانوا يترصدون لي كأشباح تتسلح بإبرٍ عملاقة ومُعبّأة لتلقيحني بهذا الحرق السميكَ .. بنسلين سنوات الخمسينيات - التي أتذكرها جيداً - هو نوع من الرصاص المذاب الذي كانوا يضخّونه في جسد طفل .
على أيّة حالٍ . نعم . كان الخوف حقيقةً أكبرَ مشكلة طوال مدة دراستي . وكان هو حاجزها .

إلحاح المدرس الذي أصبحته أنا كان لعلاجِ خوفٍ أكثرَ تلاميذي سوءاً كي يجعلهم يُهشّمون هذا الحاجز . ومنَ ثمَّ يُتيحون للمعرفةِ فُرصةً للمرور .

-٦-

أَحْلَمُ. لَيْسَ حُلْمَ طِفْلٍ.. إِنَّهُ حُلْمُ الْيَوْمِ.. فِيمَا
أَدَوْنُ هَذَا الْكِتَابِ تَحْدِيداً بَعْدَ الْبَابِ السَّابِقِ.. الْحَقُّ
يُقَالُ. أَجْلَسَ مُرْتَدِياً بِيَجَامَتِي عَلَى حَافَةِ سَرِيرِي ثَمَّةً
أَرْقَامٌ بِلَاسْتِيكِيَّةٍ ضَخْمَةً كَتَلِكَ الَّتِي يَلْعَبُ بِهَا الْأَطْفَالُ
الْصَفَارِ.. مَنْثُورَةٌ فَوْقَ السَّجَادَةِ.. أَمَامِي عَلَى أَنَّ
(أُرْتَبَاهَا).

إِنَّهُ النَّصُّ الْمَنْطُوقُ.

تَبْدُو الْعَمَلِيَّةُ سَهْلَةً بِالنَّسْبَةِ إِلَى.. وَلِذَا فَأَنَا
سَعِيدٌ. أَنَحْنِي.. أَمْدٌ ذِرَاعِي نَاحِيَةً هَذِهِ الْأَرْقَامِ. يَتَبَيَّنُ
لِي أَنَّ يَدِيَّ قَدْ اخْتَفَيْتَا لَمْ تَعُدْ هُنَاكَ يَدَانِ فِي طَرَفِي
بِيَجَامَتِي. أَكْمَامِي خَاوِيَةٌ. لَيْسَ اخْتِفَاءُ يَدِيَّ هُوَ الَّذِي
أَفْقَدَنِي عَقْلِي إِنَّمَا عَدَمُ اسْتِطَاعَتِي أَنْ أَصِلَ إِلَى
الْأَرْقَامِ كَيْ أُرْتَبَاهَا لِيَتَنَى أَعْرِفُ كَيْفَ أَفْعَلُ هَذَا.

لكنّ.. ظاهرياً.. دون أن أكون عَصِيّ المزاج..
كنتُ طفلاً شيطاً ومُحبّاً للعب. كنتُ ماهراً في لعبة
البلي ولعبة العُظيّمات(*).. لم يكن أحدٌ يُجاريني في
لعبة الكرة المحبوسة. كنتُ بطل العالم في لعبة
الوسادة.. كنتُ أَلْعِبُ حقاً. بالأحرى كنتُ ثرثاراً
وساخراً بل مُهرجاً. حدثتُ ألفةً بيني وبين عدد من
الأصدقاء من كل المستويات في الفصل.. تلاميذ
كسالى طبعاً.. سِحناتهم مُتكررة أيضاً. لم تكن لدى
أراء مُسبّقة. كان بعض المدرسين يوبّخونني على
فُكاهتي أكثر مما يفعلون ذلك مع الجميع. وكان هذا
يضيف سفاهتي إلى عجزى. أقل درجات الأدب
بالنسبة إلى تلميذ كسول أن يكون رزيناً: محبط
سيكون المثل الأعلى!

فقط.. كانت حيويتي ضرورةً بالنسبة إلى.. إن
استطعتُ أن أقول هذا. كان اللعب ينقذني من الألم
الذى كان يجتاحني منذ أن أسقط في خِزِي المنعزل
مرةً أخرى. يا إلهي!

(*) واحدة من ألعاب الأطفال الشهيرة في فرنسا. (المترجم).

عزلةٌ تلميذ كسول في خزيه لا تقوم أبداً بفعل ما
ينبغي فعله من هنا جاءت رغبتي في الفرار. شعرتُ
مبكراً بالرغبة في الفرار. إلى أين؟ كفى غموضاً.

فلنقل الفرار من نفسي.. لكن إلى نفسي. غير أن
الآخرين كانوا يتقبلون جزءاً ما مني. على الأرجح كان
الأمر يقتضي فرارى من كتابة غريبة سبقت كتابتي.
وبدلاً من تشكيل الحروف الأبجدية كنتُ أرسم
سحنات بشرية كانت تهرب إلى الهامش لتكونَ
مجموعة من الرسومات. في البداية كنتُ أجتهد
وأثابر.. كنتُ أكفُ حروفي بطريقة ما.. لكن شيئاً
فشيئاً تحولت الحروف إلى كائنات صغيرة مُفككة
ومبتهجة رحلتُ لتمارس فرحتها في موضع آخر. رموز
أحتاجى للحياة الكتابية:

(*).....

.....

حتى اليوم مازلتُ أستخدم هذه السحنات
البشرية في إهداءاتي. إنها عزيزة على من أجل
تقطيعها بحثاً عن سطحية متميزة نلتزم بكتابتها على
صفحات مراكز المصالح الصحفية. إنها جماعة
طفولتي.. مازلتُ أكنُّ لها وفائي.

(*) قام الكاتب برسم هذه السحنات البشرية في هامش هذه
الصفحة من الأصل الفرنسى. (المترجم).

حلمتُ وأنا مُراهق بجماعة حقيقية من الرفاق.
لم يكن آنذاك حينهم ولم يكونوا من وسَطى ولم
تمنحني بيئتي الفرصة.. لكنى اليوم أيضاً أقولها
بجرأة.. لو أتاحت الفرصة لى لأنضم إلى جماعة من
الرفاق لفعلتُ. وبأية بهجة!

لم أكن أكتفى برفاقى فى اللعب. لم أكن أقضى
معهم سوى وقت الفسحة. كنتُ أشعر وأنا فى الفصل
بالحرج. أه! يا له من حلم أن أذوب داخل جماعة من
الرفاق حيث لا أهمية للدراسة!

مَن الذى يصنع جاذبية الرفاق؟

الذويان فيهم يضارع الإحساس بالوجود. أجمل
وهم للتطابق!

الجميع من أجل نسيان شعور الغرابة المطلقة
هذا فى عالم المدرسة والابتعاد عن هذه
النظرات!

يعارض إحساس التوحد فى هذه العزلة
السرمدية.. مكان آخر فى هذا المكان.. مملكة فى
هذا السجن. يترك جزيرة التلميذ الكسول بأى ثمن..

أكان هذا على متن مركب قراصنةٍ حيثما كان لا يسود سوى قانون قبضة اليد والذي يقود في أفضل الحالات إلى السجن. كنتُ أشعر بهم أكثر قوةً منى إلى أقصى حد.. الآخرون.. المدرسون .. البالغون. أشعر أن قوتهم أكثر بطشاً من قبضة اليد.. مقبولة جداً.. شرعية جداً. ما وصلنى منها هو تجريب الحاجة للثأر التى تقترب من الهاجس. (أربعة عقود فيما بعد.. لم أكن أفاجأ حين كان يظهر تعبير (امتلاك الضفينة) فى أفواه المراهقين. يظهر متناسلاً عبر كمية من الوسائط الجديدة اجتماعيةً كانت أم ثقافية أم اقتصادية. كان يُعبّر أيضاً عن الحاجة للثأر التى كانت بالنسبة إلى مألوفة جداً).

من حسن حظى لم يكن رفاقى فى اللعب ممن ينضمون إلى جماعة ما ولم أكن أنتمى إلى أى مدينة. كنتُ بمفردى أمثل جماعة من الشباب كما تقول أغنية رينو. جماعة متواضعة جداً حيث أمارس منعزلاً الانتقام المتستر. السنة الثيران هذه.. على سبيل المثال (قراءة مائة).. والتى كانت تُقطع ليلاً لحفظها فى مُعلبات كنتُ أَسَمَّرُها على باب المشرف لأنه يقدمها لنا مرتين أسبوعياً. كنا نجدها فى اليوم التالى فى أطباقنا إن لم نكن قد أكلناها. أو هذه الرنكة المدخنة(*) والمربوطة فى شكمان عربية مدرس اللغة الإنجليزية الحديثة تماماً (كانت من ماركة (*) سمكة من فصيلة الصابوغيات. (المترجم).

أريان..أتذكرها..جانب الإطارات المطاطية الأبيض
كأحذية من الإسْقُمَرى... (١)

والذى بطريقة مبهمة راح يجعل السمكة المشوية
تتعفن وهى فى وضعها السليم والتي فى الأيام الأولى
كان صاحبها قد أفسد السمك وهو يدخل الفصل.

أو هذه الدجاجات قرابة الثلاثين التى تم خطفها
من المزارع المجاورة لمدرسة الجبل الداخلية كى تملأ
حجرة ناظر المدرسة طوال مدة العطلة الأسبوعية
حيثما كان يحتجزنى.

أى قُنَّ (٢) دجاج رائع أصبحت هذه الحجرة فى
ثلاثة أيام فقط:

فضلات وريش لصيق بالأرض.. وقش لإحداث
وفرة حقيقية.. بيض مكسور فى كل مكان.. حبوب
الذرة المنتورة بسخاء فى الجزء الأعلى.

دون أن أحدثكم عن الرائحة!.

آه..يقام مهرجان جميل حين يفتح رئيس المعلمين
بتلاطف باب حجرته مطلقاً المسجونات المجنونات فى
الأروقة والتي راح الجميع يلاحقونها كلٌ لحسابه
الخاص!.

كان أحقق..بالتأكيد أحقق..شرير.. ذميم..لا
يسامح.. وعقيم..مع هذا نوع الخدمة الذى لم يُحسَّن
أمزجة هيئة التدريس.. لكن سأموت قبل أن أتقدم

(١) سمكة عظيمة شائكة الزعانف (المترجم).

(٢) المكان الذى يأوى إليه الدجاج (المترجم).

بالاعتذار لدجاجاتي . رنكتي وثيراني المسكينة
بأسننتها المقطوعة. مع سحناتي البشرية المجنونة..
هم في عداد جماعة رفاقي.

ثُمَّ قَاعِدَةٌ تَرْبِوِيَّةٌ: لَا أَهْمِيَّةَ لِلشَّوَاذِ النَّادِرَةِ لَدَى
الْمُنْتَقِمِ الْمُتَسَتِّرِ (أَوْ ذِي الضَّجَّةِ الْمَاكِرِ. تِلْكَ إِذَا مَسْأَلَةٌ
رَأَى).. الَّذِي لَا يَفْصَحُ عَنْ نَفْسِهِ قَطُّ. وَإِنْ حَدَثَ
وَتَوَصَّلَ إِلَيْهِ شَخْصٌ آخَرُ فَإِنَّهُ لَا يُوَشِّى بِهِ. أَهْوُ
تَكَافُلٌ؟ لَسْتُ مُتَأَكِّدًا. إِنَّهُ نَوْعٌ مِنَ اللَّذَّةِ الَّتِي تَكْمُنُ فِي
رُؤْيَا أَصْحَابِ النُّفُوزِ وَهُمْ يُنْهَكُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي إِجْرَاءِ
تَحْقِيقَاتٍ أَصَابَهَا الْعُقَمُ. كُلُّ التَّلَامِيذِ يُعَاقِبُونَ بِشَكْلِ
فَرْدٍ مِنْ هَذَا أَوْ مِنْ ذَاكَ حَتَّى أَنَّهُمْ لَا يَرِثُونَ لِحَالِ
الْمَذْنِبِ الَّذِي يَتِمُّ التَّعَرُّفُ عَلَيْهِ.. خِلَافَ ذَلِكَ تَمَامًا
يَتَقَاسَمُ الْجَمِيعُ أَخِيرًا نِعْمَةَ الشُّعُورِ بِأَنَّهُمْ أَطْرَافُ هَذِهِ
الْمُؤَسَّسَةِ الْقَابِضَةِ!

إِنَّهُ يَتَضَامَنُ مَعَ الْجَمِيعِ كَيْ يُبْدِيَ رَأْيَهُ فِي ذَاكَ
(الْقَبِيحِ) لِيَجْعَلُوهُ (يُدْفَعُ) عَدَدًا مِنَ الَّذِينَ (لَا ذَنْبَ لَهُمْ)
بَدَلًا مِنْ (مَذْنِبِ) (*) وَحِيدٍ. يَا لَهُ مِنْ إِخْلَاصٍ مَذْهَلٍ!

حَقِيقَةٌ أَنَّهُ كَانَ مَذْنِبًا لَمْ يَعِدْ أَحَدٌ يَطْرَحُهَا
لِلنَّقَاشِ.. كَمَا لَمْ يَعِدْ يَرَاهَا بَعِينِيَّةً وَهُمْ يُعَاقِبُونَ
الْجَمِيعَ لَا يَسْمَحُ أَصْحَابُ النُّفُوزِ لِمَنْ يُعَاقِبُونَهُ بِتَغْيِيرِ

(*) هَذَا الْقَوْمُ وَمَا سَبَقَهُ مِنْ أَقْوَامٍ مِنْ وَضَعِ الْمُؤَلِّفِ فِي النَّصِّ
الْأَصْلِيِّ. (الْمُتَرْجِمُ).

السجلات: لم نعد نشغل بال مَنْ يشاهدون التحقيق.. لكن على صعيد المبادئ.. والحالة هذه.. ففى داخل المراهق الذى يُمثله يكون الإنصاف مبدأ لا يُساومُ عليه.

- إنْ لَمْ يكتشفوا مَنْ المذنب فسينتقمون منا جميعاً.. يا لهذا القُبْح!.

مَنْ نَصِفُهُ بالحقير.. باللص.. بالكاذب.. أو أيّاً ما كان الوصف الذى سيطوله هو مَنْ يُلْقَى الوكيل ذو الصوت الرعديّ عليه.. على رعوس الأشهاد.. كل الازدراء حيثما يلحق بكل مَنْ هم مِنْ نَوْعِيَّتِهِ والذين (لا يمتلكون جرأة الإفصاح عن تصرفاتهم).. ونادراً ما يُعْنَى بهم أحد بداية.. لأنه لم يسمع هنالك إلا تأكيد مَنْ حَكَيْنَا عَلَيْهِ حكايته ألف مرة وأنه يتفق مع الوكيل فى وجهة نظره (يا له من سرور نادر ذلك الاتفاق السرى: نعم.. معك حق.. أنا هو ذلك الشرير الذى تحدثت عنه.. بل الأشرُّ.. إنْ كنتَ تدرى.. ب).

ثم بعد ذلك لأن جرأة الذهاب لتعليق جُبَّات (*) المدير الثلاث فى قمة واقية الصواعق على سبيل المثال لم يكن الوكيل ولا أى تلميذ آخر يحضر هنا هو مَنْ فعل هذا.. إنه هو تماماً.. هو بمفرده.. فى ظلام الليل.. هو فى عزلته الليلية والرائعة فيما بعد خلال ساعات معدودة صنعت الجُبَّاتُ علَمَ سفينة قراصنة أسودَ ولا أحد سيعرف أبداً مَنْ الذى شيد هذا

(*) جمع جُبَّة وهى زى خاص ببعض الفئات فى المجتمع منهم رجال الدين.. (المترجم).

السُّرَادِقُ المثير للضحك. لو أنه أُتِّهَمَ شخصٌ آخر بدلاً منه فالواقع أنه سيصمتُ أيضاً، لأنه يعرف أتباعه ويعرف جيداً (بصحبة كلوديل الذى لن يقرأ له أبداً) أنه (يستطيع كذلك أن يستحق الإنصاف).

لن يُبلِّغَ بأى شيء. ما حدث كان دافعاً لانعزاله.. لكنه كفَّ نفسه عن الخوف. لم يعد يخجل. انظروا إليه إنه المذنب فى ثوب برئ. لقد وارى هذا السرور الفريد من نوعه فى صمته: لا أحد سيعرف أبداً..

حين كان يشعر أنه ما من نصيب كان يميل إلى القَسَمِ الداخلى. لكن ما كابده قبل كل شيء هو تلك الفرحة الكئيبة من أن يكون قد أصبح لا يُدركه مَنْ زُوِّدوا بالمعرفة.. الذين يلومونه على عدم فهمه لأى شيء. الخلاصة.. أنه اكتشف كفاعته فى:

تسببه فى خوف أولئك الذين كانوا يربعونه. كان يستلذ بفعل ذلك بشدة. لا أحد يعرف ما اقترفه. إنه الحصار الخفى لكل ملكات الذكاء فى قلب الخديعة.

لو كنتُ قد تعلّقتُ بهذا الثَّأرِ المُستتر لكانتُ قد
تولّدتُ لدى فكرةً مغلوطَةً عن التلميذِ الكسولِ الذى
كُنْتُه. (من جهةٍ أخرى.. لم أكنْ منْ أخرجَ مشهدَ
الجَباتِ الثلاثِ).

التلميذُ الكسولُ المَرِحُ كانَ يُدبِرُ ليلاً سَطَواً
انتقامياً.. وكانَ (زورو) مُتخفياً للعقابِ الصَّبِيَّانِ. كمُ
كنتُ أحبُّ أنْ أتمكّنْ منْ أنْ أتمالكَ نفسى على هذه
الهيئة لأنيبال.. فقط كنتُ أيضاً - وبوجهٍ خاصٍ -
مُهيئاً لأنْ تتلوثَ سيرتى من أجلِ نظرةٍ بالغِ
مُتسامحةٍ.

أستجدى فى هدوءٍ رضا المدرسين وألصق بكل
امتحان: نعم.. معك حقٌ يا سيّدى.. نعم.. أليس..
سيدى.. أنا لستُ غيباً للغاية.. ولا أنا شريرٌ جداً..
لستُ مُخيّباً للأمالِ جداً.. ولا.. جداً. أوّه! يا للذلِّ حين
كان يُرسلنى آخر منْ جُملةٍ جافةٍ إلى إهانتى. أوّه! ثمّة
إحساسٌ دنيءٌ للنجاح حين - بعكس هذا - كان ينطقُ
بكلمتينِ رقيقتينِ دونما ترتيب.. كنتُ أختزنهما فوراً
كأنّهما كنزٌ من الحنوّ..

كَمْ كُنْتُ أَهْرُولُ مَسَاءَ الْيَوْمِ نَفْسَهُ كَيْ أَحْدَثَ
وَالِدِي عَنْهُمَا: (لَقَدْ تَحَدَّثْتُ بِطَلَاقَةٍ مَعَ السَّيِّدِ
أُونْتِيل...)

(كَأَنَّ الْمَقْصُودَ هُوَ الْحَدِيثُ بِطَلَاقَةٍ.. كَانَ الْأَمْرُ
يَقْتَضِي أَنْ يَدَّعَى أَبِي ذَلِكَ.. بِحَقٍّ...)

لَزِمَنِي طَوِيلٌ جَرَرْتُ وَرَائِي إِثْرَ هَذَا الْخِزْيِ. كَانَتْ
الضَّغِينَةُ وَالْمَحَبَّةُ تَتَجَاوِزَانِي فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ مِنْذُ أُولَى
إِخْفَاقَاتِي. كَانَ هَذَا يَعْنِي مُدَاهَنَةَ الْغُولِ الدِّرَاسِيِّ لَمْ
أَذْخِرْ وَسْعًا فِي آلَا يَلْتَهَمُ قَلْبِي. مُتَعَاوِنًا كُنْتُ عَلَى سَبِيلِ
الْمِثَالِ فِي هَدِيَّةِ عِيدِ مِيلَادِ مُدْرَسِ الصَّفِّ السَّادِسِ
الَّذِي - رَغْمَ ذَلِكَ - كَانَ يَضَعُ عَلَامَاتِ الْخَطَأِ عَلَى
نُصُوصِ إِمْلَائِي.

(أَقْلَ مِنْ ٣٨ .. يَا بِنَاكْشِيُونِي.. دَرَجَةُ الْحَرَارَةِ
تَتَخَفَضُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ!).

أَقْدَحُ زِنَادَ فِكْرِي كَيْ أَخْتَارَ مَا كَانَ يُفْرَحُ هَذَا
الدُّنْيَى حَقًّا.. أَنْظَمْتُ جَمْعَ التَّبَرُّعَاتِ مِنَ التَّلَامِيذِ..
أَضَيْفُ إِلَيْهَا بِنَفْسِي الْمَبْلَغَ الْمُكْمَلَ.. بِنَاءً عَلَى سَعْرِ
الْعَجِيبَةِ الْبَشْعَةِ الَّتِي كَانَ يَتَجَاوَزُ قِيَمَةَ الْمَبْلَغِ الَّتِي تَمَّ
جَمْعُهُ فَعَلًا.

كَانَتْ ثَمَّةُ صِنَادِيقٍ مِنْ فُولَازٍ فِي مَنَازِلِ ذَاكَ
الْعَصْرِ الْبَرْجَوَازِيَّةِ. سَعَيْتُ إِلَى فَتْحِ وَاحِدٍ كَانَ يَخْصُ
أُمِّي وَأَبِي كَيْ أُسَاهِمَ فِي هَدِيَّةِ جَلَادِي. كَانَ صَنْدُوقًا
دَاكِنَ اللَّوْنِ وَعَصِيًّا عَلَى الْفَتْحِ.. حَيْثُ تَنَامُ أَسْرَارُ
الْعَائِلَةِ. مِفْتَاحٌ.. مِدْقَةٌ بِأَرْقَامٍ.. أُخْرَى بِحُرُوفٍ. كُنْتُ
أَعْرِفُ أَيْنَ كَانَ وَالِدَايَ يَضَعَانِ الْمِفْتَاحَ لَكِنِّي كُنْتُ أَحْتَاجُ

إلى عدة ليال كي أعرّ عليه في يدي. مدقة.. مفتاح.. باب مغلق. مدقة.. مفتاح.. باب مغلق. حتى قلت لنفسي لن أتوصل لفتحه أبداً. وفجأة إذا بي أدرك أن الباب قد انفتح!

ظلمت مذهولاً من هذا. باب مفتوح على عالم البالغين السري. هي أسرار حكيمة جداً في حالة النظر إليها:

بعض الالتزامات.. أفترض. قروض روسية كانت تنام هناك تحلم بقيامتها.. هناك مسدس أخى جدى الذى كانت خزنته مليئة وزناده مصقولاً. كانت هناك أيضاً نقود لكنها لم تكن كثيرة. هناك بعض الأوراق حيث أخذت العشر الضرورى لتمويل الهدية.

السرقعة من أجل شراء محبة البالغين. بالضبط لم تكن هذه سرقة. وبالطبع لم يشتري هذا أية محبة. حين انكشف سر القضية فى غضون هذا العام قدمت إلى أمى حينئذ وعاءً فظيعاً مزخرفاً على الطريقة اليابانية وكان وقتئذ على الموضة وكلف سِعْراً باهظاً. كان لهذا الحدث ثلاث نتائج:

بكت أمى (وكان نادراً ما يحدث هذا).. مقتنعة أنها تُسدى للعالم ثاقباً صناديق (المجال الوحيد الذى يظهر فيه آخر أبنائها نُضجاً مبكراً مسلماً به).

ثم تم الزج بى فى مدرسة داخلية. كنت طوال حياتى غير قادر على الحصاد أياً ما كان الأمر.. حتى حين تصبح السرقة ثقافة على الموضة لدى شباب جيلى.

— ١١ —

إلى كل الذين يُعْزَون اليومَ طبيعة التجمعات إلى
ظاهرة واحدة للمضواحي أقول:

معكم حقٌ .. نعم .. البطالة .. نعم تجمع المنبوذين ..
نعم التجمعات القومية .. نعم .. استبداد الشعارات ..
العائلة أحادية القرى .. نعم .. تطور الاقتصاد الموازي ..
والتجارة في كل الأصناف .. نعم .. نعم .. نعم ...

لكن لنتجنبَ بَخْسَ قيمة الشيء الوحيد الذي
نستطيع أن نؤثر فيه شخصياً .. هو .. وقت الليل .. وقتٌ
من الأوقات التربوية: العزلة وضعف التلميذ الذي لا
يفهم .. ضائعاً في عالم حيث كل الآخرين يفهمون.

نحن فقط لدينا القدرة على إخراجه من هذا
السجن الذي نكوّنه أم لسنا مُدربين لأجله.

المدرسون الذين أنقذوني - والذين جعلوا مني
مُدرّساً - لم يكونوا مدربين لأجل هذا . لم يهتموا
بأساسيات عجزى الدراسة . لم يُضَيِّعوا وقتاً في
البحث فيها عن الأسباب ولا أكثر منه في
توبيخى .

كانوا بالغين يواجهون مراهقين في خطر. كانوا
يدعون أن هناك حالة مستعجلة غا صوا. أحبطوني.
غاصوا من جديد يوماً بعد يوم ومازالوا ..مازالوا ...

انتهى بهم الحال إلى إخراجي من هناك. وآخرون
كثيرون معي. حرفياً ..أنقذونا من ورطةٍ. نحن مدينون
لهم بحياتنا.

وأنا أنبش في رُكَّام أوراقى القديمة بحثاً عن
شهادتى الدراسية ودبلومأتى إذا بىدى تقع على
خطابٍ كانت أمى قد حفظته. كان الخطاب مُورَّخاً ب:
فبراير ١٩٥٩. كنتُ قد أتممتُ عامى الرابع عشر منذ
ثلاثة أشهر. كنتُ فى الصف الرابع. كتبتُ إليها من
أول مدرسةٍ داخليةٍ بالنسبة إلى:

عزيزتى أمى...

أنا أيضاً رأيتُ درجأتى.. أنا مُنفَرٌّ.. أنا مُرهَقٌ بها
[هكذا] (*).. حين كنا نأتى لنعمل ساعتين دون توقف
خلال درس واحد كانت إحدى الساعتين تُكرَّسُ لعمل
واجب الجبر الذى كنا نعتقد [هكذا].. أنه مُحِيطٌ.
أيضاً كنتُ [هكذا] جباناً فى إعادة النظر فى
امتحانأتى.. وها هو اليوم الرابع لانكبابى على
مراجعة امتحانى فى الجيولوجيا خلال درس [هكذا]
الرياضيات.. [إلخ].

لستُ ذكياً بالقدر الكافى ولا مثابراً كى أواصل

(*) الكلمات التى بعدها كلمة [هكذا] كان الكاتب قد أخطأ فى
كتابتها إملائياً أو نحوياً حين كتب هذا الخطاب (المترجم).

دراساتى. لم أنشغل بهذا. كان تفسيرى للجرأة [هكذا]
خاطئاً كى أظل مُحْتَجِزاً [هكذا] فى ركام الأوراق..

لَمْ أفهم [هكذا] شيئاً لا فى اللغة الإنجليزية ولا
فى الجبر. أنا عديمة كفاءتى [هكذا] فى الإملاء.. ماذا
تبقى؟

مارى - تيه.. مُصَفِّة الشَّعْرِ فى قريتنا (لا كول -
سير - لوب) .. صديقتى البكر منذ بداية طفولتى كانت
قد اعترفت لى مؤخراً أن أمى أفصحت لها عن قلقها
من جهة مستقبلى لكن يُعزِّيها كما كانت تقول أنها
حصلت على وعدٍ من إخوتى باعتنائهم بى بعد موتها
هى وكذلك أبى.

دائماً فى الخطاب نفسه كنتُ أكتب:

(كان لديكم ثلاثة أبناء أذكيا
ومجتهدون.. وآخر.. تلميذ كسول.)

كنتُ أتابع دراسة تشبه دراسة إخوتى وكنتُ
أتوسل إليهم أن يوقفوا المذبحة.. أن ينتزعونى من
المدرسة وأن يرسلونى إلى [الجاليات] (عائلة من
العسكريين) (فى الريف) [هكذا]، وهناك سيكون
[هكذا] المكان الوحيد الذى سأكون [هكذا] سعيداً
فيه) (واضحاً الخط مرتين).

إجمالاً.. المنفى.. فى نهاية العالم.. هو مشروعٌ
على أسوأ افتراض للهرب إلى باردامو عند ابن لأحد
العسكريين.

بعد ذلك بعشر سنوات. فى الثلاثين من سبتمبر ١٩٦٩.. استلمت خطاباً جاعنى من أبى مُرسلاً إلى المدرسة التى كنت أمارس فيها مهنة التدريس. كانت هذه هى وظيفتى الأولى وكان هذا هو خطابه الأول إلى الابن الذى صار.

كان قد خرج من المستشفى.. حدثنى عن عنوبات النقامه.. وعن نزهاته الوثيدة برفقة كلبنا.. أخبرنى عن أحوال العائلة.. صرّح لى عن الزواج المُحتمل لابنة عمى فى ستوكهولم.

كان يُلَمِّحُ إلى مشروع رواية تُحدثنا معاً عنها (لم أكتبها أبداً). كان يُظهِر فضولاً حياً بخصوص ما أتبادلُه أنا وتلاميذى من أحاديث ونحن حول المائدة. كان ينتظر - عبر البريد - وصول (مقصورة الحاكم) ل: انجلو رينالدى. كان يتذمر من اعتصام مُستخدمى البريد ويعظم من شأن (أحبولة. قلب) ل: سالىنجر.. و(حديقة اللذات) ل: جوزيه كابانيس. كان يعذر أمى فى عدم كتابتها إلى [أكثر تعباً منى كيف يُعالجنى!].

كان يخبرنى أنه أعارَ العَجَلَةَ البديلة لحُصانينا البخاريين إلى صديقى فأنشون (لقد رضى برنار بتغييرها له كل الرضا).

كان يُقبِّلنى ويُطمئِننى عن حالته الصحية.

ليس أكثر من تهديده لى بمستقبل المشؤم طوال دراستى. لم يُشِرْ ولو من بعيد إلى ماضى كتلميذ كسول. كانت نَبْرته فى أغلب الموضوعات كعادته دائماً

تهكميةً بحياء. لم يُبدِ أى اعتبار لاستحقاقى حالتى الجديدة كمدرس. لم يندهش لم يُهنئ. ولم يقلق بشأن تلاميذى.

باختصار.. ما زال أبى كما هو ساخراً وحكيماً راغباً فى الثروة معى. على مسافةٍ جديرةٍ بالاحترام. عن الحياة التى كانت ستدوم.

مظروفُ الخطاب الآن أمام عينيّ. اليومَ فقط أذهلنى أمرٌ ما. لم يكن يكتفى بكتابة اسمى.. اسم المدرسة.. اسم الشارع.. اسم المدينة...

بل أضاف إليه هذا التويه:مدرس.

دانيال بناكشيونى

مدرس فى مدرسة ثانوية...

مدرس...

من كتابته الصائبة جداً.

كانت تلزمنى حياة كاملة كى أسمع صياح البهجة هذا - وتهد الانفراج.

٢

يُصْبِحُ

عمرى اثنى عشر عاماً ونصفاً

ولم أصنع شيئاً

فيما أكتبُ هذه الأسطر ندخلُ في موسم طلباتِ
النجدة. منذ شهر مارس يتواصل رنينُ التليفون في
المنزل أكثر من المعتاد غالباً: أصدقاء في حالة
مضطربة يبحثون عن مدرسة جديدة لطفل
راسب.. أبناء عمٍّ منزعجون بحثاً عن مدرسة بعد
مدارس عديدة عقب طرده لعدة مرات .. جيران
يتنازعون على مدى فعالية إعادة التلاميذ لصفوفهم
الدراسية.. مجهولون يعرفونني حصلوا على رقم
تليفوني من أونتل...

كانت تلك هي مكالمات المساء عادةً. وقتَ نهاية
تناول العشاء.. ساعة الشدة مكالمات أمهات في أكثر
الأحيان. قلَّ ما يجيء الاتصال من الأب.. الأب يأتي
فيما بعد.. حينما يأتي.. لكن في البدء مكالمات
التليفون الأولى للأم .. إنها الأم دائماً. تقريباً من أجل
الابن. أما الابنة فتبدو أكثر تعقلاً هي الأم وحدها في
المنزل.. وجبة أنجزت.. آنية لم يتم غسلها شهادة
الولد الدراسية مفروشة أمامها .. الولد مُحْتَجَز في
طوقين في حجرته أمام الفيديو جيم.. أو الآن في

الخارج فى نزهة مع مجموعة أصدقائه .. رغم منع
خجول .. هى بمفردها .. يدها فوق قرص التليفون ..
تتردد .. تشرح للمرة الـ... حالة الابن .. مخصصة إحدى
المرات فضلاً عن ذلك لتاريخ رسوباته .. يا لهذا
التعب .. يا إلهى ... احتمال الإرهاق قادم: يسعون هذا
العام أيضاً لإبرام اتفاق مع المدارس التى سيريدون
دخوله إياها .. يقيمون يوم عطلة فى المكتب .. فى
المحل .. زيارات لرؤساء المؤسسات التعليمية .. حواجز
السكترارية .. ملفات يجب ملؤها .. انتظار الرد ..
مباحثات .. مع الابن .. دون الابن .. اختبارات .. انتظار
نتائج .. توثيق .. تردد .. أهذه المدرسة أفضل من
الأخرى؟

(لأنه فى شأن المدرسة .. سؤال الجودة يُوجّه فى
قمة السُّلم كما فى قاع اللُّجج .. أفضل مدرسة لأفضل
تلاميذ والأفضل للفرقى .. كل شىء موجود .)

ثمة مَنْ يتصل أخيراً .. ثمة مَنْ يعتذر عن تسببه
فى إزعاجنا .. نعرف إلى أى حد ينبغى أن نتوسل إليك
لكن ها نحن لدينا ابن .. لم نعرف حقيقةً من خلاله
كيف ...

أيها المدرسون .. يا إخوتى .. أُلح عليكم .. فكروا
فى تلاميذكم عندما تكتبون فى شهاداتهم الدراسية
فى صالة المدرسين وفى صمت أن (التيرم الثالث
سيكون مُحددًا)

رنين لحظى لتليفونى:

- عن التيرم الثالث..تحدث!.

قراره محدد سلفاً منذ البداية..نعم.

- التيرم الثالث.. التيرم الثالث.. هذا لا يحرك

شعورى على الإطلاق.. هذا الصبى تهديد للتيرم الثالث.. لم يكن لديه أبداً تيرم واحد مناسب!

- التيرم الثالث.. كيف تريدون منه أن يتسلق

عقبة مشابهة فى هذا الوقت غير الكافى للغاية؟

يدركون جيداً أن تيرمهم الثالث هذا

غروبيراً..(*) مع كل هذه الإجازات!.

- إن يرفضوا هذا المسلك.. أستأنف أنا هذه

المرة!.

على كل حال.. ينبغى عليهم أن يُعيدوا الكرة

اليوم مبكراً جداً كي يُحددوا مدرسة.. يستمر هذا

حتى نهاية شهر يونيه.. عندما يثبت أن التيرم الثالث

كان حقيقةً مُحددأ وأن الابن لن يُقبل فى فصل

الفائقين وأن الوقت متأخر جداً بالفعل للبحث عن

مدرسة جديدة.. احتلها الجميع من قبله. لكن ماذا

تريدون؟ أردنا أن نصدق حتى النهاية.. قلنا لأنفسنا

إنه ربما يفهم الابن هذه المرة.. ربما تتحسن حالته فى

التيرم الثالث.. جداً.. جداً.. أطمئنكم.. قد يبذل جهداً

أكثر قليلاً ممَّن يتغيَّبون...

(*) جبن أصفر به ثقب صغيرة. (المترجم).

== ٢ ==

هناك الأم الضائعة التى أنهكها انحراف ابنها ..
متذكرة النتائج المفترضة لنكبات الزوجية: إنه
انفصالنا الذى.... منذ وفاة أبيه.. لم يعد تماماً...

هناك الأم التى أهانتها نصائح صديقات يعمل
أطفالهن جيداً أو أسوأ متجنبات العلة بدراية مُهينة
تقريباً.

هناك الأم الحانقة التى تقتنع أن ابنها منذ الأزل وهو
ضحية وديعة لتحالف تعليمى.. اختلطت كل الأنظمة ..

بدأ هذا مبكراً جداً.. فى الحضانة كانت
معلمته... فلم ينتظم فى دراسته على الإطلاق.. ثمّة
رجل هذه المرة.. كان الأسوأ.. وتخيل أن مدرسه الذى
يدرس له اللغة الفرنسية فى الصف الرابع جعله.....

هناك من لا تُشخص القضية لكنها تؤنب
المجتمع كم هو متفتت.. والمؤسسات التربوية وكم هى
مظلمة.. والمنهج الذى يطبقه.. إنها تؤنب الواقع
إجمالاً.. وكم هو لا يتطابق مع حلمها.

هناك الأم الغاضبة جداً من ابنها هذا الولد
الذى لديه كل شيء لا يفعل أى شيء.. هذا الولد الذى

لم يفعل شيئاً يريد كل شيء.. هذا الولد الذى فعلنا من أجله كل شيء لم...أبدأ لمرة واحدة تسمعنى!).

هناك الأم التى لم تقابل مدرساً واحداً طوال العام وتعرض أقفيتهم للجميع.. هناك الأم التى تتصل بك بكل بساطة كى تريحها هذا العام أيضاً من ابن لم تعد تريد أن تسمع إليه حتى العام المقبل.. فى التاريخ نفسه فى الساعة نفسها فى رنة التليفون نفسها والتى تقول له: (سنرى العام المقبل.. يجب أن نعتزل له من الآن فصاعداً على مدرسة تحديداً).

هناك الأم التى تخشى رد فعل الأب: (هذه المرة لن يتحملة زوجى) (لقد أخفينا أغلب شهادات الدرجات عن الزوج).

هناك الأم التى لا تفهم أن ابنها مختلف جداً عن ابنها الآخر وتسعى لئلا يقل حبه لها وتتفنن فى أن تظل الأم نفسها لابنيها الاثنين.

هناك الأم بخلاف ذلك التى لا تستطيع أن تمتنع عن اختيار هذا (ومع ذلك أركز تماماً معها). بضرر إخوة وأخوات.. بكل تأكيد والتى استخدمت بلا جدوى كل وسائل العوامل المساعدة: رياضة.. علم نفس.. تصويب نطق.. سُفُروولوجيا (١).. علاج بالفيتامينات.. استرخاء.. طب مثلى (٢).. مداواة أسرية أو فردية...

(١) بحث الوسائل التى تؤول إلى إزالة الآلام الجسدية والنفسية أو التغلب عليها عن طريق تهدئة الأعصاب وإنقاص التوتر السائد (المترجم).

(٢) مداواة الداء بالداء لكن بجرعات ضئيلة (المترجم).

هناك الأم الضليعة فى علم النفس التى تعطى
تفسيراً لكل شىء مندهشة من أننا لا نجد حلاً لأى
شىء.. هى الوحيدة فى العالم التى تفهم ابنها..
ابنتها.. أصدقاءهما.. والتى شباب روحها دائم (أليس
هذا ما تجب معرفته لتظل شاباً؟)

يندهش من أن العالم قد يصبح أكثر هِرمًا..
حتى أنه ليس جديراً بفهم الشباب.

هناك الأم التى تبكى.. تتصل بك وتبكى فى
صمت معتذرة لك عن بكائها.. خليط من الحزن.. من
القلق.. ومن الخزي...

الحق يقال أنهن كلهن لديهن القليل من الخزي
وكلهن قلقات بشأن مستقبل أبنائهن: (لكن ما الذى
سوف يصبح؟) .

أغلبهن يتصورن المستقبل انعكاساً للحاضر على
لوحة تلازم المستقبل. المستقبل كجدار تعرض عليه
بإفراط الصور التى يرفع من شأنها لحاضر بلا
أمل.. وهو ذاك خوف الأمهات الأكبر!

يتجاهلن أنهن يتوجهن بحديثهن إلى فتى صغير
خرق صندوق ذريته ولو أن تصورهم للمستقبل كان
مبنياً على أساس فلن أكون مُشغلاً بالإصغاء إليهن
عبر التليفون لكن كنت سأكون فى السجن.. أعدُّ ما
فى رأسى من حشرات القمل طبقاً للفيلم الذى وجب
على أمى المسكينة أن تعرضه على شاشة المستقبل
حين علمت أن ابنها ذا الأحد عشر عاماً سحَق
اقتصاديات العائلة.

حينئذٍ.. أجرب حكاية عجيبة:

- أتعرفون الوسيلة الوحيدة التى تجعل الله

الطيب يضحك؟

تَرَدَّدُ فى نهايةِ حَبْلٍ.

- قُصَّ عليه مشروعاتك.

فى نهايات أخرى.. ليست من جنون.. لا شيء

يحدث كالقَدَرِ.. الشيء الوحيد الذى نتعلمه أن

المستقبل يؤول إلى ماضٍ. بكل تأكيد لا تكفى لصقة

من شمع على جرح لن يلتئم بسهولة جداً.. لكنى أفعل

بمساعدة التليفون.

— ٤ —

لأكون منصفاً.. كذلك ثمة من حدثنى أحياناً عن التلاميذ جيدي المستوى: الأم المنهجية على سبيل المثال وهي تبحث عن أفضل فصل إعدادى كما كانت منذ ميلاد طفلها تبحث عن أفضل حضانة.. والتي تفترض فى بمحبة مهارة الصيد فى المرتفعات. أو الأم القادمة من عالم آخر.. عالم الهجرة الأولى.. حارسة بيتى التى لاحظت بعض المملكات الغريبة لدى ابنتها.. وهى مُحَقَّةٌ. على الصغيرة أن تواظب على الالتحاق بدورة طويلة آنذاك دونما شك سيُتاح لحائزة الأستاذية القادمة اختيار المادة الدراسية... (فعلياً. تتجز اليوم دراساتها فى القانون).

من جهة أخرى هناك [ل. م] الخبير الزراعى فى لو فيركور.. استدعته مُعلمة المرحلة الابتدائية فى القرية ليرى نتائج ابنه المذهلة...

تسألنى عما أحب أن يفعله فيما بعد يرفع كأس شرابه فى صحتى:

. أنتم مُمتعون.. أنتم أيها المدرسون.. مع أسئلتكم

هذه...

— بماذا رددت عليه آنذاك؟

- تُرى ماذا يكون ردّى على أبى؟

الحد الأقصى! رئيس جمهورية!

وهناك النقيض.. أب آخر تقنّى سطحى يابى إلا أن يختصر دراسة ابنه ليُلحقه بالعمل الذى سيربح منه الصبى فى الحال. (راتب فى العائلة.. لمن يؤلم أحداً!).

نعم لكن ها هو الصبى يريد أن يكون مدرساً.. تحديدًا مدرس ابتدائى كما قيل حديثاً.. وأرى أنها فكرة جيدة.. أنا أحب تماماً.. أنا.. أن ينخرط فى مهنة التعليم.. هذا الولد النشيط جداً والذى لديه رغبة عارمة فى هذا. فلنتفاوض .. لنتفاوض.. هذا الرفيق القادم يجعل نجاح التلاميذ القادمين فى خطر...

حسنًا هيا.. إذ بى أفكر فى المستقبل أيضاً. هيا.. أنا أيضاً أسترّد ثقتى فى مدرسة الجمهورية التى ثقّفت أبى نقى السريرة. مدرسة الجمهورية على كل حال وفى تسعين عاماً من زمنها يشبه هذا الولد كثيراً ما كان ينبغي أن يكون عليه أبى.. كورس دوريلاك الصغير حوالى عام ١٩١٢ حين راح أخوه الأكبر يعمل كى يقدم لأخيه الصغير الوسائل والوقت اللازمين لعبور أبواب مدرسة البوليتكنيك. زد على هذا أننى دائماً ما كنتُ أشجّع أصدقائى وتلاميذى الأكثر حيوية كى يصبحوا مُدرسين ودائماً ما كنتُ أعتقد أن المدرسة هى فى البداية مُدرسوها الذين يعملون بها.

مَنْ إذاً أنقذنى من المدرسة.. إما ثلاثة أو أربعة

مدرسين؟

هناك ذاك الأب المنزعج الذى يؤكد لى بشكل بات:

- ابنى يفتقد إلى النضج.

شاب يجلس فى صرامة داخل خطوط بذلته المتعامدة على بعضها.. منتصباً أعلى كرسيه.. يُصرِّح منذ بداية اللعبة أن ابنه يفتقد إلى النضج. إنها بيّنة. يقتضى هذا حلاً.. علامة ختامية.

بعد كل هذا أسأل عن عمر الابن.

إجابة فورية:

أحد عشر عاماً الآن.

لم أكن يومذاك فى حالتى ربما لأننى لم أنم كما ينبغى. أضع جبهتى بين يديّ.. أُصرِّح فى النهاية فى راسبوتينية(*) معصومة: الحلُّ عندى. يرفع حاجبيه. ينظرُ برضاً. حسناً.. نحن هنا وسط مُحترفين.

(*) راسبوتينية.. نسبة إلى «راسبوتين»، وهو جريجورى بافيموفيتش (١٨٦٩ م - ١٩١٦ م) راهب روسى وساحر شهير، ولد فى سيبيريا، استحوذ على أسرة القيصر نيقولا الثانى، وخضعت الإمبراطورة ألكسندر فيودوروفنا لقوى سحره وشعوذته، وازداد نفوذه السياسى والدينى فى القصر حتى تكالب عليه المعارضون وقتلوه.

عندئذ.. ما الحل؟
أعطيه له:
- انتظر

هو ليس سعيداً. لن تبتعد المحادثة عن هذا كثيراً.

- لن يستطيع هذا الصبي بعد كل هذا أن يقضى وقته في اللعب!

في اليوم التالي.. أقابل الأب نفسه في الشارع.
البذلة كما كانت.. الصلابة كما هي.. الحقيبة لم تتغير. لكنه ينتقل راكباً دراجة أطفال. أقسم إن هذا حقيقي.

- ٦ -

لا ثمة مستقبل.

أطفال لن يصبحوا...

أطفال مُحْبِطُونَ. تلميذ في المرحلة الابتدائية..
في الإعدادية.. في الثانوية.. كنتُ أظنه صليبا كما
الحديد.. أنا أيضاً في هذا الوجود بلا مستقبل.

إنه أول شيء يظنه تلميذ سيئ.

. بما يشبه هذه الدرجات ما الذي تستطيع أن

تأمل فيه؟

. أتتصور أنك ستنتقل إلى الصف السادس؟ (إلى

الخامس.. الرابع.. الثالث.. الثاني.. الأول...)

تُرى كم فرصة مُهيأة لك في البكالوريا..

أُسعدني.. عُدّ فرصك بنفسك.. كم على مائة؟

أو مديرة المدرسة الثانوية هذه في صيحة

فرحتها الحقيقية: أنتَ بناكشيوني.. التكميلية(*)؟ لن

تحصل عليها أبداً! أسمعني؟ أبداً!.

كانت ترتج من صيحتها. على كل حال لن أصبح

مثلك أنتِ أيتها الكهلة المجنونة!.

(*) شهادة دراسية متوسطة . (الترجم).

لن أصبح مُدرّساً أبداً.. عنكيوتاً مطلباً في
شَرَكِ الخاص بك.. حارساً فظاً يشدد الرقابة على
مكتبك حتى آخر أيامك. أبداً!.

نحن التلاميذ سننتقل أما أنتِ فستبقى!
نحن أحرار أما أنتِ فستحتلينه إلى الأبد. لن
نذهب نحن - السيئين - إلى أى مكان لكن على الأقل
سنذهب من هنا!

لن تكون الدكّة سور حياتنا الردىء!.

احتقار من أجل احتقار.. تشبّثُ بهذا التشجيع
الشرير: نحن ننتقل أما المدرسون فيبقون. إنها محادثة
متكررة لدى تلاميذ قاع الفصل. يقات التلاميذ
الكسالى على الكلمات. كنتُ أجهل آنذاك أن الأمر بلغ
بالمدرسين أن يختبروا إحساس الخلود هذا: ثرثرة لا
تنتهى.. الحصص نفسها أمام فصول تتبدل. انهيار
تحت عبء الصور اليومية (لا يمكن أن نتخيل
سيزيفاً*) سعيداً بصحبة حزمة من صور!).

لم أكن أعرف أن الرتابة هي السبب الأول الذى
يتذرع به المدرسون حين يقرّرون أن يتركوا مهنتهم. لم
أكن أستطيع أن أتخيل أن بعضهم يعانى حقيقةً من
البقاء هناك جالساً وقت أن يمر التلاميذ...

(*) سيزيف: أحد أكثر الشخصيات مكرّاً فى الميثولوجيا الإغريقية،
حيث استطاع أن يخدع إله الموت ثانتوس وتكبيله، مما أغضب
كبير الآلهة زيوس فعاقبه بأن يحمل صخرة من أسفل الجبل إلى
أعلاه، فإذا وصلت القمة تدحرجت إلى الوادى، فيعود إلى رفعها
إلى القمة، ويظل هكذا حتى الأبد، فأصبح رمزاً للعذاب الأبدى.

كنتُ أجهل أن المدرسين ينشغلون كذلك
بالمستقبل: فأكًا ركامى.. مُنجزًا بحثى.. مُنتقلا إلى
الكلية.. منطلقًا تجاه قمم الفصول الإعدادية.. مؤثرًا
البحث.. مهرولا إلى الخارج.. متفرغًا للفسحة..
مُغيرًا الميدان. تاركًا أخيرًا هؤلاء البثراء(*) الحقودين
ضعاف الشخصية الذين ينتجون أطنانًا من الأوراق
يسقطون. كنتُ أجهل أن المدرسين حين لا يفكرون فى
مستقبلهم فلأنهم يحلمون بمستقبل أبنائهم..
بدراساتهم العليا. لم أكن أعرف أن رأس المدرسين
مُشبع بالمستقبل. كنتُ لا أعتقد أنهم هناك ليس إلا
لمنعى من مستقبلى ممنوع المستقبل.

من فرط ما سمعتُ هاتين الكلمتين تتكرران
كوئتُ تصورًا دقيقًا عن هذه الحياة التى لا مستقبل
لها. لم يكن هذا سوى زمن توقف عن المرور. لم يكن
سوى مستقبل لم يوجد أصلا. كلا.. ما أشبه الليلة
بالبارحة. ليس تمامًا.. بكل تأكيد.. ليس كأن الوقت
لم يكن يمر مسرعًا.. لكن كأن السنين كانت تتكدس
دون أن يتغير شىء ما بداخلى.. كأنَّ القادم من وقتى
أنذر بقسوة أن يكون شبيهاً بحاضرى. والحالة هذه..
مما تكون حاضرى؟

من إحساس المهانة الذى أشبعه مجموع لحظاتي
التى مرّت. كنتُ عاجزًا دراسيًا.. لم أكن أبداً شيئاً
سواه. بكل تأكيد مرور الزمن.. ازدياده بكل تأكيد..
أحداثه بكل تأكيد.. بكل تأكيد الحياة.. لكنى فى

(*) البثر من أصيب ببثور (المترجم).

عبورى لهذه الحياة لا أتوصل إلى أية نتيجة قط. كان هذا أكثر من مسألة يقين.. كان هذا أنا. بهذا.. يقتنع بعض الأطفال بسرعة وإن لم يجدوا مَنْ يُزيل ضلالهم هذا فكما لا نستطيع أن نعيش دون شهوة يُطورون - إن لم يتوفر الأفضل - شهوتهم فى الرسوب.

المستقبل.. هذا التهديد الغريب...

سهرة شتوية.. تهبط ناتالى سلّم المدرسة وهى
تنتحب.. حزن حريص على أن يسمعه أحد من
يستخدم الأسمنت كخزانة رنين.. لم تزل طفلة.. بالكاد
يَزِنُ جسدها وزَنَ رضيع قديم على درجات السلّم
الطنانة.. الساعة الخامسة والنصف مساءً.. انصرف
كلُ التلاميذ تقريباً.. أنا أحد آخر المدرسين الذين
يمرون من هناك.. طنطنة الخطوات على الدرجات..
فرقة نحيب..

هوووووا!

حزَنٌ مدرّسى يفكر المدرس.. تباين.. تباين.. حزن
متفاوت على الأرجح..!

وعلى السلم تظهر ناتالى.. وبعد.. يا ناتالى..
وبعد.. وبعد.. ما هذا الحزن؟

أعرِفُ هذه التلميذة.. كانت إحدى تلميذاتى العام
الماضى.. فى الصف السادس.. طفلة حائرة.. تحتاج
إلى طمأننتها غالباً.. ما الذى يحدث.. يا ناتالى؟

صمودٌ مبدأ: لا شيء يا سيدى.. لا شيء.. كل هذه
الضجة من أجل لا شيء.. يا كبيرتى..!

يزداد النحيب.. وأخيراً تُعْرَضُ ناتالي تعاستها
بين شهقات النحيب: سيد... سيد... سيدى.. أنا لم...
أتوصل... لم أتوصل إلى فهم... لم أتوصل إلى فهم...
- فهم ماذا؟ ما الذى لم تتوصلى إلى فهمه؟
- الجم... الجم...

فجأة يقفز الغطاء ينبع هذا من صدمة:
- ال... جملة - تابعة - رابطة - ل - تنازل - و -
تضاد (*) ل.

صمت.

لا مرج.

وخصوصاً لا ضحك.

- الجملة التابعة الرابطة للتنازل والتضاد؟ أهى
التي وضعتك فى حالتك هذه؟
انفراج.

بأقصى سرعة وبوقار راح المدرس يفكر فى
الجملة محل السؤال كيف يشرح لهذه التلميذة أنه
ليس ثمة ما يستوجب المبالغة فى أهمية جملة كهذه.
إنها تستخدمها دون أن تعرف.. هذه الجملة القبيحة
(واحدة من أثيراتى من جهة أخرى.. إن كان الأمر
كاستطاعتنا تفضيل رابطة أخرى...). الجملة التى
تُيسر كل جدال شرط أولى للدقة.. فى الإخلاص كما
فى سوء النية. علينا أن نعرفها جيداً.. لكن ما من
(*) المقصود قواعدياً هو الجملة التابعة والمرتبطة بما قبلها.
(المترجم).

تسامح بدون تنازل يا صغيرتى. ثمة كل شيء. ليس سوى أن نذكر العطف الذى أدخل هذه التوابع: ولو أن.. وإن.. مع أن..

تشعرين جيداً أننا نقصد الدقة بعد كلمات مشابهة.. أننا نحسب حساب الماعز والكرنب.. أن هذه الجملة تصنع منك بنتاً رزينة ولائقة.. مهيئة لأن تُصغى ولئلا تجيب مهما يكن على امرأة براهين.. فيلسوفة ربما. هذا ما قد تصنعه منك رابطة التنازل والتضاد!.

هناك.. المدرس يُشرع فى العمل كيف يُسرّى عن صبية بدرّسٍ فى القواعد؟
هيا نرى..

لديك خمس دقائق يا ناتالى.. تعالى كى أشرح لك هنا. الفصل خاوٍ على عرشه.. اجلسى.. اصغى إلى بانتباه. ما أبسط هذا!.

تجلس.. تُصغى إلى.. ما أبسط هذا هناك؟
فهمت؟ هاتى مثلاً. كى نتأكد مثال محدد فهمت حسناً. أتحسن؟ وبعد!

على الإطلاق.. لم تتحسن.. نوبة دموع جديدة. نحيبٌ يتواصل هكذا. فجأة تقول هذه الجملة التى لم أنسها أبداً:

. أنت لم تفهم يا سيدى.. لقد بلغت اثنى عشر عاماً ولم أصنع شيئاً.

— ...

عائداً إلى ممسكنى رحتُ أجترُّ هذه الجملة. ما
الذى أرادت أن تقوله هذه الصبية؟

(لم تصنع...).. مهما حدث لا شيء يستدعى
الألم. يا ناتالى الوديلة.

على أن أنتظر مساء اليوم التالى. قمتُ
باستخبارات كى أعرف أن والد ناتالى قد رُفِتَ مؤخراً
بعد عشر سنين من خدمته الجيدة والأمانة بصفته
موظفاً إدارياً هو واحد من أوائل الموظفين الإداريين
المفصولين. نحن فى منتصف الثمانينيات.. وحتى هذا
الوقت كانت البطالة ثقافة عمالية.. إن جاز لنا أن
نقول هذا. وهذا الرجل.. الشاب.. الذى لم يشك فى
دوره فى المجتمع. موظف إدارى نموذجى وأب نشيط
انهار.. (رأيته عدة مرات العام الماضى يشغله أمر ابنته
الخبولة جداً. والمنطوية على نفسها). وضع ميزانية
حاسمة. على المائدة الأسرية لم يكف عن تكرار: (أبلغُ
خمسة وثلاثين عاماً من العمر ولم أصنع شيئاً).

كان والدُ ناتالى قد افْتَحَ عَصْرًا أُعْتَبِرَ الْمُسْتَقْبَلُ
فيه بلا مستقبل. كان التلاميذ طوال عشر سنوات
يسمعونه يُرَدِّد كل يوم وبكل النبرات:

انتهى الغنى يا أطفالى! انتهى الحب السهل!
بطالة.

وايدزُ لكل الناس. هذا ما ينتظركم نعم هذا ما
كنا نُلْقَنه لهم.. آباء ومُعلمين.. فى غضون السنوات
التي توالى كي (تُبَرَّر) أكثر لهم عرضُ تعليمى كسماء
مُغلقة. هذا ما جعل ناتالى الصغيرة تبكى. كانت قد
عانت من الحزن من قبل.. كانت تبكى مستقبلاًها (١)
كشابٍ ميت. كانت تشعر جيداً أنها قادرة على قتله كل
يوم.. بصعوباته القواعدية. صحيح.. فضلاً عن ذلك
أنَّ مُدرستها قد اعتقد أنه أثبت لها أن ثمة (ماء غسيل
فى جمعتها) (٢). ماء غسيل يا ناتالى؟

دعيني أصفى... هزّزْتُ رأسها الصغيرة كأنى
طبيب لطيف. لا.. كلا.. لا يوجد ماءً فيها ولا غسيل.

(١) المقصود هنا هو قاعدة زمن المستقبل. (المترجم).

(٢) كناية عن عدم الذكاء. (المترجم).

ورغم ذلك ثمة ابتسامة خجلى. انتظري قليلاً... وربتُ
على رأسها.. انثنتُ سبابة.. كأننا نطرقُ باباً.. كلا..
أطمئنك. إنه عقل جميل الذى أسمعُه هنا يا ناتالى..
بل متميز. صوت ظريف جداً. تحديداً.. الصوت الذى
تُصدره الرعوس الملائى بالأفكار لضحكة صغيرة..
أخيراً.

يا لها من كآبة نحشرها فى أرواحهم طوال كل
هذه السنوات!.

أُفضِّلُ ضحكَ مارسيل أيمنه. ضحك مارسيل
السَّار حين يُعظَّمُ فِطْنَةُ الابن الذى اشتَمَ رِيح البطالة
قبل الجميع:

- أنت.. يا إيميل.. بجفاءٍ كنتَ أكثرَ دهاءً من
أخيك. علىَّ أنْ أقول إنك الأكبر وإنك الأكثر درايةً
بالحياة. على كل حال.. أنا لستُ قلقاً من جانبك. لقد
عرفتَ كيف تُصدُّ الإغراءات بحيث لم تُصنع منها أبداً
مِسْماراً يُعدُّكَ للحياة التى تنتظرك. أما الأشد قسوةً
بالنسبة إلى العاقل عن العمل.. أترى.. أنه لم يتعود
منذ طفولته على حياة كهذى. هذا شىء أقوى منه..
فى يده أَكْلانٌ مِنَ العمل. معك أنا مطمئن. ثمة شعرةٌ
فى يدك ليس لها سوى أنْ تَتَجَعَّدَ ومع ذلك.. احتجَّ
إيميل.. تقريباً أعرف كيف أقرأ بسهولة.

. ثم ما زال هناك دليل على دهائك دون أنْ
تتكسر ودون أنْ تعتاد على عادات العمل السيئة هانتَ
قادر على أن تقوم بجولة حول فرنسا من خلال

جريدتك التى تعمل بها .. لتكونَ كل تقارير المباريات
الرياضية الكبرى التى تكتبها لتسليه العاطلين عن
العمل. آه!.

ستصبحُ رجالاً سعيداً.

انقضى ما يزيد على عشرين عاماً . اليوم ..
أصبحت البطالة واقعاً فى كل الثقافات . لم يعد
المستقبل المهنى يبتسم لطبقة الأغنياء فى مناطقنا .
وقلما يتلأأ الحب .. وعلى ناتالى أن تكون شابة يبلغ
عمرها سبعة وثلاثين عاماً و(نصف) . والأم .. ستعرف .
ابنة ذات اثنى عشر عاماً .. ربما .

ناتالى .. أهى عاطلة عن العمل ؟
أم رضيت بدورها المجتمعى ؟
أهى ضائعة بفعل العُزلة ؟
أم هى سعيدة بالحب ؟
امراة متزنة . مُعلّمة فى الالتزام والتضاد ؟
تتدفق بارتباك على مائدة الأسرة .. أم بشجاعة
تحلم بمعنويات ابنتها حين تعبرُ الصغيرة باب فصلها ؟

(تلاميذنا سيئو المستوى) [تلاميذٌ يشيع عنهم أنهم لا يصبحون] .. لا يأتون إلى المدرسة بمفردهم. إنها بَصَلَّةٌ تدخل الفصل: طبقةٌ من الحزن .. الخوف .. القلق .. الضغينة .. الغضب .. الرغبات الظمأى .. العزوف الحائق .. المتراكم في قاع ماضٍ مُخزٍ. حاضِرٍ مُهدِّد .. مستقبلٍ مدموم.

انظروا .. ها هم يصلون .. جسدهم في صيرورة وعائلاتهم في حقائب ظهورهم. لم تستطع الحصص حقيقةً أن تستهل العبء الموضوع على الأرض سوى مرةٍ واحدةٍ والبصلة قد قُشِّرَتْ. صعبٌ أن يُفسَّر هذا .. لكن نظرةٍ وحيدة تكفى غالباً .. لفظة متسامحة .. كلمة بالغ مُستأمن .. نَيْرٌ راسخ .. كى يذيب هذه الأحزان .. مُقللاً هذه الأذهان .. يُقيمها بصرامةٍ في مُضارع استدلالى.

بالطبع .. سيصبح الجميل عابراً ستُكافأ البصلة لحظة الانصراف .. وبلا شك يجب أن يستأنف غداً. لكن هو كذلك .. يُعْلَمُ يستأنف حتى موت مدرسنا الضرورى. لو أخفقنا فى إقامة تلاميذنا فى مضارع

حصتنا الاستدلالي لن تتحمل معرفتنا وطعم
ممارستها مسئولية هؤلاء الفتيان وهؤلاء الفتيات..
بالحس النباتي للفعل.. فحياتهم ستتأرجح فوق
مستنقع نُقصان شاسع. بكل تأكيد لسنا الوحيدين في
حفرة هذه السرايب ولا في عدم معرفة ردمها.. لكن
هؤلاء النساء وهؤلاء الرجال أمضوا عاماً أو ما يزيد
من فترة شبابهم هناك جالسين في مواجهتنا. لا
بأس.. عام من الدراسة البشعة: إنها أبدية داخل
قُقم.

- ١١ -

هل لنا أن نختلق وقتاً خاصاً للتدريب. المضارع
التجسدي.. على سبيل المثال. أنا هنا داخل هذا
الفصل.. وأفهم.. أخيراً.

هنا يحدث هذا! عقلي يتوزع داخل جسدي:
يتجسد. حين لا يكون الحال هكذا.. حين لا أفهم
شيئاً في الفصل.. أتخذ مكانى.. أقع على التراب
وتبعثرنى أوهن ريح.

فقط.. من أجل أن يكون للمعرفة فرصة التجسد
في حاضر الحصة.. يجب الكف عن التلويح بالماضى
كأنه خزي وبالمستقبل كأنه عقاب.

بالمناسبة .. ماذا يصبحون .. أولئك الذين أصبحوا ؟
مات [ف.] بعد إحالته على المعاش بعدة
أشهر. [ج.] قذف به أرقه من النافذة. أُصيب [ج.]
بانهيار عصبي. كما آخر خرج منه بالكاد. يؤرخ أطباء
[ج.ف.] بداية إصابته بالزهايمر بالسنة الأولى
لتقاعده السابق لأوانه كذلك هذا ما حدث بالنسبة
إلى [ب.ب.] تبكى المسكينة [ل.] بكل دموع جسدها ؛
لأنها فصلت من المؤسسة الصحفية رغم فاعليتها .
ومازلت أفكر في إسكافي [ب.] الذي مات حين لم
يشهد انتعاشاً لتجارة الأحذية . (إذا .. حياتي لا تُساوى
شيئاً؟) .. ولم يتوقف عن تكرار هذا . لم يكن ثمة من
يريد أن يشتري مُبرر وجوده . (كل هذا من أجل لا
شيء؟) .. ويسبب هذا مات كمدأ . هذا المُحنكُ تقاعدَ
خلال أشهر .. يخشى كثيراً أن يواجهه أحد . يبحث عن
عمل آخر :

مستشار دولي لمجموعة صناعية ؟ يُستشار في
هذه وتلك ؟ أما من جهة ذاك فكان رئيس وزراء .
استولى عليه هذا طوال ثلاثين عاماً منذ نجاحاته
الانتخابية الأولى . كانت زوجته تشجعه . إنه سائق

شاحنة السياسة. كان يعرف أن هذا الدور حجة عليه. بالسليقة.. حكومة فلان كانت مؤقتة. وخطيرة. كان يعرف أنه سيكون في أقرب فرصة أضحوكة الصحافة.. سيكون هدف النخبة.. يفهم من أجل معسكره الخاص على أنه كيش فداء بصفة رئيس على الأرجح كان يعرف مزاح كليمنسو على رئيسه في عام ١٩١٧ (حين أخرج ربحاً. هو الذي يتعفن.)

(نعم.. المعالم السياسي فيه من هذه الأناقات بالأحرى نحن لم ننضج بعد فيه بين [أصدقاء].. وجب علينا أن نزن التصريحات السياسية لهم بالمليجرام) حينئذ.. يصبح رئيس وزراء. يقبل هذا التعاقد المحفوف بالمخاطر في فترة محددة. وعلى ذلك تسليح هو وزوجته. رئيس وزراء خلال سنوات.. حسناً. تمر هذه السنوات. وكما كان متوقعاً يقفز يفقد وزارته. يؤكد المحيطون به أنه شكا بخطورة الصدمة: يخاف من أجل مستقبله). ظل هكذا حتى أدى به الانهيار العصبي إلى حافة الانتحار. التسبب في أذى الدور المجتمعى الذى تدريبنا وتعلمنا لأجله ولعبناه (طوال حياتنا) استغرق نصف الوقت الذى عشناه: انتزعونا من الدور.. نحن لسنا ممثلين. تُذكر نهايات المهنة الدراماتيكية هذه باضطراب يماثل فى عيني بشكل كاف ألم المراهق الذى يعتقد أنه لن يصبح له مستقبل.. مجرياً مقداراً من الألم المتواصل. منقصين أنفسنا نتقص بلا جدوى. إلى الحد الذى نصل فيه إلى أن نقتل أنفسنا. إنه على الأقل نقيصة فى تربيتنا.

أقبل عام كنتُ مُستاءً فيه من نفسي بشكل خاص. كانت تعاستي تماماً سببها كونى ما كُنْتُه فعلاً. أتوق إلى ألا أصبح. كانت نافذة حجرتى تطل على (بأوباب) (*) لا جود وسانت جينيه.. الصخرتين الوعرتين فى جبال ألب الجنوب. الصخرتان مشهورتان بأنهما تختصران معاناة العاشقين المرفوضين. ذات صباح بينما كنتُ أتأمل هاتين الصخرتين مع قليل من المودة طرق شخص ما باب حجرتى. كان ذاك هو أبى مرر رأسه من فتحة يسيرة: - آه! يا دانييل.. لقد نسيْتُ تماماً أن أقول لك: الانتحار تهورٌ.

(*) شجر استوائي عريض جذعه، وفي ثماره لب يؤكل. (المترجم).

لكن لنعدّ إلى بداياتى. مُشوشةً بسطوى العائلى..
ذهبتُ أُمى تطلب نصيحة مدير مدرستى هو شخص
حليم.. ثاقب الفكر. ذو أنف كبير مطمئن (كان
التلاميذ يطلقون عليه: كُغُتُر) (*). ارتأنى أكثر قلقاً
وبؤساً من كونى خطيراً. طالب كعتر بالإبعاد وبالهواء
الطلق. إقامة فى مرتفع جعلتنى استرد عافيتى.
مدرسة جبل داخلية.. نعم.. إنها الحل.. سأريح قُوى
فيها وسأتعلم قواعد الحياة داخل جماعة. لا تقلقى يا
سيدتى العزيزة.. أنتِ لستِ أم أرسين لويين.. لكنكِ أم
لحالم صفير يقتضى الأمر أن نمنحه حس
الحقائق قضيتُ عاميَّ الأوليين.. الرابع والخامس..
حيث لم أكن ألتقى بعائلتى سوى فى يوم عيد الميلاد
وفى يوم عيد الفصح وفى الإجازات الكبيرة. أما
الأعوام الكبرى فقضيتها فى مدارس داخلية
أسبوعية. سؤالُ معرفةٍ إنْ كنتُ [سعيداً] فى المدرسة
سؤال فرعى إلى حد كاف. فلنقل إنْ حالة الطالب
الداخلى جعلتنى ممكناً احتمالى للغاية أكثر من طالب
خارجى. من الصعب أن نشرح لآباء هذه الأيام

(*) نوع من العصافير التى تكثر فى أوروبا. (المترجم).

مؤهلات المدارس الداخلية. إلى حد يتأملونها كسجن
للأشغال الشاقة على مرأى من أعينهم.. تُرسل إليه
أطفالها بدلاً عن ترك الأبوة. ذاكرة فقط.. قدرة عام
في مدرسة داخلية.. إنه يمر كمسخ رجعى.. يؤيد
سجن التلاميذ الكسالى. مفيد أن نشرح أننا نجونا
بأنفسنا منه.. حجة العصر الآخر تعارضكم مباشرة:
(نعم.. لكن فى ذاك الوقت كان ثمة من يجر الصبيان
بقسوة!).

اليوم اخترعنا الحب الأقاربى (*). سؤال المدرسة
الداخلية تابوه.. ماعدا تهديد يثبت أننا لا نمسك به
من أجل حل.

ومع ذلك....

كلا.. لن أدافع عن المدرسة الداخلية.
كلا.

فلنحاول بدقة أن نَصِفَ الكابوس العادى لطالب
خارجى (فى رسوب دراسى).

(*) نسبة إلى الأقارب. (المترجم).

مَنْ التلميذ الخارجى؟ هو واحد ممن حدثتني عنه أمهاتى التليفونيات.. على سبيل المثال.. والذى لن يرينه بين تلاميذ مدرسة داخلية مجاناً فلنضع الأشياء فى أحسن حالاتها: إنه ولد لطيف. محبوب من أسرته.. لا يريد موت أحد.. لكن من فرط عدم فهمه شيئاً عن أى شىء لم يعد يفعل شيئاً ذا بال.. ويحصد شهادات دراسية حيث المدرسون يتركون مُنْهَكِينَ التقديرات تمر دون رجاء: (ما من عمل).. (لم يفعل شيئاً.. ولا ثمة مردود) .. (فى سقوط حر).. أو أكثر اعتدالاً: (ماذا يقول؟) (أرى وأنا أكتب هذه الأسطر هذه الشهادة وغيرها أمام عينى).

لنتابع تلميذنا الخارجى سيئ المستوى فى واحد من أيامه الدراسية. بشكل استثنائى.. لم يتأخر. ذكّرتُه بطاقة اشتراكه فى وسائل المواصلات غالباً بأمر هذه الأوقات الأخيرة. لكن حقيبته فارغة تقريباً: كتب.. كراسات.. أدوات.. لمرات كثيرة تُتسى. (سيكتب مدرس الموسيقى فى شهادته الفصلية: عدم اهتمام بالناى).

وبطبيعة الحال لم يُنجز واجباته. والحالة هذه..
تكون ساعته الأولى هي ساعة الرياضيات وتمارين
الرياضيات هي إحدى التمرينات التي يتغيب عنها.
هنا أول ثلاثة أشياء: إما لم يكمل تمريناته؛ لأنه
منشغل بشيء آخر (تطواف بين الرفاق.. أو أياً كان
الأمر مذبحة تليفزيونية في حجرته المغلقة...)
وإما سقط فوق سريره تحت عبء وهنٍ هَشٍّ
وغرق في النسيان. مدٌّ موسيقى يعوى في جمجمته..
وإما.. وهذا هو الظن الأكثر تفاؤلاً - حاول بعزم خلال
ساعة أو اثنتين أن يؤدي تمريناته لكنه لم يتوصل إلى
إنجازها.

حالات الصورة الثلاث بدلاً من النسخ.. على
تلميذنا الخارجى أن يجهز لمدرسه تبريراً. والأمر
هكذا.. يبقى التفسير الأصعب الذى يصلح بالنظر إلى
ذلك هو الحقيقة الخالصة والبسيطة: (سيدى..
سيدتى.. لم أودِ تمريناتى لأنى قضيتُ الجزء الأكبر
من الليل فى مكان ما فى سيبير وأنا أقاتل جنود مَالٍ
الذين قمتُ من جهة أخرى بإبادتهم حتى آخرهم. لم لا
تثق فى!).

(سيدتى.. سيدى.. أعتذر من أجل هذه التمرينات
التي لم أنُهِها مساء أمس.. لقد استسلمتُ تحت وطأة
غباوة ساحقة.. لا يمكننى تحريك إصبعى الصغير..
بدقة قوة انتعال نقالتى).

تُبْرز الحقيقةُ هنا عقبة الاعتراف (لم أعمل
واجبى) .. الذى يُسبب عقاباً فورياً. سيفضلُ تلميذنا

الخارجى بدلاً من اعترافه هذا أن يؤلف حكاية تكون أكثر قبولاً.. على سبيل المثال: (أبى وأمى منفصلان.. نسيت واجبى فى بيت أبى قبل عودتى إلى بيت أمى.. وبتعبير آخر سيكذب.. غالباً يفضل المدرس من جانبه هذه الحقيقة المُعدة لاعتراف كثير الوعورة والذى قابله فى سلطته.. أُجتنبت الصدمة الجبينية.. التلميذ والمدرس ينتفعان بهذه الخطوة الدبلوماسية لاثنتين.. بالنسبة إلى الدرجة.. العقوبة معروفة: نسخة لا تأجيل لها.. صفر.. حالة التلميذ الخارجى الذى حاول بعزم لكن دون جدوى أن يعمل واجبه لا تختلف قليلاً.. يدخل الفصل مستقبلاً حقيقة يمكن قبولها بصعوبة (لقد كرستُ ساعتين بالأمس يا سيدى لئلا أعمل واجبك.. كلا.. كلا.. لم أفعل أى شيء آخر.. جلستُ على منضدتى.. أخرجتُ كراسة النصوص.. قرأتُ النص.. وخلال ساعتين وجدتنى فى حالة تعطّلٍ رياضى مفاجئ.. شللٌ ذهنى لم أخرج منه إلا وأنا أسمع أمى تتادبنى لتناول طعامى.. أنت ترى.. لم أعمل واجبك.. لكنى كرستُ له ساعتين حقيقةً بعد العشاء كان الوقت متأخراً جداً جلسة جديدة من التخشب كانت تنتظرنى تمرين الإنجليزى) (إن كنتَ تستمع أكثر فى الفصل كنتَ فهمتَ نصوصك!) يستطيع أن يُعارض المدرس (على صواب).

لتحاشى هذا الخزي العلنى سيفضل تلميذنا الخارجى أيضاً عرضاً دبلوماسياً للأحداث: (كنتُ مشغولاً بقراءة النص حين انفجر المِرجل).

وهلمَّ جرأً.. من الصباح إلى المساء.. من طريقة
لطريقة.. من مدرس لمدرس.. من يوم ليوم.. فى دالة
أُسية(*) للكذب الذى يصل إلى مشهور (إنها أمى!)..
إنها ماتت!) فرانسوا تروفو.. بعد هذا النهار المنقضى
فى الكذب داخل مؤسسة دراسية.. أول ما سيسمعه
تلميذنا الخارجى سيئ المستوى لدى عودته إلى المنزل
هو المبنى:

. آتئذ.. ما حدث اليوم شئ جيد؟

. جيد جداً.

كذب جديد.

من يطلب منه أيضاً أن يتمزق شكاً من الحقيقة:

. فى التاريخ سألتنى المدرسة عن ١٥١٥. فرددتُ

ماريتيان.. كانت سعيدة جداً!.

(هيا.. سيستمر هذا حتى غدٍ).

غير أن الغد يُقبل فى الحال والأيام تتكرر
وتلميذنا الخارجى يستأنف ذهاباته وإياباته ما بين
المدرسة والأسرة.. وتنفذ طاقته الذهنية فى نسج
شبكة ماهرة من الأغشية بين الأكاذيب التى تُقال فى
المدرسة وأنصاف الحقائق التى تُصلح للأسرة.. بين
التفسيرات التى يُجهزها للبعض وبين التبريرات التى
يُقدمها للآخرين.. بين البورتريهات التى كُلِّفَ بها
المدرسون، والتى يرسمها للآباء وبين التلميذ
بالمشكلات الأسرية التى يدسُّها فى آذان المدرسين..

(*) الدالة الأُسية هى التى تتضاعف بشكل أُسى. (المترجم).

ذرة من الحقيقة فى بعضها وفى بعضها الآخر..
دائماً.. لأن هؤلاء الناس ينتهى الأمر بهم إلى أن
يتقابلوا آباء ومدرسين.. وهذا ما لا مفر منه.. وعليه
أن يحلم بهذه المقابلة.. ودون توقف يُتقن الرواية
الحقيقية التى سيُصنَع منها سيناريو هذه المقابلة.

هذا النشاط الذهنى يعبئ طاقته دون معيار
مشترك مع الجهود الذى يَرْضَى به التلميذ جيد
المستوى لكى يعمل واجباً جيداً.

تلميذنا الخارجى سيئ المستوى يُنْهَك من هذا.
أكان يريد (يريد فردياً) وهو لم يعد يمتلك أدنى قوة
كى ينخرط حقيقةً فى العمل. الرواية التى يخلقها
تجعله سجيناً فى مكان آخر.. مكان ما بين المدرسة
من أجل الصراع وبين الأسرة من أجل الاطمئنان.

فى البُعد الثالث والمُقلَق حيث الدور يثول إلى
التخيل الذى يرتكز على سد الثغرات التى لا تُحصى
من حيث يستطيع أن ينبثق الواقع.. أسفل مناظره
الأكثر خشيةً:

كذب مكشوف.. غضب البعض.. حزن الآخرين..
شكاوى.. عقوبات.. وربما طرد.

عودةً إليه هو. جُرم ضعيف.. خزى.. اشتها
ذنب: معهم حق.. أنا لا أحد.. لا أحد.. لا أحد.

أنا لا أحد.

والأمر هكذا.. فى المجتمع الذى نعيش فيه.
المراهق الذى يقيم داخل إدانة عدم كفاعته - وها هو

على الأقل الشيء الذي تُعلِّمه لنا التجربة المعيشة -
هو فريسة.

الأسباب التي من أجلها يصل الأمر بالمدرسين وبالآباء إلى أن يضربوا صَفْحاً عن هذه الأكاذيب لا بل وأن يتواطئوا معها.. أنها لكثرتها لا يمكن أن تُناقش. كم من إشاعة يومية على أربعة أو خمسة فصول بكل منها خمسة وثلاثون تلميذاً؟

يستطيع مدرس أن يتساءل وبشكل شرعى. أين يوجد الوقت اللازم لهذه التحقيقات؟
أأكون أنا من جهة أخرى مُحققاً؟
أعلى على صعيد التربية الأخلاقية أن أحلّ محل الأسرة؟

إن كانت الإجابة بنعم.. فإلى أى حد؟
وهلّ جراً. قوائم من الأسئلة والطلبات يجعل من كلّ منها فى يوم أو فى آخر موضوعاً للنقاش بين الزملاء.

لكن ثمة سبب آخر من أجله يتجاهل المدرس هذه الأكاذيب.. سبب أكثر توارياً والذي لو كان يقترب من شعور واضح سيعطى هذه النتيجة تقريباً:

هذا الولد هو تجميد فعلى لفشلى المهنى الخاص بى. لم أستطع أن أتوصل لا إلى جعله يُحرز

تقدماً ولا لجعله يعمل. تماماً جعلته يأتى إلى الفصل..
وما زلت مطمئناً من حضوره المادى الوحيد. لحسن
الحظ.. بالكاد يواجهنى هذا الاتهام الشخصى الذى
حورب بكمية من الحجج التى يمكن قبولها: أنا أخفق
مع هذا.. موافق.. لكنى أنجح مع آخرين كثيرين. ما
كان هذا خطئى لو كان هذا الصبى وجد نفسه فى
الصف الرابع!.

ماذا علمه إذاً أسلافى؟

فيما يفكر والداه؟

أنتخيل أنه مع مجموعاتى ومواعيدى أستطيع أن
أجعله يلحق بتأخر كهذا؟

عدد من الأسئلة التى تسمح لنا وهى تثير ماضى
التلميذ.. أسرته.. الزملاء.. المؤسسة نفسها.. أن نكتب
وبكل صراحة التعليق الأكثر ذيوعاً عن الشهادات
الدراسية: عدم اهتمام بالقواعد (التي وجدتها حتى
على شهادة للدروس الإعدادية!).

بمعنى آخر: بطاطا ساخنة.

ساخنة تكون البطاطا بخاصة من أجل الآباء. لا
ينتهون بجعلها تقفز من يدٍ إلى اليد الأخرى. الكذب
اليومى لهذا الصبى يُنْهَكهم: كذب بإهمال. روايات
محبوكة.. تفسيرات مفصَّلة مبالغ فيها.. تبريرات
متوقَّعة: (فى الحقيقة.. الذى حدث....)

بعد أن أعيتهم الحيلة.. عدد لا بأس به من الآباء
يُبدون قبولهم لهذه الأساطير المُضنية.. كى يقوموا

مؤقتاً بتهدة جزعهم الخاص أولاً (ذرة الحقيقة .
مارينيان ١٥١٥ - لعبة دور قرص أسيرين) .. ولكي
يصونوا الجو الأسرى بعد ذلك .. وحتى لا يتحول
العشاء إلى دراما .. ليس هذا المساء من فضلك .. ليس
هذا المساء .. لتأخير دليل الاعترافات الذي يمزق قلب
كل واحد فيهم .

باختصار .. لطرد اللحظة التي سنقيس فيها دون
مفاجأة واقعية مساحة المشهد الدراسي مستقبلين
الشهادة الفصلية التي تُطلى بمهارة أكثر أو أقل
بالمنتفع الأساسي الذي أمسك مجاناً بصندوق
الخطابات الأسرى .

غداً سنرى ..

غداً سنرى ...

إحدى أكثر حكايات التواطؤات الراشدة التي تستحق الذكر في كذب طفل هي المغامرة الناجحة لأخي صديقي [ب.]. الذي كان عمره - آنذاك - اثني عشر أو ثلاثة عشر عاماً. ولأنه كان يخشى تفتيش الرياضيات فقد طلب من أفضل زملائه أن يُحدد له المكان الصحيح للملحق. على أي شيء ينهار متظاهراً بأزمة مرعبة. وتتظاهر إدارة المدرسة بأنها تصدقه.. تطرده إلى المنزل.. وهي بهذا لا تستريح منه. من هنا يقوده الآباء دون إشارة إلى عيادة مجاورة.. حيث تُجرى له عملية في التَّوَّاء.

يظهر الجراح بعد إجراء العملية وهو يحمل إناءً ينغمر فيه شيء ما دامٍ ويصرح بوجه يُشعُّ براءة: (لقد أجريتُ العملية على أكمل وجه.. لقد كان يُشرف على التهاب صفاقي!).

لأن المجتمعات أيضاً تُبنى على الكذب المُقسَّم جيداً.

أو إليكم هذه الحكاية الأخرى الأحدث:

(ن)... مديرة مدرسة ثانوية في باريس تراقب

ظاهرة الغياب المتكرر للتلاميذ هي بنفسها تنادى فى
فصول البكالوريا النهائية فى مدرستها.

دون مقابل تمسك خصوصاً بعائد إلى الجُرم
والذى هددته بالطرد حال غيابه القادم إن لم يكن ثمة
ما يُبرره.

فى ذاك الصباح. يتغيب الصبى.. إنها المرة
ال... اتصلت [ن.] فى الحال بالأسرة عن طريق تليفون
السكرتارية. الأم وهى تعتذر تؤكد أن ابنها مريض
تماماً وهو الآن طريح الفراش يحترق بالحمى..
وأثبتت لها بأنها كانت على وشك أن تخبر
المدرسة. [ن.] قطعت المكالمة التليفونية قانعة بما
سمعت وهذا أمر طبيعى. باستثناء هذا.. تُقابل
الصبى حال عودتها إلى مكتبها. لقد كان بكل بساطة
فى الحمام أثناء الاتصال.

فى حالة حصر الذهابات والإيابات ما بين المدرسة والأسرة تُبرز حالة التلميذ الداخلى ميزتها عن حالة التلميذ الخارجى بإقامة تلميذنا بين فترتين زمنيتين مُغايرتين: المدرسة من صباح الإثنين حتى مساء الجمعة .. والأسرة خلال العطلة الأسبوعية. مجموعة من المتحدثين طوال خمسة أيام عمل ومجموعة أخرى طوال يومى عطلة (والمجموعتان تجدان فرصة للرجوع عوداً على بدء ليومى عيد).

الواقع المدرسى من جانب والواقع الأسرى من جانب آخر. نائماً دون أن يُطمئن الآباء بكذب يومى .. مستيقظاً دون أن يُعدَّ بعناية اعتذارات بشأن العمل الذى لم يُنجز .. بما أنه أتم درس المساء فى أحسن الأحوال بمساعدة مشرف أو بمساعدة مدرس. من الراحة الذهنية .. إجمالاً .. تولد طاقة تعويضية تمتلك فرصة لأن تُستثمر فى العمل الدراسى.

أيكفى هذا لدفع تلميذ كسول وجعله على قمة

الفصل؟

على أى حال أيمنحه هذا فرصة لأن يعيش

الحاضر كما هو؟

والحالة هذه.. إنه فى ذمة حاضره الذى يُشيد به
الفرد دون أن ينحرف عنه هنا يتوقف ثنائى على
المدرسة الداخلية. آه.. لو أن.. بعد كل حساب.. حكايةُ
تُرهب الجميع سأضيف لأنى تعلمتُ فيها بنفسى أن
أفضل المدارس الداخلية هى تلك التى يكون فيها
المدرسون أيضاً مُدرسين داخليين مُهيئين باستمرار
لحالة الاستغاثة.

للملاحظة هناك.. طوال العشرين عاماً الأخيرة
حيث ساءت سمعة المدرسة الداخلية.. ثلاثة من
أضخم نجاحات السينما والأدب الشعبي لدى الشباب
هى دائرة الشعراء الراحلين.. هارى بوتر(*)..
المرنّمون.. وكل منها يُعتبر مدرسة داخلية فى نطاقه.

ثلاث مدارس داخلية قديمة بشكل كاف فضلاً
عن ذلك: زى موحد.. مراسم.. عقوبات جسدية عند
الأنجلو ساكسونيين.. بلوزات رمادية.. بنايات
مشئومة.. مدرسون يكسوهم الغبار وأزواج من
الحواجز الصوتية عند المرنّمين.

قد يكون مثيراً للاهتمام تحليلُ الاستقبال
الاحتفالى الذى قام به شباب المشاهدين عام ١٩٨٩
تجاه دائرة الشعراء الراحلين.. تقريباً بالإجماع.. لقد
حطّ نقدنا من شأنه وصلات المدرسين: غوغائية..
مجاملات.. تشبّه بالقدامى .. حماقات.. تكلفُ

(*) سلسلة هارى بوتر الشهيرة للكاتبة البريطانية ج. ك. رولنج،
وواكب صدور أجزاء السلسلة السبعة سبعة أفلام سينمائية
حققت نجاحاً مذهلاً، كما أن السلسلة هى الأكثر شهرة ومبيعاً
فى اللغة الإنجليزية حتى الآن.

عاطفى.. فقرر سينمائى وفكرى.. عدد من البراهين
التي لا يمكننا أن نعترض عليها بصواب... يبقى أن
حشود تلاميذ الثانوى الفوضوية تهرول إليه وتعود فى
حالة تألق.

أنّ نظنهم مفتونين بعيوب الفيلم الوحيدة فهذا
رأى تافه لجيل كامل. مُفارقَات المدرس كيتنج
التاريخية وسوء نيته على سبيل المثال لم تفلت من
تلاميذى:

– لم يكن كلياً (مهذباً). يا سيدى.. مع [كارب
ديام] كيتنج يتحدث عنه كأننا كنا دائماً فى القرن
السادس عشر. والحالة هذه.. فى القرن السادس
عشر مات كثيرون وهم أكثر شباباً من اليوم!.

– من جهة أخرى.. إنها قبيحة تلك البداية.. حين
يُمزق الموجز الدراسى.. نمط يدعى أنه منفتح جداً...
ولم لا يحرق الكتب التى يستاء منها.. بقدر ما
كان فيها؟ .. أنا.. قد أرفض.

هذا مجنون.. تلاميذى عشقوا الفيلم.

كلهم وكلهن يتقمصون الشباب الأمريكان فى
نهاية سنوات الخمسينيات التى كانت بالنسبة إليهم
اجتماعياً وثقافياً أقرب من المريحين.

كلهم وكلهن كانوا ولوعين بالمثل روبين ويليامز
(الذى كان يخال البالغون أنه يصنع أطناناً منهم).

كان مُدرسه كيتنج يُجسد أمام أعينهم الحرارة
الإنسانية وحب المهنة: ولع بالمادة التى تُدرس.. مُطلقاً

لتلاميذه بتفانٍ الخدمة كلها عبر حيوية مدرب لا يكلّ.
حوجة المدرسة الداخلية كانت تضيف إلى حصصها
حدةً وتُضفى عليهم مناخاً من الألفة الدراماتيكية التي
تُربى شبابنا المشاهدين على الكرامة الكاملة للطلاب.
أمام أعينهم كانت حصص كيتج طقس عبور لم
يكن يرى سواهم.. سواهم بمفردهم. لم تكن هذه هي
قضية الأسرة ولا هي من جهة أخرى قضية المدرسين.
إنه أحد تلاميذى عبّر دون مراوغة: حسناً.. المدرسون
لا يحبون. لكنه فيلمنا.. وليس فيلمكم!.

بالضبط هذا ما كان على أغلب المدرسين أن
يفكروا فيه قبل ذلك بعشرين عاماً.. حين تهلل تلاميذ
الثانوى بأنفسهم بالسعفة الذهبية لمهرجان كان
١٩٦٩ والتي سميت [طقسوس(*)].

حكاية أخرى لمدرسة داخلية حيث أكثر تلاميذ
المدرسة البريطانية تألقاً كانوا قد اقتحموا مدرستهم
وأقاموا فوق الأسطح كانوا يطلقون الرشاشات
والمدافع الهاون على الأقارب.. تجمع الأسقف
والمدرسون من أجل تأجيل الجوائز.

مشاهدون بالغون متعشرون كما يجب.. طلاب
وتلاميذ ثانوى متهللون بطبيعة الحال: إنه فيلمنا.. لا
فيلمكم!.

ظاهرياً.. تغيرت الأزمنة.. لقد قلتُ لنفسي - آنذاك
- إن دراسة مقارنة لكل الأفلام التي تتعلق بالمدرسة
ستعبر كثيراً عن المجتمعات التي رأتها حين ولادتها.

(*) شجر يستخدم للزينة (الترجم).

من [صفر فى السلوك] لجان فيجو إلى هذا
الشهير [دائرة شعراء سانت . أجيل] لكريستيان .
دريشيل (١٩٤٤ . عجوز المرنمين) .. [بذرة عنف]
لريتشارد تروفو (١٩٥٩) .. [المعلم الأول] لميخالكوف
.. كونتشالوفسكى (الاتحاد السوفيتى ١٩٦٥ ..) . مدرس
لزورلىنى (١٩٧٢) .. وإليها يمكن أن نضيف بعد ١٩٩٠
حامل المنشقة لدانيل لوشيتى (١٩٩١) . [اللوحه
السوداء] للإيرانية سميرة ماخمالباف (٢٠٠٠) ..
التجنب لعبد اللطيف كيشيش (٢٠٠٢) . وغيرها
العشرات أيضاً .

مشروع دراستى المقارنة لم يتجاوز طور
النية . يعالجها من يريد .. إن لم تُنجز الآن ها هى على
أى حال ذريعة جميلة تتردُّ إلى الماضى . معظم هذه
الأفلام كان قد حقق نجاحات جماهيرية واسعة
النطاق .. يمكن أن نحصى منها عدداً جيداً للتعليم
المفيد .. من بينها : منذ رابليه^(١) .. كل جيل
لغرغنتويا^(٢) يكابد رعباً فتوياً واحتياجاً ضخماً
للبونوقراطيين . وبتعبير آخر : دائماً الرغبة المتجددة
للتشكل فى تعارضها مع سمت الزمن . مع روح المكان ..
وأمنية التفتح فى الظلام . أو بالأحرى فى الضوء ! .
تخميناً من مُعلم مثالى .

(١) رابليه (فرانسوا رابليه) (١٤٩٥ - ١٥٥٣م) كاتب من عصر

النهضة الفرنسية وطبيب كتب الفانتازيا والملاحاة والأغاني .

(٢) شخصية سينمائية شهيرة . (المترجم) .

لكن لنَعُدْ إلى سؤال [يصبح].

فبراير ١٩٥٩ .. سبتمبر ١٩٦٩ . عشر سنوات
كانت قد انقضت بين الخطاب المشئوم الذى كنت قد
كتبتة إلى أمى وذلك الخطاب الذى أرسله أبى إلى
ابنه المدرس . العشر سنوات حيث أصبحت بما يتعلق
تحوّل التلميذ الكسول إلى مُدرس؟

وبالتبعية . تحوّل الأمى إلى روائى؟

إنه بداهة السؤال الأول الذى يخطر على

البال .

كيف أصبحت؟

الإغراء أكبر من عدم الإجابة . مستنتجاً على
سبيل المثال أن النضج لا يوصف .. نضج الأفراد ليس
أكثر من نضج البرتقال . فى أية لحظة يهبط المراهق
الأكثر جموحاً على أرض الواقع الاجتماعى؟

متى يقرر أن يلعب هذه اللعبة؟

أيصلح هذا للقرار فقط؟

أى نصيب يناله منه التطور العضوى .. الكيمياء

الخلوية .. فتحات الشبكة العصبية؟

عدد من الأسئلة التي تسمح بتحاشي الموضوع الأساسي.

- لو أن ما تكتبه عن تكاسلك حقيقى.. أيمكنك أن تعارضنى.. هذا التحول هو سر مصدق!.

لئلا يصدق فى الحقيقة. إنه من جهة أخرى نصيب التلميذ الكسول: لا أحد يصدقه قط. أثناء تكاسله نتهمه بأنه يُنكّر كسله المعيب فى شكاوى مريجة: (توقف عن رواية الحكايات واعمل!).

وحين يُثبت موقفه الاجتماعى أنه شُفى منه نرتاب فيه إذ يظهر مزايا لا يمتلكها: (أنت.. تلميذ كسول قديم؟

هيا إذا.. تفاخراً!).

الحقيقة أن قبعة الكسول تُحمل بطيبة خاطر استدلالياً. إنها زخرفة تمنحها لأنفسنا بسهولة فى المجتمع.. الذى يميزكم عن هؤلاء الذين كانت جدارتهم فى أن يتبعوا دروب المعرفة الرشيدة. نسمع قدامى التلاميذ الكسالى الأبطال.. نسمع هؤلاء الماكربين فى قاعات الاستقبال.. على الأمواج.. يعرضون فشلهم الدراسى المرير كعملٍ صمودٍ باهر. أنا لا أعتقد فى هذه الأحاديث إلا إذا لمحتُ فيها ذيل صوت ألم.

لأنه لو شُفينا أحياناً من التكاسل فإننا لن نشفى تماماً من الجروح التى يعاقبنا بها. لم تكن هذه الطفولة مُسلية. وسنندم على أنها لم تزد عن

هذا مستحيل أن نمتدحها. كأن ربويًا (*) قديماً
يتباهى بأنه شعر ألف مرة أنه مات مختقاً!

لهذا.. لا يأمل التلميذ الكسول الذى نجا من
مأزق فى أن يُشفق عليه أحد.. خاصةً لا. يريد أن
ينسى. هذا هو كل شيء.. لم يعد يفكر فى الخزي.
فضلاً عن هذا يعرفُ داخل أعماقه أنه ربما لن يتمكن
من التخلص من ورطة كهذه.

مهما حدث.. كثيرون هم التلاميذ الكسالى فى
هذه الحياة. لكن دائماً ما كان لدى شعور بأننى
سأنجو من الخطر. باختصار.. ما الذى حدث داخلى
أنا خلال هذه السنوات العشر؟
كيف شُفيتُ منها؟

تقرير تمهيدى: بالفون وأطفال.. معروف هذا..
ليس لديهم الإحساس نفسه بالزمن. ليست العشر
سنين شيئاً فى نظر البالغ الذى يحسب فترة وجوده
بعشرات السنين. قد نشعر أن العشر سنين تمر
مسرعة.. حين يصبح لدينا خمسون!

إنه إحساس السرعة الذى فضلاً عن ذلك يشحذ
قلق الأمهات بالنسبة إلى مستقبل أبنائهن. البكالوريا
فى خمس سنوات.. سابقاً.. لكن هذا بلا تأخير!
كيف يستطيع الصغير أن يتغير جذرياً فى هذا
الزمن القليل جداً؟

والحالة هذه.. تُساوى كل سنة من تلك السنوات
بالنسبة للصغير ألف سنة. يمكث مستقبله أمام عينيه

(*) المصاب بداء الربو (المترجم).

كاملاً فى بضعة أيام تأتى. أنْ نحدثه عن المستقبل فهذا يعنى أننا نطلب منه أن يقيس المطلق بالدسيماتر. لو أن الفعل (يصبح) تسبب فى شلله فهذا خصوصاً لأنه يفسر قلق وتوبيخ البالغين الشديد. المستقبل.. إنه أنا فى أسوأ حالة ها هو إجمالاً ما كنتُ قد ترجمته حين أثبت لى أساتذتى أننى لن أصبح شيئاً. وأنا أستمع إليهم لم أكن أصنع لنفسى أدنى تصور للزمن. كنت أصدقهم. بكل سذاجة: غبى إلى الأبد.. دائماً.. (الأبد) و (دائماً) كانتا هما الوجدتان الوحيدتان لقياس أن الكرامة الجريحة تُطرح على التلميذ الكسول كى يتحرى حقيقة الزمن.

الزمن.. لم أكن أعرف أنه يلزمنى أن أشيخ كى أمتلك إحساساً لو غاريتمياً.. من جريان الزمن. (كنتُ أجهل تماماً اللوغاريتمات.. جداولها.. خواصها.. مقاييسها.. وأقواسها الفتانة...).

لكن.. أصبحتُ مدرساً. كنتُ أعرف فطرياً أنه لا جدوى من التلويح بالمستقبل قُرب أنوف أسوأ تلاميذى. يكفى عقابهم فى كل يوم.. وفى كل ساعة من هذا اليوم.. شريطة أن نكون.. فى هذا اليوم.. حاضرين تماماً معاً.

والأمر هكذا.. لم أكن طفلاً. كان يكفينى أن أدخل فصلاً حتى أخرج منه. كأحد الأشعة الساقطة من صحون الطائرات.. كان يبدو لى أن نظرة المعلم العمودية تقتلنى من مقعدى وتشحننى فوراً إلى مكان آخر. أين ذاك؟ فى رأسك بالضبط! رأس المعلم!.

كان هذا هو مختبر صحن الطائرة.

وكان الشعاع قد أودعنى فيه. ثمّة من أخذ منه كل مقياس عدم كفايتى.. ثم بصقنى بنظرةٍ أخرى كحُطام. كنتُ أتدحرج فى ماسورة صرف صحى حيثما لم أكن أستطيع أن أفهم لا الذى كنتُ أتعلمه ولا الذى كانت المدرسة تنتظره منى من جهة أخرى بما أنتى كنتُ مشهوراً بعدم امتلاك الكفاءة.

كان هذا الحُكْمُ قد قدّم لى بدائل الكسل: ما جدوى أن نتقاتل على دورٍ لو أن السلطات العليا تعتبر أن الجزر قد نضج؟

نرى... كنتُ أطوّر الكفاءة الأكيدة إلى مسألة ضميرية. إنها الطريقة الذهنية التى كنتُ أكتشفها بسرعة وأنا مدرس لدى تلاميذى الكسالى.

ثم يأتى مُنقذى الأول.

مدرس اللغة الفرنسية.

فى الصف الثالث.

مَنْ كَشَفَ لى مَنْ كُنْتُه: راوى صادق ومُخَفِّقٌ بسرور. مُنْدهشاً.. دون شكٍّ من كفايتى التى تُعدُّ بعناية اعتذارات مُبتكرة دائماً عن دروسى التى لم أستذكرها أو واجباتى التى لم أنجزها.. قرّر أن يعفينى من الأبحاث كى يُطالببنى برواية. رواية كان على أن أكتبها فى فصل دراسى(*).. بواقع باب كل أسبوع. موضوع الرواية مفتوح.. لكنه رجائى أن أعدَّ بعناية مَلازمى دون خطأ فى الإملاء.. (حكاية لرفع المستوى النقدى).

(*) مدة الفصل الدراسى ثلاثة أشهر. (المترجم).

(أَتَذَكَّرُ هذه العبارة حين أنسى الرواية نفسها).

كان هذا المدرس رجلاً عجوزاً للغاية نَذَرَ سنوات حياته الأخيرة لنا. كان عليه أن يُنمى تقاعده في هذه المدرسة التي لم تُعدْ خاصةً بالضاحية الشمالية في باريس. سيد عجوز يمتاز بأنه عفى عليه الزمن لكنه هو الذى اكتشف ملكة الراوى داخلى. كان يدعى. تشوه إملائى أولاً - إنه لا بد أن يباغتني بالحكاية إن كنتُ أريد فرصة لشروعى فى العمل الدراسى. كتبتُ هذه الرواية بحماس. كنتُ أصحح بدقة كل كلمة فيها بمساعدة القاموس (الذى لم يعد يفارقنى منذ ذاك اليوم).

بانتظامٍ كنتُ أُسلمُ أبواب روايتى كمؤلفٍ روايةٍ مُسلسلةٍ محترَف. أتخيل أنها كانت حكاية حزينة كثيراً ومتأثرة كما كنتُ حينها بتوماس هاردى (*). الذى تنتقل رواياته من سوء التفاهم إلى الكارثة ومن الكارثة إلى التراجيديا التى لا يمكن ترميمها.. والذى كان قد غيَّرَ ذوقى بروايته: قَدَّرُ. لا شىء يُفعل منذ الرحيل.. هذا هو رأى:

لا أعتقد أننى أحرزتُ تقدماً جوهرياً أياً ما كان فى هذه السنة. لكن للمرة الأولى طوال فترة دراستى يجعل مُدرسٌ لى وَضْعاً بقيتُ مَدْرَسِيّاً فى عيون شخص ما كالمرء الذى كان لديه خط عليه أن يَتَّبِعَهُ. والذى كان قد ثبت فى هذه الفترة معرفة

(*) توماس هاردى (١٨٤٠ - ١٩٢٨م) شاعر روائى إنجليزى، كتب الرواية والقصة القصيرة من أنصار الحركة الطبيعية.

مضطربة بولى نعمتى.. بالتأكيد.. وإن كان بعيداً
بشكل كاف. السيد العجوز أصبح موضع ثقة قُرَّائى
السريين. عندئذٍ.. ماذا تقرأ. يا بناكشيونى فى هذه
اللحظة؟

لأن القراءة كانت هناك. لم أكن أعرف وقتئذٍ أنها
كانت منقذتى. فى ذلك الحين لم تكن القراءة هى
إقدام هذه الأيام المُحَال. كانت تعتبر مضيعة للوقت
واشتهرت بأنها تؤذى العمل الدراسى. كانت قراءة
الروايات محرمة علينا أثناء أوقات الدراسة.

مما تقدم كان ميلى السرى للقراءة: روايات يعاد
تجليدها ككتب الفصل. مُخبأة فى كل مكان حيثما
أمكن ذلك... قراءات ليلية تحت ضوء مصباح
الجيب.. إعفاءات من الرياضة البدنية.. كان كل شىء
على ما يرام كى ألتقى وحدى مع كتاب. إنها المدرسة
الداخلية التى منحتنى هذا الذوق. كنتُ أفتقر فيها
إلى عالم يخصنى.. وكان هو عالم الكتب. كنتُ أشاهد
فى أسرتى خصوصاً الآخرين وهم يقرءون :

أبى وهو يدخن البايب جالماً فوق مقعده المريح
أسفل مخروط مصباح ضوئى مُمرراً إصبعه البنصر
بشرود فى مفرق شعره المثالى.. كتاب مفتوح فوق
ركبتيهِ المتقاطعتين. برنار فى حجرتنا ممدد على
جانبه ركبته منثنيتان ورأسه تستند على يده
اليمنى. كان هذان الوضعان يشيران إلى رفاهية ما.

الواقع.. هذه هى فسيولوجيا القارئ التى دفعتنى
إلى أن أقرأ دفعاً. ربما لم أقرأ فى البداية إلا من أجل

أن أقلد هذين الوضعين وأرتاد من خلالهما أوضاعاً أخرى. وأنا أقرأ كنتُ أستقر جسدياً داخل غبطة تستمر على الدوام. ماذا كنتُ تقرأ؟

حكايات أندرسون^(١).. فى سبيل تقمّص قروى البطل الصغير.. غير أن ألكسندر داماس^(٢) أيضاً من أجل حركة السيوف.. الأحصنة والقلوب وسلمى لاچرلوف.. الرائع جوستا برلينج.. هذا القس السكّير والمُشْرِق.. المنفى على يد مطرانه والذي فى روايته كنتُ رقيقاً لا يَكَلُّ المغامرة مع جنود إيكبي الآخرين.. الحرب والسلام^(٣) التى أهداها لى أخى برنار بمناسبة انتقالى إلى الصف الرابع.. أُصدّق قصة الحب بين ناتاشا وبين الأمير أندريه فى القراءة الأولى - التى كانت قد اختصرت الرواية إلى ما يقرب من مائة صفحة.

الملحمة النابليونية فى الصف الثالث.. فى القراءة الثانية: أوسترليتز.. بورودينو.. حريق موسكو.. انسحاب روسيا (رسمتُ لوحة جدارية شاسعة لمعركة أوسترليتز.. حيث كان يتقاتل رجال كتابتى المستترة

(١) هانز كريستيان أندرسن (١٨٠٥ - ١٨٧٥م) كاتب دانمركى وأشهر وأكبر كاتب أطفال فى العالم.

(٢) ألكسندر ديماس (١٨٠٢ - ١٨٧٠م) الكاتب الفرنسى الشهير، من أشهر مؤلفاته «الكونت دى مونت كريستو» و«الفرسان الثلاثة».

(٣) الحرب والسلام: أشهر روايات الكاتب الروسى الأشهر ليف نيكولايفيتش تولستوى (١٨٢٨ - ١٩١٠م يعد من أعظم الروائيين على الإطلاق بداية من القرن التاسع عشر ومن أشهر أعماله «أنا كارنينا» و«الحرب والسلام» التى نشرت عام ١٨٦٩م وتناولت الأحداث السياسية والعسكرية فى أوروبا ما بين (١٨٠٢ - ١٨٢٠م) وأهمها غزو نابليون لروسيا عام (١٨١٢).

الصفار الطيبون) (*).. مائتان أو ثلاثمائة صفحة من أفضل ما يكون. قراءة جديدة فى الصف الثانى. من أجل صداقة بيير بيزنجنوف (قروى بط صغير لرواية أخرى.. لكنها كانت تحتوى على أشياء كثيرة لم أكن أصدقها). ومحصلة الرواية أخيراً.. فى الصف النهائى للبكالوريا.. من أجل روسيا.. من أجل شخصية وتوزوف.. من أجل كلوزويتز.. من أجل إصلاح زراعى.. من أجل تولستوى.

كان هناك ديكنز.. بالتأكيد أوليشر تويست كان يحتاج إلى أنا.. إيميلى بروننت الذى كان الجانب الروحى منه يُسمينى الغوث.. ستيقنسون.. چاك لوندون.. أوسكار ويلد..

وأوائل قراءات ديستوفسكى.. العازف بكل تأكيد (مع ديستوفسكى ستعرف لماذا نبداً دائماً بالعازف).

هكذا مضت قراءاتى.. تحت إرادة ما وجدته داخل مكتبة الأسرة وتاننتان بالتأكيد.. سبيرو وعلامات الطريق أو لو بوب موران التى أضرت بالعصر. الميزة الأولى للروايات التى كنت أنشلها من المدرسة أنها لم تكن ضمن المنهج الدراسى. لم يكن أحد يسألنى. ما من نظرة كانت تتلصص على وتقرأ هذه الأسطر من فوق كتفى. كان مؤلفوها وأنا نقطن داخلنا. كنتُ أتجاهل وأنا أقرأها أننى أثقف نفسى وأن هذه الكتب تنشط داخلى شهية كانت تقاوم نسيان

(*) هنا يشير إلى الرسومات التى كان يرسمها على هوامش كتبه الدراسية. (المترجم).

هذه الروايات. قراءات الشباب هذه تَمَّتْ عن طريق أربعة أبواب مفتوحة على علامات العالم. أربعة كتب مختلفة أكثر مما يمكن لكنها كانت تنسج داخل لأسباب غامضة تسكنني جزئياً قيود قرابة محدودة: العلامات الخطيرة. بالقلوب. ميثولوجيات رولان بارت والأشياء لبيريك. لم أكن قارئاً ذواقاً. دون أن يزعجني فلويير(*) كنتُ أقرأ مدام بوفاري وعمري خمسة عشر عاماً من أجل إشباع مشاعري التي انتعشت لحسن الحظ وهي في حالة نهم شديد. لم أكن أجذب أية منفعة دراسية مباشرة من هذه القراءات. ضد كل الأفكار التي استقبلتها تبقى هذه الآلاف من الصفحات التي التهمتھا. ونُسيتُ بسرعة جداً. لم تُحسنْ مستواي في الإملاء. كان مستواي غامضاً دائماً وحتى اليوم مما تقدم يبقى حضور قواميسي كُليةً.. كلا.. فالذي تغلب على أخطائي مؤقتاً (لكن هذا العابر يعيد الشيء ممكناً قطعياً).. كان هو هذه الرواية الميسرة بواسطة هذا المدرس الذي كان يرفض أن يقلل من قراءته لاعتبارات إملائية. كان على أن أقدم إليه مخطوطاً دون خطأ. نابغة تعليمي إجمالاً. بالنسبة إلى وحدي.. ربما.. وربما في هذه الحالة الوحيدة.. لكن نابغة!.

قابلتُ ثلاثة آخرين من هؤلاء النوايع داخل فصلي في الصف الثالث وفصلي الدراسي الثاني.. ثلاثة

(*) فلويير : جوستاف فلويير (١٨٢١ - ١٨٨٠م) كاتب فرنسي شهير، ارتبط اسمه بعمله الأشهر «مدام بوفاري» باعتبارها أول رواية واقعية في الأدب الفرنسي.

منقذين آخرين سأحدث عنهم فيما بعد: مدرس الرياضيات الذى كان هو الرياضيات.. ومُدرسة التاريخ المدهشة التى كانت تمارس شخصياً فن التجسيد التاريخى ومدرس الفلسفة الذى باغته إعجابى لا سيما وأنه اليوم لا يحتفظ بأية ذكرى عنى (كتب لى عن ذلك).. مما جعله يكبر فى نظرى بما أنه نبّه ذهنى دون أن يكون علىّ شىء لكن كل شىء كان بمهارته. إليهم المعلمون الأربعة الذين أنقذونى من نفسى. هل وصلوا متأخرين جداً؟

أكان علىّ أن أقتفى آثارهم.. لو كانوا معلمى إبتدائى؟

أاحتفظ بأفضل ذكرى عن مرحلة طفولتى؟

أياً كان الأمر كانوا هم سعدائى غير المتوقعين هل كانوا بالنسبة إلى تلاميذ آخرين الثورة التى كانوا بالنسبة إلىّ؟

إنها أسئلة توجّه بقدر ما يلعب مفهوم المزاج دوره فى مادة التربية. حين يصل الأمر بى إلى مقابلة تلميذ قديم يبدو سعيداً من عهود ولّت داخل فصلى أقول لنفسى فى اللحظة نفسها على رصيف آخر ربما يتتزه من كنتُ من أجله مطفأة الوظيفة عنصر آخر من عناصر تحولى كان هو اقتحام الحب لى داخل عدم كفاعلى المزعومة.

الحب!.

كان عجيباً تماماً على المراهق الذى كنتُ أعتقد أنى أكونه. ورغم ذلك كانت الإحصائيات تحكى عن

انبثاقه المحتمل بل الأكيد. (لكن لا.. فكروا إذاً في دفعي إلى الحب.. أنا؟ وإلى من؟)

لقد قدم نفسه للمرة الأولى على هيئة لقاء مؤثر في الإجازة.. ظهر بشكل جوهري في تبادل الرسائل بغزارة. وانتهى بقطيعة أُنْفِقَ عليها باسم الشباب والمسافة الجغرافية التي كانت تفصل بيننا. الصيف المقبل.. وأنا كالقلب الذي انكسر بفعل نهاية هذا الهوى نِصْفٌ - الأفلاطوني كنتُ قد تطوَّعتُ كنوتىً يعمل على سفينة شحن.. إحدى سفن الخدمة الحرة في الأطلنطي.. وألقيتُ كمية كبيرة من الخطابات في البحر لجعل الحيتان تضحك ساخرة. كان على أن أنتظر عامين آخرين ليصبح حب آخر هو الأول.. بالأهمية التي.. في هذا المجال.. تُكسبها الأفعال للكلام. نوع آخر من التجسيد الذي أثار حياتي وحاكى توقف موت تكاسلى. امرأة كانت تحبني! للمرة الأولى في حياتي كان اسمي يرن في أذني هاتين!.

امرأة تناديني باسمي! كنتُ أعيش في عيني امرأة.. في قلبها.. بين يديها.. والآن في ذكرياتها.. أول نظراتها في اليوم التالي أخبرتني بهذا! مختار من بين الآخرين! أنا المفضل! أنا البواسطتها!.

(تلميذة كانت.. فضلاً عن ذلك عندما رحت أعيد سنتي النهائية!). حواجز الأخيرة أُجْتِيزَتْ: كل الكتب المقرَّوءة ليلاً.. هذه الآلاف من الصفحات التي مُسِحَ معظمها من ذاكرتي.. هذه المعرفة المختزنة دون علم أحد ودون علمي أنا.. مدفونة تحت طبقات من

النسيان.. من العزوف.. من التحقير الذاتى.. هذا المزيج المعقد من الكلمات التى تفرز بالأفكار.. بالأحاسيس.. بالمعرفة من كل نوع.. يجعل قشرة العار تنفجر فجأة وتتدفق داخل مخى الذى يتخذ مسالك سماء مرصعة للغاية بالنجوم!.

إجمالاً.. كنتُ أُحَلِّقُ كما يقول مسرورو اليوم.. كنتُ أحب وكان ثمة من يحبني! كيف استطاع مقدار من الشوق المتلهف أن يثير مقداراً من الهدوء ومن اليقين؟

أية ثقة وُضعتْ فجأة فى داخلى!.

وأى ثقة امتلكتها داخلى بفتة!.

أثناء السنوات التى استغرقتها هذه الغبطة لم أعد أناقش قضية الغباء.. قطع الشيكولاتة المحشوة.. نعم.

بعد البكالوريا استبعدتُ فى وقت قصير حصولى على شهادة الليسانس وشهادة الأستاذية.. كتابة روايتى الأولى..

دفاتر كاملة من الأقوال المأثورة التى كنت أسمىها دون ضحك مختصراتى.. إنتاج أبحاث لا تحصى.. خُصِّصَ بعضها لصديقات رُشحن لمعهد المعلمين العالى من قبل صديقة لى.. واللاتى احتجن لمعرفةى درجة إجهاد النفس فى التاريخ.. فى الأدب.. أو فى الفلسفة.

فى سياق كهذا.. كنت قد قدمت بذخاً لتلميذة كنت قد تخلّيت عنها فى الطريق من أجل كتابة هذه

الرواية الأولى الشهيرة. أدع ريشتي الخاصة تمضى..
أطير بجناحيّ.. فى سمائى الخاصة!.

لم أكن أريد شيئاً آخر. أو أن تواصل صديقتى
حبها لى. على مزاح أبى بأنه لا بد من انقلاب ضرورى
لحصولى على شهادتى وعلى المخاطرة بمعركة كونية
لو أنى حصلت عليها.. ضحكتُ من كل قلبى وأجبت
بأنه على الإطلاق ما من انقلاب يا أبى.. الحب.. اسم
الله!.

الحب منذ ثلاث سنوات! لن يجعله الانقلاب على
فراشنا .. هى وأنا!

أما من جهة الشهادة فلا شهادة أنا لا أحب
ألعاب المصادفة!.

ما من كفاءة! يكفى ما ضاع من الوقت هكذا.
شهادة أستاذية وكفى: الحد الأدنى لمعيشة مدرس.
مدرس صغير يا أبى. فى هذه المدارس الصغيرة لو
اقتضى الأمر هذا.

عودة إلى مكان الجريمة. انشغلتُ فيه بصبيان
سقطوا فى صندوق قمامة جيبوتى. انشغلت بهم مع
ذكرى جلية لمن كنته.

بالنسبة إلى الباقي.. الأدب! الرواية! التعليم
والرواية! اقرأ.. اكتب.. تعلم!.

أيضاً تقتضى إفاقتى كثيراً من تصلب هذا الأب
البعيد كذباً. أبداً وهو واهن العزم من فتور همتى..
عرف كيف يقاوم كل محاولاتى للهرب: هذا الالتماس

الحاد - على سبيل المثال - فى سن الرابعة عشر من
أجل أن يدخلنى فى أطفال الجيش. ضحكنا على ذلك
كثيراً بعد مرور عشرين سنة. حين أعطيته بعد أن
حُرِّتُ من خدمتى يقرأ التويه الذى سُجِّلَ فى دفترى
العسكرى.. درجات متوالية: درجة ثانية.

- بالتتابع درجة ثانية..آنذاك؟

نعمَ ما فكرتُ فيه: غير لائق بالإذعان ولا ذوق له
فى القيادة.كان هناك هذا الصديق القديم أيضاً..چان
رولان..مدرس الفلسفة..أب نيكولا..چين..وچان.
بول..رفاق مراهقتى فى كل مرة كنت أخفق فيها فى
البكالوريا كان يدعونى إلى مطعم ممتاز كى يواسينى.
وذات مرة فضلاً عن هذا كان كل منا يتخذ إيقاعاً
خاصاً به وتأخرت بسذاجة عن الظهور..
چان..عزيزى چان..هذه الصفحات - متباطئة فى
الحقيقة جداً - تجعلك تبسم فى فردوس الفلاسفة.

باختصار.. نصبح.

لكن لا نتغير كثيراً. نتصرف بما نكونه. ها هي
نهاية القسم الثانى.. قدمت لنفسى نوبة شك. شك
من جهة ضرورة هذا الكتاب.. شك من جهة مقدرتى
على كتابته.. بكل بساطة شكى فى نفسى.. الشك
الذى يتفتح عما قريب فى ملاحظات تهكمية على
مجمل عملى.. بل على حياتى كلها...

شك يتوالد...

هذه النوبات تتكرر. تحاول عبثاً أن تكون ميراث
تكاسلى.. لم أعتد عليها:

دائماً نشك للمرة الأولى.. أما شكى أنا فهو
مُدمر. يدفعنى ناحية منحدر طبيعى. أقاوم.. لكن من
يوم لىوم أرجع عوداً على بدء التلميذ السيئ الذى
أحاول أن أصفه. الأعراض مشابهة بدقة لأعراض
عامى الثالث عشر: أحلام يقظة.. تسويفات..
تبديدات.. وساوس مَرَضِيَّة .. عصبية.. اشتهاؤ الإثم..
تغيرات مزاجية.. خواح.. وختاماً انصعاق أمام شاشة
كمبيوترى.. كأنى قديماً أمام تمرين على أن أنهيه.. أو

أَسْئَلُهُ لَابِدَ وَأَنْ أَسْتَعِدَّ لَهَا كُنْتُ هُنَاكَ .. يَهْزَأُ التَّلْمِيزُ
الْكُسُولَ الَّذِي كُنْتُه .

أَرْفَعُ عَيْنِي .. تَهِيمَ نَظْرَاتِي فَوْقَ جَنُوبِ فَيْرَكُور . مَا
مِنْ مَنْزِلٍ وَاحِدٍ فِي الْأَفْقِ . مَا مِنْ طَرِيقٍ مَا مِنْ أَحَدٍ .
حَقُولَ حَجَرِيَّةٍ تَحِيطُ بِهَا جِبَالٌ دُكَّتْ حَيْثُ تَزْدَهَرُ مِنْ
هُنَا وَهُنَاكَ غَابَاتُ الزَّانِ كَقَنْبِرَاتٍ صَامِتَةٍ .

فَوْقَ كُلِّ هَذَا الْفَرَاغِ تَبْرَعُمُ بِكَثْرَةِ سَمَاءٍ مِنْ وَعِيدٍ .
يَا اللَّهُ .. كَمْ أَحَبُّ هَذَا الْمَنْظَرُ ! .

الْوَاقِعِ .. أَحَدُ أَعْظَمِ ابْتِهَاجَاتِي كَانَ أَنْ أَقْدِمَ
لِنَفْسِي هَذَا الْمَنْفَى الَّذِي وَأَنَا طِفْلٌ كُنْتُ أَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ
وَالِدِي .

هَذَا الْأَفْقُ مِنْ جَانِبِهِ لَيْسَ بِهِ مَا يَقْدِمُهُ لِأَحَدٍ . (مَا
عَدَا هَذَا الْأَرْنَبُ الصَّغِيرُ لَطَائِرِ السَّقَاوَةِ) (*) .. فِي
السَّمَاءِ .. وَيُعَدُّ هَذَا الطَّائِرُ مَشْرُوعَاتٍ حَوْلَ هَذَا
الْأَرْنَبِ ...).

فِي الصَّحْرَاءِ .. الْمَغْوَى .. لَيْسَ إِبْلِيسُ .. إِنَّمَا هِيَ
الصَّحْرَاءُ نَفْسُهَا . إِغْوَاءٌ طَبِيعِيٌّ لِكُلِّ التَّازِلَاتِ .
حَسَنًا .. الْأَحْوَالُ مُرَضِيَّةٌ هَكَذَا .

أَوْقِفْ سَيْرَكَ .
عُدْ إِلَى الْعَمَلِ مَرَّةً أُخْرَى .

(*) طَائِرٌ مِنْ فَصِيلَةِ الصَّقُورِ (الْمُتَرْجِمُ) .

- ٢٢ -

ونعود ثانية إلى العمل. سطرًا تلو سطر نداوم
على أن نصبح.. برفقة هذا الكتاب الذي يصبح.
نصبح.

بعضنا تلو الآخر نصبح. نادرًا ما يحدث هذا
كشيء مُقَدَّر. لكن الشيء المؤكد هو أننا نصبح.
الأسبوع الماضي.. لدى خروجي من سينما إذا
بفتاة صغيرة عمرها تسعة أعوام أو عشرة.. تركض
خلفي في الشارع وتلحق بي وهي تلهث:
. سيدى.. سيدى!.

ماذا إذا؟

أنا نسيت مظلتي داخل السينما؟
يبتسم الجميع.. فيما تشير الفتاة بإصبعها إلى
صورة تنظر إلينا من الجانب الآخر للشارع.
- إنه جدى يا سيدى!.

جد يرسم تحية متضايقه قليلًا.

- لا يجرؤ أن يقول لك صباح الخير. لكنك كنتَ
مُدْرَسَه.

....

عجياً..جدها..!

أنا كنتُ مدرسُ جدها..!

وأجل..نحن نصبح..

...

تترك صبية في الصف الرابع.. لا أحد.. لا

أحد.. لا أحد بشهادتها (كم كنتُ لا أحد!)

عشرون عاماً فيما بعد تنادى عليك شابة في

شارع أجاكسيو.. متألقة.. جالسة في شرفة مقهى:

- سيدى..لا تلمس كتف الجندي الذي يمر..!

تتوقف.. تلتفت إلى الورااء.. تبسم لك الشابة..

تتلو عليها تنمة قصيدة الممر لسوبرفياال التي ظاهرياً

تعرفانها أنتما - الاثني :-

قد يلتفتُ إلى الورااء

قد يكونُ هذا هو الليلُ

ليلُ بلا نجمةٍ وحيدةٍ

بلا منُحني ولا سحابةٍ.

تقهقه هي وتسال:

ماذا قد يُصبحُ إذا

كلُّ ما يُكونُ السماءَ

القمرُ ومنظره

وضجةُ الشمسِ؟

وتجيبُ على الطفلة التي تظهر في ابتسامة

المرأة.. الطفلة التي تمردت على مَنْ علّمك هذه
القصيدة قديماً:

عليك أن تنتظرَ

جُندياً ثانياً

أقوى من الآخر

يأذنُ بالمرور.

في باريس.. أثرثر داخل مقهى مع بعض
الأصدقاء.. من طاولة مجاورة يُصَوَّبُ رجلُ إصبعه
نحوى وهو يُحدِّقُ فى.. أرفع عينى وأسأله بهزة جبهةٍ
عما يريده منى.

حينئذ.. ينادينى باسم آخر غير اسمى.

- دُنْ سيجوندو سومبرا!.

هذا الحدث يجعلنى أقفز قفزة دوارية(*)

داخل الزمن.

- أنت.. كنتَ لَدَى عام ١٩٨٢ فى الصف

الخامس.

- تماماً يا سيدى. وتلك السنة قرأت لنا دُنْ

سيجوندو سومبرا.. رواية أرچنتينية لريكاردو

جویرالدس.

لا أتذكر أبداً اسم تلاميذ المصادفة ولا وجوههم

إضافةً إلى هذا.. لكن منذ أبيات الشعر الأولى.. أوائل

عناوين الروايات المذكورة.. الإشارات الأولى فى حصة

معينة.. شىء ما يُؤلف ثمانية من المراهق الذى لم يكن

(*) نسبةً إلى الدُّوار (المترجم).

يريد أن يقرأ أو من الصغيرة التي كانت تؤكد أنها لم تفهم أى شيء فى أى شيء..أصبحت بالنسبة إلى مرة أخرى مقربين كأبيات شعر سوبرفيال أو اسم سيجوندو سومبرا الذى سيعرف لماذا لم يتكيدا تأكل الزمن.

هم.. فى الوقت نفسه.. هذه الصبية المذعورة.. هذه المرأة الشابة التي تضع اليوم موضة جيلها.. هذا الصبي العنيد.. وقائد السفينة هذا الذى يقرأ فى أعالي المحيطات.. طيار آلى فى حالة تعشيق.

فى كل مقابلة أسجل أن ثمة حياة غير متوقَّعة تتفتح فى مثل هيئة سحابة. إياك أن تتخيل أن هذه الأقدار تقتضى بهذا القدر تأثير مدرّسك!.

أشاهد الوقت فى ساعة جيبي التي أهدتها لى مين زوجتى ذات عيد ميلاد قديم.. ولم تفارقنى قط هذا النوع من الساعات ذى العلبتين يُسمّى سافونيت^(١). فإذا بى انزلق خمسة عشر عاماً إلى الوراء.. مدرّسة [H] الثانوية.. قاعة.. [F] حيث أراقب قرابة ستين من الأوائل والأواخر الذين يُمتحنون فى صمت المستقبل جميعهم يُسوّدون الأوراق متنافسين ماعدا إيمانويل على يمينى.. على مقربة من النافذة على بعد ثلاثة أو أربعة صفوف من دِكتى. أنف فى الريح.. نسخة بيضاء^(٢) يا إيمانويل تلتقى نظراتنا تتضح نظرتى: ماذا إذا؟

(١) أى ساعة بعلّبتين (الترجم).

(٢) يقصد أنه لم يُدوّن أى شيء فى كراسة إجابته (الترجم).

نسخة بيضاء؟ هل ستجلس فيها .. نعم؟ يشير
إيمانويل إلىً بالاقتراب. كان تلميذى قبل ذلك بعامين.
ذكى..نشيط..كسول..مبتكر..مضحك..وحازم.
و..الآن.. نسخة بيضاء علانية. أوافق على الاقتراب..
يختلق اعتزام العمل.. لكنه قاطع توبيخى قاذفاً فى
تأوه قطعى:

- لو كنت تعرف كم يزعجنى هذا يا سيدى!
ما الذى يجب أن تفعل بتلميذ كهذا؟ الانقضاض
عليه فى مكانه؟

توقع.. مع أن هذه ليست هى اللحظة..أسأل:
- وهل أستطيع أن أعرف ما الذى يفيدك؟
- هذه يجيب راداً إلى ساعتي التى سرقها دون
أن أكتشف هذا.

- وهذا.. يضيف وهو يُعيد إلى قلمى.
..نشال؟

أتريد أن تصبح نشالاً؟
..حاو يا سيدى.

ما يُصَبِّحه..فى الواقع..هو ما يكونه
الآن..ومعروف به..دون أن يكون لى فى الأمر يد.
أجل.. يحدث أن تتحقق بعض المشروعات فى
بعض الأحيان..أن تكتمل بعض الميول.. أن يُكرِّم
المستقبل مواعيده.

أكد لى أحد الأصدقاء أن ثمة مفاجأة تنتظرنى
فى المطعم الذى يدعونى إلى تناول وجبة فيه. أذهبُ

إلى المطعم. مفاجأة ذات أهمية. إنه ريمى.. طباخ المكان.

مدهش ارتفاعه المتر والثمانون سنتيمتراً أسفل قبعة الرأس البيضاء.

بداية لم أتعرف عليه.. لكنه أنعش ذاكرتى وهو يضع أمام عينيّ نسخة كَتَبَهَا هو وقمتُ أنا بتصحيحها قبل خمسة وعشرين عاماً. ١٢ / ٢٠ . الموضوع: رسمٌ صورتك فى سن الأربعين. والحالة هذه.. الرجل ذو الأربعين عاماً المنتصب أمامى.. المبتسم.. الخجول قليلاً من ظهور مُدرسه القديم.. هو تماماً من كان الصبىّ قد رسم صورته : طامٍ فى مطعم.. كان يقارن مطابخه بقاعة آلات باخرة فى عرض البحر. كان المصحح قد قدَّر باللون الأحمر.. وأعرب عن أمنيته فى الجلوس فى يوم ما على طاولة فى ذاك المطعم...

إنه نوع من المواقف حيث لا تتأسف على كونك أصبحت المدرس الذى لن تكونه من الآن فصاعداً. نحن نصبح.. نصبح.. جميعاً بقدر ما نكون.. ونتلاقى أحياناً بين من أصبحوا.

إيزابيل.. فى لقائى بها داخل مسرح الأسبوع الماضى أدهشتنى إذ وعامها المقبل هو الأربعون تشبه فتاة ذات ستة عشر عاماً كانت تلميذتى فى الصف الثانى.

كانت قد رسبت فى فصلى بعد أن فُصِلتَ مرتين. (فصلى للمرة الثانية فى ثلاث سنوات.. بعد كل

حساب!) الآن تعمل مطبّبة تُطَق بابتسامة حذرة.
تسألنى كالأخرين:

أتذكر أونتيل؟ وأنتل؟ وغيرهما؟

واحسرتاه.. يا تلاميذى.. دائماً ما تمتع ذاكرتى
القيحة عن توثيق الأسماء العَلَم.

تواصل حروفها الكبيرة(*) إقامة العراقيل. كنتُ
أحتاج إلى أجازات طويلة كي أنسى معظم أسمائكم.
آنثذ.. تأملون مع كل هذه السنوات!.

نوع من الرشافات الدائمة تغسل دماغى الذى
يَقْصى.. مع أدمغتك أسماء المؤلفين الذين أقرؤهم..
عناوين كتبهم أو عناوين الأفلام التى أراها.. المدن
التى أعبرها.. المتجولون الذين أكونهم.. الخمور التى
أشربها...

ما لا يدل على أنكم قد تفرقون فى نسيانى!
على أنه منحنى فقط خمس دقائق كي أراكم مرة
أخرى... ووجه ريمى السواثق.. ضحكة نادية
العريضة.. دهاء إيمانويل.. رقّة كريستيان المتأملّة..
حيوية إيكسل.. بشاشة أرتر التى لا تصدأ..

كلها توقظ التلميذ داخل هذا الرجل أو هذه
المرأة اللذان وهما يُقابلاتنى يُسعداننى بالتعرف على
مدرسهما.

أستطيع اليوم تماماً أن أعترف لكم بهذا..
ذاكرتكم كانت دائماً أكثر نشاطاً وأكثر وثوقاً بها من
ذاكرتى.. حتى فى تلك الأوقات حيث كنا نتعلم معاً

(*) يقصد الحروف الأولى التى تُكتب بشكل كبير فى بدايات
الأسماء العَلَم (المترجم).

تلك النصوص الأسبوعية التي كان لابد لنا من أن
نتمكن من تسميعها بالتبادل فى أية لحظة من
العام، عام جيد عام سيئ..

قراءة ثلاثين نصاً من كل نوع.

أعلنت إيزابيل عنها بفخر:

- لم أنسَ منها واحداً يا سيدى!

- أتصور أنكَ كانتَ لديك (١).....المفضلة..

. أجلّ.. ما حددتم - على سبيل المثال - أننا

سننضج كى نفهمه فى عامنا الستين وما منه أتلو
النص الذى نحن بصدده فى الحقيقة يسقط عمودياً
كى أختتم باب يصبح (٢):

دأب جدى على أن يقول: الحياة قصيرة بشكل
مذهل. اليوم تتألب الحياة فى ذكرياتى على نفسها
مشدودة جداً درجة أنى أفهمها بالكاد (على سبيل
المثال) كشاب يقدر أن يصمم على السفر على ظهر
حصان إلى أقرب قرية دون أن يخشى ألا (كل حادث
مُسْتَبْعَد) تكفى حياة عادية تجرى دون تصادمات بعيداً
جداً حتى من أجل هذه النزهة.)

فى مجمل الإجلال تُطلق إيزابيل اسم المؤلف:
فرانز كافكا (٣)

وتحدد بدقة:

. فى ترجمة فيالات.. التى تفضلها.

(١) هذه النقطة ومثلها فى الرواية هى من المؤلف (المترجم).

(٢) يقصد هذا الباب الثانى من رواية (المترجم).

(٣) فرانز كافكا (١٨٨٢ - ١٩٢٤م) أديب نمساوى، من أنصار المدرسة
التعبيرية أشد تأثيراً كبيراً فى الوجودية.

٢

٧(*)

أو مضارع التجسيد

لن أتوصل إليه أبداً

(*) حرف الـ [٧] في اللغة الفرنسية يُستخدم كضمير شخصي يحل محل مفعول غير مباشر يعبر عن المكان أو عن أشياء غير محسوسة مسبقة بأحد حروف الجر (الترجم).

- ١ -

- سأصل إليه أبداً (١) يا سيدى.
- أنتَ تقول؟
- سأصل إليه أبداً!
- أين تريد أن تذهب؟
- لا مكان.. أريد أن أذهب إلى لا مكان!
- إذا لماذا تخاف من عدم الوصول إليه؟
- ليس هذا ما أريد أن أقوله!
- ماذا تريد أن تقول؟
- أنتى لن أصل إليه أبداً.. هذا هو كل شىء!
- اكتبْ لنا هذا على السبورة: لن أصل إليه أبداً.
- Je ni arriverai jamais.

لقد أخطأت فى [n'y] (٢) .. إنه وصل
 سلبى.. (٢) سأُشرحه لك فيما بعد صحح [n'y]
 تكتبُ هنا هكذا: n'y

- (١) يقصد المتحدث هنا أن يقول لن أصل إليه أبداً.. لكن نظراً لطبيعة اللغة الفرنسية التى يختلف ما يكتب عما ينطق فى كثير من الأحيان فقد فهمها المستمع هكذا (المترجم).
- (٢) ال Π تشير إلى النفى (لا) فيما يشير (Y) إلى مكان ما أو شىء ما حذف (المترجم).
- (٣) يحدث أن ننطق كلمتين أولاهما تنتهى وثانيتها تبدأ بحرف متحرك على أنهما كلمة واحدة، وهذا ما يقصد به الوصل وهو لا يجوز فى بعض الحالات لذا يسمى وصل سلبى (المترجم).

كما أن [arriver] (١) يأخذ حرفين (R) (٢)
Je n' y arriverai jamais.

- حسناً. ما هذا الـ [Y] وفق ما ترى؟

- لا أعرف (٣)

ماذا يريد أن يقول؟

- لا أعرف.

- إذا.. حتماً لابد من أن نقع على ما يريد أن

يقوله.

لأن هذا ما يُخيفك.. هذا الـ [Y]

- لستُ خائفاً.

- لستَ خائفاً؟

- لا.

- ألسَـتَ خائفاً من عدم التوصل إليه؟

- لا.. إننى أهتز منه.

- معذرة!

- سيان عندي.. ماذا.. أنا أسخر منه!

- أأسخر من عدم التوصل إليه؟

- أسخر منه وهذا هو كل شيء.

- وهذا.. ما تستطيع أن تكتبه على السبورة؟

- ماذا.. أنا أسخر منه؟

(١) يصل أو يتوصل إلى (المترجم).

(٢) معنى هذه الجملة: لن أتوصل أو أصل إليه أبداً (المترجم).

(٣) نطق المتحدث هنا هذه الجملة دون حرف النفي لا في اللغة

الفرنسية (المترجم).

. نعم.

Je mens moque.

m' en هنا أنت كتبت تصريف فعل (يكذب/ mens

مع الضمير الشخصى الأول: أنا فى زمن المضارع.

Je m' en moque.

. حسناً.. وهذا الـ [en] ما هو هذا الـ [en] (*)

بالتحديد؟

... -

- ما هذا الـ [en]

- لا أعرف.. أنا.. هذا هو كل شيء!.

- كل هذا ماذا؟

- كل ما يجعلنى أنتفخ!.

(*) الـ [en] فى اللغة الفرنسية يُستخدم كضمير شخصى يحل محل مفعول تسبقه إما أداة نكرة أو أداة تجزئة أو عدد أو كلمة تعبر عن كمية كما يستخدم كحرف جر بمعنى إلى أو فى (المترجم).

منذ اللحظات الأولى لحصص ذاك العام
الدراسى ونحن - أنا وتلاميذى - نُهاجمُ ب: هذا
الـ [y] بهذا الـ [En] بهذا الـ [Tout] بهذا الـ [Ca]
هذا

إنه بواسطتها كنا قد شرعنا فى الهجوم على
حصنٍ نحوى. إن كنا نريد أن نستقر بمتانة فى صيغة
المضارع الدلالية لخصتنا.. فكان يجب أن نثار من
الرُسل الغامضة لقبض الروح. أسبقية مطلقة!.

لقد سعينا إذاً لإيجاد الضمائر الضبابية هذه
الكلمات المُلغزة كانت تعرض نفسها كعدد من الدمامل
التي تحتاج إلى تفريفها.

[Y].. أولاً بدأنا بهذا الـ [Y] الشهير الذى لم
نتوصل إلى فهمه أبداً. نخرج على تسميته بضمير
ظرفىّ والتي تَرنُّ كشئ غريب فى أذن التلميذ الذى
يستمع إليها للمرة الأولى.. فلنفتح بطنه.. لنستأصل
منه كل المعانى الممكنة.. ونُلصق به علامته النحوية
مستخدمينه بعد أن نعيد أمعاءه المُفهرسة إلى مكانها
كما ينبغى.

يمنحه النحويون قيمة ملتبسة فلنحدد بدقة إذا..
فلنحدد بدقة!).

بالنظر إلى ذلك.. تلك السنة بالنسبة للصبي
الذى يصيح ويلقى بكلمات ضخمة كمن يدحرج
آلين.. كان الـ [٧] ذكرى تمرين رياضيات مُحْرِقة..
كان يُقبل عليه ليكسر الأسنان.. كان التمرين يفلت من
أزمة: قلم مُلّقى.. كراس مُنهكة (على أى حال.. لم أفهم
منه شيئاً.. أرتج منه.. هذا ما يجعلنى أنتفخ.. إلخ.)

تلميذ كرية مطرود من الفصل.. ستقرصه أزمة
جديدة فى اللحظات المُقبلية.. فى بيتى.. فى اللغة
الفرنسية.. حيث كان يصطدم بصعوبة أخرى.. نحوية
هذه المرة لكنها كانت تعيده إلى الذكرى السابقة...

- سأصل إليه أبداً.. أقول لك.. ليست المدرسة
مُهَيَّأة لى يا سيدى!).

(جدل محلى أيها الرجل الصغير.. وقريباً سيصبح
جدلاً قرنياً(*).. معرفة إن كانت المدرسة مُهيَّأة لك أو
أنت مُهيَّأ للمدرسة.. لن تتصور كم نُجرح فى هذا
الصدد فى سماء التهذيب.)

- منذ ثلاث سنوات.. هل كنت تعتقد أنك
ستصبح فى الصف الرابع؟

- ليس حقيقةً.. كلا من جهة أخرى كانوا
يريدوننى أن أعيد سنتى فى.. [CM2]

- إذا.. رغم كل هذا أصبحت فى الصف
الرابع وصلت إليه. (فى القِدَم.. ربما.. فى شأن لا
(*) نسبة إلى القرن (المترجم).

قيمة له أمنحه إياك نوعاً ما طوعاً . يتطلع إليك هذا . يُناقش هذا لدى السلطات العليا . لكنك وصلت إليه على الرغم من هذا .

الحقيقة هناك .. ونحن جميعاً معك هناك .. والآن وها نحن فيها . سنقضى العام فيها .. سنعمل فيها .. سنستفيد منها من أجل حل بعض المشكلات .. فلنبداً بالأكثر إلحاحاً من الجميع هذا الخوف من عدم الوصول إليه . هذا الإغراء بالسخرية منه . هذا الهوس بإقحام (كل) فى (كل) نفسها .

ثمة آلاف مؤلفة فى هذه المدينة .. يخافون من عدم الوصول إليه .. يعتقدون أنهم يسخرون منه .. لكنهم لا يسخرون منه إطلاقاً .. إنهم يدعون .. يكتبون .. يحيدون ..

يحتجون . يصطدمون .. يلهون بشدة .. لكن إن كان ثمة شيء لا يسخرون منه . فإنه من هذا ال [y] ومن هذا ال [en] اللذين يفسدان عليهما حياتهم . ومن هذا ال [tout] الذى يجعلهم ينتفخون .
- لا يصلح هذا لشيء .. على أى حال .

موافق سننشغل بهذا ال [aʒ] وأيضاً بهذا ال [rien] (١)

وبفعل [servir] (٢) بقدر ما نكون فيه . لأنه يضرينى على أعصابى . فعل [servir] !

(١) تعنى لا شيء . (المترجم) .

(٢) هذا الفعل يعنى فى اللغة الفرنسية يخدم / يصلح لى . (المترجم) .

لا يصلح هذا لشيء.. هذا لا يصلح لشيء.. وفي
فمك.. الآن لأي شيء يصلح فعل [servir]

إنه وقت توجيه السؤال إليه في تلك السنة.. إذاً
فتحنا بطن هذا الـ [y] هذا الـ [en] الـ [aÇ] (*)
هذا الـ [tout]

هذا الـ [rien]

في كل مرة كانت هذه الكلمات تفاجئنا في
الفصل كنا نساfer بحثاً عما خبأ عنا هذه الكلمات
المُحِبِّطة نفسياً جداً.

فرغنا هذه القُرْب الممدودة للغاية ممن يثقلون
زورق التلميذ حتى الهلاك الأبدى.. فرغناهم كمن
ينزح من سفينة ماءً يوشك على الانسياب.. وفحصنا
عن قُرْبٍ محتوى ما ألقيناه من أعلى حافة:

[y] تمرين الرياضيات هذا أولاً.. الذي سبب نزاعاً.
[y] تمرين النحو.. لا يزال يجعلني أنتفخ أكثر من
الرياضيات.. يا سيدى!).

وهلَّمْ جراً.. [y] اللغة الإنجليزية التي لم يتمكن
منها.. [y] التكنولوجيا التي كانت تجعله ينتفخ
كالباقيين (عشر سنين فيما بعد كانت قد سيطرت على
رأسه وعشر سنين فيما بعد أيضاً سَمَّته).. [y] النتائج
التي كان ينتظرها كل البالغين دون جدوى
منه.. باختصار.. [y] كل ما رآه طوال فترة دراسته من
حيث ظهور [en] ظهور يزدريه (يسخر منه)..

(*) تعنى هذا (المترجم).

يتضارب معه.. يهتز منه.. قصة اختبار مقاومة آذان المعلمين. أيضاً قرابة عشرين سنة وتتقاتل الخصي قادمة لتتضم إلى القائمة).

[En] محضر يومى لرسوبه..

[En] الراى الذى كونه البالغون عنه..

[En] إحساس الخزى هذا الذى يُفضل أن يُبدله إلى كُره المدرسين وإلى إزدراء التلاميذ جيدي المستوى...

من حيث رفضه البحث عن فهم [Ça] الضخمة التى لا تصلح لـ... [rien] هذه الرغبة الدائمة فى أن يفعل.. فى أن يفعل شيئاً آخر.. أياً ما كان وأينما كان تشريحهم المتمرد لهذا الـ [y] رفع لهؤلاء التلاميذ الصورة التى رسموها لأنفسهم بأنفسهم: ما من أحد يضل داخل عالم عبثى.. كانوا يفضلون أن يسخروا منه.. بما أنهم لم يروا فى الأفق بصيصاً من مستقبل.. ولا حتى فى الحلم يا سيدى!..

لا مستقبل..

[y] أو المستقبل الذى لا يمكن بلوغه.. ليس فقط فى عدم مواجهته لكن كذلك فى عدم الاستقرار فى الحاضر.. جالسون فوق مقاعدنا لكن فى مكان آخر.. سجناء حدود دائرة النواح. وقت لا يمر.. نوع من الخلود.. إحساس بألم معنوى يجعلنا نُسدده إلى أى إنسان ويسعر باهظ جداً..

من حيث تحليلى كمدرس: استخدام التحليل النحوى من أجل أن أبعثهم هنا الآن حتى أجرب فيه لذة الفهم الخاصة جداً.. إلام يصلح ضمير ظرفى..

كلمة أساسية تستخدم مائة مرة يومياً دون أن نفكر فيها.

إنها غير مفيدة تماماً.. أمام هذا التلميذ الغاضب.. من ضلاله في تَمَحُّكٍ أخلاقي أو نفسي.. فالوقت ليس للجدل.. إنما للإلحاح ذات مرة [y] و [en] مُفَرَّغان ونقيان.. إننا وسمناهما كما ينبغي. ضميران ظرفيان عمليان بقوة كي تُعَقَّدَ الأمور في محادثة عسيرة.

لقد قارناهما بكهوف اللغة.. هاذين الضميرين.. بمخازن الغلال التي لا يمكن بلوغها.. بحقيبة لن تفتح أبداً.. بلضافة نُسِيتَ داخل مستودع فُقدَ مفتاحه.
- مخبأ يا سيدى.. مخبأ مقدس!.

ليس جيداً جداً والأمر هكذا.

نعتقد أننا سنختبئ فيه فإذا به يهضمنا.
[y] و [en] يتلعنا ونحن لم نعد نعرف من نكون.

- ٣ -

أمراض النحو تُعالج بالنحو.. الأخطاء الإملائية بالتمرين على الإملاء.. الخوف من القراءة بالقراءة.. الخوف من عدم الفهم بالانغماس فى النص.. والتعود على عدم التفكير بالتدعيم الهادئ لعقل محصور بدقة فى الموضوع الذى يشغلنا.. هنا.. الآن.. داخل هذا الفصل.. أثناء وقت الدرس.. بقدر ما نكون فيه.

لقد ورثتُ هذا اليقين من فترة دراستى الخاصة بى. ثمة من كان يوبخنى عليه كثيراً.. ثمة من كان يحاول غالباً أن ينصحنى ويرفق لأن الأمم لا تنقص لدى المدرسين.

يوم أن أرسل لى مدير المدرسة على سبيل المثال سطوى الأسرى. كان هذا نُوتياً.. قائد مركب قديم.. جرب صبر المحيطات.. رب أسرة وزوج لطيف لامرأة كان يُقال عنها إنها مصابة بداء غامض.

رجل قوى ينشغل بأقاربه وبإدارة هذه المدرسة الداخلية التى لم يكن ينقصها حالات من نوعيتى. كم كان لديه من ساعات مُنهكة رغم ذلك كى يُقنعنى أنتى ما كنتُ الأحق الذى كنتُ أدّعيه.. أن أحلام منفاى

الإفريقي كانت محاولات للهروب.. وأنه كان يكفى أن
أبشر العمل بجدية كي أزيل العراقيل التى كان نواحى
يضغط بها على كفاءتى!.

لقد وجدته طيباً جداً إذ يهتم بى.. وهو الذى كان
لديه تلال من الهموم.. تعهدتُ أنا بتصحيح أخطائى..
نعم.. نعم.. فى التوفيق.. بمجرد أن وجدتنى فى
درس الرياضيات.. أو فى درس المساء منكياً على درس
العلوم الطبيعية.. لم يعد يبقى شئ من الثقة التى لا
تقهر التى كنتُ قد حجبته فى حديثى معه.

ما لم نتحدث عنه هو الجبر.. سيدى المدير
وأنا.. ولا عن التمثيل الضوئى^(١).. بل عن قوة
الإرادة.. بل عن التركيز..

إنه أنا من كنا نتحدث عنه.. أنا سريع التأثير كلياً
بالتحسن.. كان مقتنعاً بى.. لو شرعتُ فى العمل بشكل
حقيقى!.

وهذا أنا.. المنتفخ بأمل مباغت.. أقسم على أن
يثابر.. على ألا يعود لرواية الحكايات.. واهأ.. عشر
دقائق فيما بعد.. مواجهاً جبرية لغة الرياضيات فرغ
ككرة.. هذا أنا.. وفى درس المساء لم يعد سوى عزوف
أمام الطعم ذى الطلاسم للنباتات بالنسبة إلى الغاز
الكربونى عن طريق الكلوروفيل^(٢) الغريبة.

عدتُ مرة أخرى الغبى المألوف الذى لم يكن يفهم
شيئاً أبداً لمسبب أنه ما فهم شيئاً قط.

(١) إحدى العمليات الحيوية التى يقوم بها النبات. (المترجم).

(٢) مادة خضراء يحتوى عليها النبات. (المترجم).

من هذه الحادثة المزعجة التي تكررت أكثر من مرة.. ظل يقينى أنه يجب التحدث مع التلاميذ بلغة المادة الوحيدة التي كنت أدرسها لهم.

خوف من النحو؟ فلنمارس النحو. ما من شهية تجاه الأدب؟ فلنقرأ.

لأن.. أيضاً الأغرب من هذا يمكن أن يظهركم يا تلاميذنا .. أنتم معجبون بمواد درّسناها لكم. أنتم المادة بل كل موادنا تعساء فى المدرسة؟ ربما ضاجون من الحياة؟ بالتأكيد.. أجل.

لكن فى نظرى مُكوّنين من الكلمات.. جميعاً مثلما أنكم منسوجون من النحو.. مكتظون بالعروض التعليمية حتى الأكثر صمتاً منها أو الأقل تسليحاً بالمعاجم الوجيهة.

مسكونون بتقديم أنفسكم للعالم.. مفعمون بالأدب.. إجمالاً.

أرجوكم واحداً واحداً أن تصدقونى.



ما أشد ما يتمتع به زهو التدخلات النفسية
بذوى النيات الأفضل. فصل الصف الأول. جوسلين
غارقة فى دموعها.. لم يمكن للدرس أن يبدأ. ليس
هناك شيء أكثر حُزناً من الحزن لعمل ستار على
العِلْم. الضحك.. يمكن أن نطفئه بنظرة عين.. لكن
الدموع...

– ألدى أحدكم قصة مضحكة يحفظها؟

لابد من أن نُضحك جوسلين كي نتمكن من بدء
الدرس. نَقَبُوا فى أدمغتهم. قصة مضحكة جداً.
ميزانية.. ثلاث دقائق.. لا أكثر.. إذ ينتظرنا
مونتسكيو.

فجأة تتدفق القصة المضحكة. فى الواقع
مضحكة.

يمزح الجميع بما فيهم جوسلين التى أدعوها
لتأتى إلى فى الفسحة.. إن كانت فى حاجة لهذا.

– من الآن فصاعداً.. لن تنشغلى سوى
بمونتسكيو. مسلٍ تعرض جوسلين تعاستها. لم يعد
والداها يتفاهمان. يتشاجران من بدء الصباح حتى

المساء.. يتلفظان بألفاظ نائية تحولت الحياة فى المنزل
إلى جحيم.. الموقف مؤثر.

حسناً.. قلتها لنفسى.. أيضاً عدداً من الأساس
كرساً عشرين عاماً ليُغمى عليهما وهما فى حالة
تجانس.. ثمّة طلاق يُعنّ فى الأفق چوسلين.. التى
كانت من التلاميذ الفائقين.. تدهور مستواها فى كل
المواد الدراسية.. وهأنا أسير متعرجاً داخل حزنها.. من
الأفضل.. أقولها بحذر.. ربما الطلاق.. تعرفين يا
وسلين.. أخيراً.

مُطلّقان هادئان يمكن أن تحتمليهما عن زوجين
عنيدين فى طريقهما إلى الانتحار.
إلخ.

من جديد تزرف چوسلين الدموع بغزارة:
بالضبط يا سيدى.. كانا قد قررا أن يُطلّقا
لكنهما عدلا مؤخراً عن هذا القرار!.

آه!

حسناً.

حسناً.. حسناً.. حسناً.

جيد.

دائماً ما يكون هذا أكثر تعقيداً درجة ألا يصدقه
عالم نفس مبتدئ.

— ...

— ...

— أتعرفين ميسى فارانج؟

- كلا.. من هي؟

- إنها ابنة فارانج من زوجته التي نسيت اسمها.
مُطلَّقان شهيران في عصرها كانت مِيزى صغيرة وقت
انفصال أبويها.. لكنها لم تُفوت شيئاً منهما.

عليك أن تمارسى معرفتكِ. إنها رواية.
لأمريكى هنرى جيمس. ما كانت تعرفه مِيزى. ومع
ذلك فهي رواية معقدة.. التي قرأتها جوسلين خلال
الأسابيع التالية.. مُثارةً حتى بأرض المعركة الزوجية
(إنهما يتأرجحان بين الحجج نفسها كأبوى
مِيزى(*).. يا سيدى!).

إيه.. أجل.. كى تكون داميةً بدم حقيقى.. حرب
الأزواج وحزن الأطفال ليسا أقل أدياً منها.
يقال هذا.. حين يهب مونتسكيو حضوره
لفصلنا.. لا بد أن نكون حاضرين فى مونتسكيو.

(*) اسم الرواية التى كتبها الروائى الأمريكى هنرى جيمس.
(المترجم).

حضورهم فى الفصل... ليس مُريحاً بالنسبة إلى هؤلاء الفتيان أو هؤلاء الفتيات أن يُزودوا بخمس وخمسين دقيقة من التركيز فى خمسة أو ستة دروس متتالية.. حسب هذا العمل الأكثر فردية من أن تجعل المدرسة منه وقتاً. يا له من عمل صعب.. عمل الوقت!.

توزيع الفصول.. المواد الدراسية.. الساعات.. التلاميذ.. تبعاً لرقم القاعات.. لتكوين أنصاف مجموعات.. لرقم المواد الدراسية النظرية.. لشغور المعامل.. للمطالب المتعارضة لمدرس هذا أو مُدرس ذلك...

صحيح أنه اليوم أنقذتُ رأس المدير بجهاز الكمبيوتر الذى يعهد إليه بثوابته:

(معذرة.. بشأن ظهيرة الأربعاء.. سيدتى مدام أونتل.. إنه الكمبيوتر).

- خمس وخمسون دقيقة للغة الفرنسية.. أكنتُ أشرح لتلاميذى إنه وقت قصير ببدايته ووسطه ونهايته.. حياة كاملة فى مجملها.

قضية دائمة.. ليتهم يتمكنون من أن يجيبوا
على.. حياة الأدب التي تفتح على حياة الرياضيات..
التي تفتح بدورها على عالم ملء بالتاريخ.. تدفعكم
دونما سبب إلى حياة أخرى.. إنجليزية تلك أو ألمانية
أو كيميائية أو موسيقية.

هذا ما يصنع منهم نسخاً عديدة فى نهار وحيد!
ودون أدنى منطق!.

إنها أليس فى بلاد العجائب.. وظيفة الوقت
الخاصة بكم: نحتسى الشاي عند أرنب مارس البرى
ونلتقى دون تمهيد لنلعب الكروكي (١) مع ملكة الفؤاد.
يمر نهار مع (المهزوز) للويس كارول.. المعجز على
الأقل.. وأنتم تتحدثون عن رياضة بدنية!.

وهذا ما يُعطى مسالك لا بد منها فضلاً عن
ذلك.. اختلال مطلق منحوت كحديقة على الطراز
الفرنسى.. أيكة خمس وخمسين دقيقة بواسطة أيكة
خمس وخمسين دقيقة. لا يوجد نادراً إلا نهار محلل
نفسى وسلامى الخنازيرى (٢) كى يُقطع إلى شرائح
متساوية. وهذا.. فى كل أسابيع العام!.

المصادفة بلا المفاجأة.. شئ يتجاوز الحد!.

سيكون مغرياً أن أجيبهم: كفوا عن الاحتجاج.. يا
أعزائى التلاميذ واتخذوا أماكنكم.. مقارنتكم بالمحلل
النفسى ليست سيئة من جهة أخرى. يقضى كل الأيام

(١) لعبة بالكرات الخشبية. (المترجم).

(٢) وعاء من المسجق. (المترجم).

داخل غرفته المنعزلة.. المسكين ليرى تتابع تعاسة
الناس. ونحن فى فصولنا لنرى تجاهله.. عبر
مجموعات من خمسة وثلاثين وفى وقت محدد.
حياتنا كاملة.. التى - إدراك حسى لوغاريتى أو لا -
أكثر طولاً من مرحلة شبابكم المختصرة.. سترون..
سترون...

لكن كلا.. لا أطلب من تلميذ أبداً أن يضع نفسه
مكان المدرس.. إغراء الاستهزاء قوى جداً. ولا أعرض
عليه أن يقيس وقته بوقتنا: وقتنا ليس حقيقة وقته..
نحن لا نتطور فى الوقت نفسه. أما من جهة التحدث
معه عنا أو عنه هو.. فلا نقاش: خارج الموضوع نحن
نتشبت بما قررناه: ساعة النحو هذه لابد وأن تكون
فُقاعة فى الوقت. يرتكز عملى على الأسلوب بحيث
أن تلاميذى يشعرون بأنهم يعيشون نحويًا أثناء هذه
الخمسة وخمسين دقيقة. كى نُوفق فى هذا.. لا يغرب
عن بالنا أن الأوقات لا تتشابه: أوقات الصباح ليست
هى أوقات بعد الظهر.. أوقات الاستيقاظ.. الأوقات
الهاضمة.. تلك التى تسبق أوقات الفُصح.. الأوقات
التي تتلوها.. كلها مختلفة والوقت الذى يتلو درس
الرياضيات لا يقدم نفسه كالوقت الذى يأتى عقب
درس الرياضة البدنية...

هذه الاختلافات نادراً ما يكون لها تأثير على
التلاميذ جيدي المستوى. هؤلاء أنفسهم يتمتعون
بكفاءة محمودة: يُغيرون الجلد بدراية.. فى اللحظة
المناسبة وفى المكان المناسب. يغيرون من المراقبة

المضطربة إلى التلميذ المُصنّف.. من المُفرَم المطرود إلى طالب الرياضيات المنطوى.. من محب اللعب إلى تلميذ مجتهد.. من هناك إلى هنا.. من الماضى إلى الحاضر.. من الرياضيات إلى الأدب...

هذه هى سرعتهم فى التَّجَسُّدِ التى تُميز التلاميذ جيدي المستوى عن ذوى المشكلات.

هؤلاء الذين كأقاربهم يلومون مدرسيهم.. هم غالباً فى مكان آخر. يتحررون بصعوبة بالغة من الوقت السابق.. يتسكعون فى ذكرى أو ينفذون فى تمنى أى شىء آخر. مقعدهم هو الوسيلة التى تقوم بشحنهم إلى خارج الفصل حيث يستقرون هناك.. إلا إذا ناموا فيه.

إن أريد أن أنتظر حضورهم الذهنى التام فعلى أن أساعدهم فى الاستقرار فى الدرس. تُرى ما هى وسيلة الوصول إلى هذا؟

هذا ما يُعرف خصوصاً على أرض الميدان على مر الأيام. يقينى الوحيد.. أن حضور تلاميذى يخضع بدقة لحضورى:

لحضورى فى الفصل كاملاً وفى كل فرد على حدة.. لحضورى فى مادتى أيضاً.. لحضورى الجسمانى.. الفكرى والذهنى.. أثناء الخمس وخمسين دقيقة التى يستغرقها درسى.

-٦-

يا لها من ذكرى مُضنية.. ذكرى دروسى التى لم
أكن موجوداً فيها..

كأنى أشعر أننى أجعل تلاميذى يعومون.. فى
تلك الأيام.. بهدوءٍ أنحرف بينما كنتُ أحاول أن
أستجمع قواى مرةً أخرى. هذا الإحساس بفقدان
فصلى.. لستُ فى الفصل.. ولم يعودوا هم فيه..
انفصلنا ومع ذلك يمر الوقت. ألعب دور من يقوم
بالتدريس وهم يؤدون دور من يُصغى. جاد جداً
مظهرنا العام.. ثرثرة من جانب وأسلوب ردىء من
جانب آخر.. مُفتش ربما قد يُعجب بهم شريطة أن
يكون الدكانُ مفتوحاً.. لكنى لستُ داخله.. أنا
لستُ هناك فيه.. اليوم أنا فى مكان آخر. ما قلته لا
يتجسد.. هم يسخرون بولع مما يسمعون. ما من
أسئلة وما من إجابات. أنعطف وراء الدرس
الجدير بأستاذ. الطاقة المُفرطة التى أبددها آنئذ من
أجل أن أجعلنى أمسك بشبكة المعرفة المثيرة للسخرية
هذه..

أنا بعيد جداً عن فولتير (١) .. عن روسو (٢) .. عن ديديرو (٣) .. عن هذا الفصل .. عن هذه المدرسة .. عن هذا الموقف .. أتعب في تقليص المسافة لكن ما من وسيلة .. كذلك أنا أبعد عن مادتي الدراسية من فصلى .. أنا لست مدرساً .. أنا حارس المتحف .. أقود زيارة إجبارية بشكل آلى ..

كانت هذه الأوقات المُحِبَّة لا تفارقنى وأنا مرتخ على ركبتي .. كنت أخرج من فصلى مُنهكاً وحانقاً .. كان تلاميذى على وشك أن يروحوا ضحية اندفاع طوال النهار .. لأنه لا يوجد أسرع توبيخاً لكم إلا مدرس مُستاء من نفسه هو شخصياً ..

انتبهوا أيها الصغار .. لامسوا الجدران .. مُدرسكم أعطى نفسه درجة سيئة .. المسئول الأول قادم ليقيم العقبات ! ..

(١) فولتير .. فرانسوا مارى أرويه (١٦٩٤ - ١٧٧٨م) المعروف بـ «فولتير» كاتب فرنسى عاش فى عصر التنوير، وهو فيلسوف ذاع صيته بسبب سخريته الفلسفية ودفاعه عن الحريات المدنية خاصة حرية العقيدة، كتب فى كل الأشكال الأدبية وهو من رواد عصر التنوير الذين كانت لهم بصمات على مفكرى وثوار الثورة الأمريكية والفرنسية.

(٢) روسو .. جان چاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨م) فيلسوف سويسرى، أهم كاتب فى عصر العقل وهو فترة من التاريخ الأوروبى، امتدت منذ أواخر القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلاديين، ساعدت فلسفة روسو فى تشكيل الأحداث السياسية التى أدت إلى قيام الثورة الفرنسية وأثرت أعماله فى التعليم والأدب والسياسة.

(٣) ديديرو: دنيس ديديرو (١٧١٣ - ١٧٨٤م) فيلسوف وكاتب فرنسى برز بإشرافه على إصدار «موسوعة الفنون والعلوم والحرف» وتحرير العديد من فصوله، من قادة التنوير، وكان رئيس أول موسوعة حديثة «إنسكلوبيديا» ..

دون أن أتحدث عن أخطاء موضوعاتكم.. هذا
المساء فى المنزل. مجال لا يكون فيه التعب والإحساس
بالخطأ ناصحين!.

لكن كلا.. ما من موضوعات هذا المساء.. ما من
تلفزيون .. ما من خروج.. بل هناك نوم!.

ميزة المُدرس الأولى.. هى النوم. المدرس الجيد
هو الذى يذهب إلى فراشه مبكراً.

ما يُمكن أن يُدرك فى التو.. هو حضور المدرس الذى يستوطن فصله تماماً.. الحضور الذى يحسه التلاميذ منذ اللحظة الأولى فى العام الدراسى.. نتدرب عليه جميعاً: لتوّه دخل المدرس.. هو حتماً هناك.. تجلّى هذا فى طريقته فى النظر إلى تلاميذه وتحيته لهم.. فى طريقة جلوسه.. فى إقامته فى المكتب.. لم يتبدد بالخوف من فسحهم.. لم ينطو على نفسه.. كلا.. هو فى شأنه.. من البداية.. حاضراً.. يتبين كل الوجوه.. يبقى الفصل أمام عينيه فوراً.

هذا الحضور.. جريته مرة أخرى.. يوجد قليلاً.. فى بلانك.. مسنّى حيثما دعيتى شابة زميلة كانت قد غمست تلاميذها فى واحدة من رواياتى.. يا له من صباح ذاك الذى قضيته هناك!.

مُطّراً بوابلٍ من أسئلة القراء، الذين كان يبدو أنهم يعرفون مُحْتوى كتابى أفضل منى.. صداقة الشخصيات الحميمة.. الذين تحمسوا لعدد من الفقرات وسخروا بتعليق عاداتى فى الكتابة بدبوس.. كنتُ آمل فى أن أجيب بحكمة على عدد من أسئلتهم

المكتوبة تحت إشراف عين مدرس غائرة بخفة
ومهمومة بأمر الفصل الوحيد.. مثل هذا ما كان
يصلنى فى أحياء كثيرة بحيث إننى كنتُ أحتل دوامةً
مناظرةً أدبية حيث كان التلاميذ يوجهون بقوة لى
قليلاً من الأسئلة التى أتفق عليها. حين كان الحماس
يرفع أصواتهم إلى مستوى أعلى من الديسيبل(*)
المحتمل كانت تسألنى بنفسها.. مجموعتان لا شأن
لهما أما الفصل بكامله فيصطف فى هذا الصف
اللحنى.

فيما بعد.. داخل المقهى الذى نتناول فيه طعام
الغداء سألتها كيف تُخضع لها هذا القدر من الطاقة
الحيوية.

راوغت بدايةً:

— لا أتحدث قط بصوت أعلى منهم.. إنها المهارة.
لكنى أردتُ أن أزداد معرفةً عن سيطرتها التى
تمارسها على هؤلاء التلاميذ.. عن سعادتهم الواضحة
بكونهم هناك.. عن التلاؤم بين أسئلتهم.. عن رزانة
إنصاتهم.. عن تدقيق حميتهم.. عن سلطانهم على
أنفسهم حين لا يتفقون فيما بينهم.. عن قدرة وبشاشة
الجميع.. باختصار كل ما كان يختلف كثيراً مع التصور
المرعب الذى كانت تبثه وسائل الإعلام عن هذه
الفصول الفارقة فى الرسوب.

جمعتُ معظم أسئلتى.. فكرتُ قليلاً. وأجابت:

(*) وحدة قياس شدة الصوت . (المترجم).

– حين أكون معهم أو أكون فى موضوعاتهم لا أكون فى بقعة أخرى على الإطلاق. بقعتها الأخرى بالنظر إلى ذلك هى عزفٌ رباعى على أوتار تتطلب شدتها المطلق الذى تحتاج إليه الموسيقى. ومع ذلك.. كانت ترى ألفةً بين فصل وبين أوركسترا.

– كل تلميذ يعزف على آله.. لا حاجة للذهاب إلى النقيض. اللذيذ هو معرفة موسيقيينا معرفة جيدة وإيجاد الانسجام . فصل جيد.. ليس هذا هو الفيلق الذى يمشى الهوينى.. إنها أوركسترا تعزف السيمفونية نفسها ولو كنتم تلقيتم مثلثاً صغيراً لا يعزف إلا عزف تنج تنج.. أو قيثارة رديئة لا تُصدر سوى بلونج بلونج.. المهم أن يعزفوا هذا فى اللحظة المناسبة.. أن ينتجوا أفضل ما يتاح.. أن يصبحوا مثلثاً^(١) ممتازاً.. قيثارة لا عيب فيها.. أن يكونوا فخورين بالميزة التى تضيفها مشاركتهم على الجميع. كما يجعلهم التناغم يتحسنون جميعاً.. ينتهى الحال بالمثلث الصغير أيضاً بمعرفة الموسيقى.. ربما ليس بتفوق مثل الكمان لكنه سيُلمُّ بالموسيقى نفسها.

اشمأزتُ اشمئزازاً جبرياً:

– العضلة.. هى أننا نريد أن نجعلهم يعتقدون فى عالم حيث يُحصون بمفردهم آلات الكمان الأولى.

– بعض الرفاق سيُعتبرون أنفسهم من يقاوم بشكل سيئ قيادة جوقة موسيقية بلدية^(٢).

(١) آلة من آلات النقر الموسيقية. (المترجم).

(٢) نسبة إلى البلديات أو كما نسميها هنا المحليات. (المترجم).

يحلّمون جميعاً بموسيقى برلين.. من الممكن أن
نتفاهم على هذا...

ثم.. وبما أنني أعدتُ على مسامعها إعجابي..
وهي تغادرنا ردت:

– يجب أن نقول إنك جئتَ وعقارب الساعة تعلن
العاشرة . وكانوا ليتوهم مستيقظين.

ثمة نداء صباحي. أن تسمع اسمك منطوقاً بصوت مدرس إذاً هو معاون الاستيقاظ. الصوت الذي ينادى باسمك في الساعة الثامنة صباحاً يمتلك تموجات معيارية النغم (*).

— أنا لا أستطيع أن أعزم على إهمال النداءات..
بخاصة النداءات الصباحية. يشرح لي مدرس آخر.
مدرس رياضيات ذات مرة.. .. كأنني في حالة عجلة.
احفظ قائمة الأسماء كأننا نُحصى خرفاناً. ليس هذا
ممكناً. أناذى شُجعاني وأنا أنظر إليهم.. .. أستقبلهم..
أسميهم واحداً واحداً.. .. أصفى إلى ردهم على كل
حال.. النداء هو اللحظة الوحيدة في النهار حيث تتاح
الفرصة للمدرس في أن يتوجه إلى كل واحد من
تلاميذه. لن يكون هذا سوى النطق باسمه. برهة
خاطفة يجب فيها أن يشعر التلميذ بوجوده أمام
عيني.. .. بنفسه وليس شخصاً آخر. أما من جهتي..
فأحاول بمقدار ما هو ممكن أن أمسك بمزاجه
الحالي في نبرة الصوت التي تُحدثها كلمة (حاضر).

(*) آلة فولاذية صغيرة على شكل شوكة تعطي نغم (لا) حين تُهز (المترجم).

فإن كان صوته مشقوقاً فيجب - على سبيل الاحتمال -
أن أقيم له وزناً.

أهمية النداء....

كنا نلعب لعبة صغيرة.. تلاميذى وأنا. كنتُ
أناديهم.. فكانوا يردون.. كنتُ أكرر (حاضر) همّ
همساً لكن على إيقاع النبرة نفسها كصدى قادم من
بعيد:

- مانيل؟

- حاضر!

- (حاضر) لياتيتي؟

- (حاضرة)!. -

- (حاضرة) فيكتور؟

- حاضر!

- (حاضر) كارول؟

- حاضرة!.

- (حاضرة) ريمي؟

كنتُ أقلّد (حاضر) مانيل المعتدلة.. (حاضر)
لياتيتي النقية.. (حاضر) فيكتور القوية.. (حاضر)
كارول الشفافة .. كنتُ صدى صوتهم الصباحي.

بعضهم يدأب على استرداد صوته الأكثر
صلادة.. بعضهم الآخر يتسلى بتغيير النبرة كي
يدهشنى.. أو كانوا يردون: (نعم).. أو (أنا هنا).. أو
(إنه حقاً أنا). كنتُ أردد الرد بكل خفوت أياً ما كان..
دون أن أبدى دهشتي. إنها لحظة تواطؤنا.

التحية الصباحية لفريق ذهب ليباشر العمل.
صديقى بيير.. هو نفسه.. يعمل مدرساً فى إيقرى..
لا ينادى أبداً.

- أخيراً.. مرتان أو ثلاث مرات فى بداية العام..
وقت معرفة أسمائهم ووجوههم. بقدر ما ينتقل فى
الحال إلى أشياء جادة.

تلاميذه ينتظرون فى طوابير فى الممشى أمام
باب الفصل. فى كل مكان آخر فى المدرسة.. ثمة من
يجرون.. من يتقاذفون الشتائم.. من يقلبون المقاعد
والطاولات.. من يجتاحون الفناء.. من يُشبعون
الصوت الجهورى.. بيير بنفسه ينتظر الطوابير أن
تتكون ثم يفتح الباب.. يشاهد فتياناً وفتيات يدخلون
واحداً واحداً يتبادلون من هنا وهناك تحية الصباح
التي تصدر منه.. يعيد غلق الباب.. يتوجه إلى مكتبه
بخطوات متزنة. التلاميذ ينتظرون.. منتصبين وراء
مقاعدهم. يرجوهم أن يجلسوا. ويبدأ: (حسناً. كريم
فيما كنا؟)

درسه هناك محادثة تُسترجع حيثما تتوقف.
فى وقاره الذى يضعه على مهمته.. فى ثقته
العطوفة التى حملها له تلاميذه.. فى وفائهم يصبحون
بالفين.. أرى دائماً صديقى بيير كإعادة تجسيد للعم
چول.

- الواقع.. أنت العم چول مؤلف قال - دو - مارن!
ضحكته الرائعة تدوى فى الفراغ:

معك حق.. رفاقي يعتبروننى مدرس من القرن
التاسع عشر!.

يعتقدون أنتى أجمع علامات الاحترام الظاهرى..
أن الوضع فى طوابير..الصبيان واقضون وراء
مقاعدهم. هذا نوع من المهارات.. يتعلق بالحنين إلى
قديم الأزمان.

لاحظ.. هذا لا يؤلم أحداً قط.. قليل من
الأدب..(*) لكن والحالة هذه يعنى شيئاً آخر:

وتلاميذى يستقرون فى الصمت أمنحهم الوقت
ليهيبطوا داخل درسى ليبدعوا بالهدوء.

من جانبى.. أفحص رعوسهم.. أدون الغائبين..
ألاحظ المجموعات التى تتكون وتنفك.. باختصار..
أقيس درجة حرارة الفصل الصباحية.

فى اللحظات الأخيرة لفترة الظهيرة يقع تلاميذى
تعباً.. بيير وأنا كنا نمارس المراسم نفسها. كنا نطلب
منهم الإصغاء إلى المدينة (إيثرى بالنسبة إليه..
بالنسبة إلى بارس). كانت تتبعان ذلك دقيقتان من
السكون والسكوت حيثما ضجة الخارج تؤكد هدوء
الداخل. فى تلك اللحظات كنا ندرس بصوت خفيض..
كنا غالباً ما ننهاها بقراءةٍ ما.

(*) الأدب هنا هو الصفة الأخلاقية وليس سواء (المترجم).

أُوصِمَ جيلٌ بحماقاتٍ نتيجةً لطقوس تُعتبر
كعلامةٍ للطاعة العمياء.. التكوين التخمينى المُهين..
الإملاء الرجعية.. الحساب العقلى المُرهِق.. الحفظ
الطفولى للنصوص.. هذا نوع من البلاغ الرسمى...

إنه تأثر بعلم التربية.. بل مع ذلك بمجرد أن
نكفَّ عن التفكير فى حالات ذات خصوصية (والأمر
هكذا.. فى هذا المجال.. كل الحالات ذات
خصوصية).. نبحت.. كى نُنظم تصرفاتنا.. عن ظلٍّ
لمذهب جيد.. عن رعاية السلطة المُكَمَّلة.. عن كفالة
المرسوم.. عن التوقيع الإيديولوجى على بياض.

ثم.. نقيم معسكراً على يقين لا يزعزعه شىء..
ولا حتى التكذيب اليومى للواقع. ثلاثون عاماً فيما
بعد فقط.. لو أن التربية المحلية بالكامل غيَّرت
مسارها كى تتحاشى جبل الكوارث المتراكمة
الجليدى.. فإننا سنستند على منعطف داخلى
خجول.. لكنه منعطف باخرة بعينه.. وها نحن باتجاه
رأس مذهب جديد تحت إدارة قيادة جديدة باسم
حرية الاختيار بطبيعة الحال.. تلاميذ قدماء
سرمديون كنا هم.

رجعيةٌ هي الإملاء؟ هي مهْما حدث عديمة
التأثير.. لو كانت تُمارس بواسطة عقل كسول يَرْضَى
بطرح النقاط بقصد رسم مستوى!.

التدوين مُهين؟ بالتأكيد.. حين تُشبه هذه
الاحتفالية التي شُوهدت منذ قليل في التليفزيون
لُمدرس يرد لتلاميذه كراساتهم.. كل واجب مُهمَل أمام
كل مذنب كحُكم مُعلَن.. وجه المدرس يشع جنوناً
وتعليقاته تَننُرُهُؤلاء الجيدين في لا شيء للتجاهل
البات والبطالة الأبدية.

يا إلهى.. يا له من صمتٍ حقود.. صمت هذا
الفصل!.

يا له من تبادلٍ ازدراءٍ جلى!.

دائماً ما كنتُ أتصور الإملاء كموعِد تام مع
 اللغة. اللغة مثلما تُدَوَّى.. مثلما تُكتب.. مثلما تُبنى..
 الإدراك مثلما يُوضَّح بتدريب تصحيح دقيق لأبعد حد..
 لأنه لم يكن يوجد هدف آخر لتصحيح الإملاء سوى
 المدخل لإدراك النص الصائب.. إدراك روح النحو..
 إدراك مدى الكلمات. لو كان على الدرجة أن تقيس
 شيئاً ما فإنها المسافة التي تُجتاز بواسطة منتفع على
 طريق هذا الفهم. هنا كما في تحليل أدبي.. المقصود
 عبور غرابة النص (أية قصة ستحكيها لي؟).. إلى
 وضوح المعنى (ماذا يعنى كل هذا بالضبط؟).. ماراً
 بشغف العمل (كيف يسير هذا؟). ما أشد رعبى وأنا
 طفل من الاقتراب من الإملاء - الله وحده يعلم أن
 مُدرّسى كانوا يمارسون الإملاء كغزو الأثرياء لحي
 فقيراً. كنتُ دائماً أُجرب حبّ الاطلاع على قراءتها
 الأولى. كل إملاء تبدأ بلفز: ماذا ستقرأ لى هنا؟

بعض موضوعات إملاء طفولتى كانت أجمل من
 أن تُواصل نوبانها داخل كملبس (*) قليل الحموضة.
 (*) نوع من الحلوى. (المترجم).

لوقت طويل بعد الدرجة المُشينة التى كلفتى إياها بعد ذلك. لكن.. هذا الصُّفْر فى الإملاء أو هذا أقل من ١٥ أو أقل من ١٢٧.. لقد صنعتُ من هذا مأوى لم يستطع أحد أن يطردنى منه. غير مجدٍ إنهاكى فى تصحيحٍ ما دامت النتيجة معروفة مُقدِّماً لى!

كم مرة وأنا طفل أثبتُ لُمُرسى ما كان تلاميذى يكررونه لى بدورهم فى أحيائين كثيرة:
- مهما يكن من شىء سأحصل على صفر فى الإملاء!.

- آه حسناً.. يا نيكولا؟ ما الذى جعلك تعتقد هذا؟
- كنتُ دائماً ما أحصل على صفر!.
- أنا أيضاً يا سيدى!.
- وأنت أيضاً يا فيرونيك؟
- وأنا أيضاً أنا أيضاً!
- إنه وباءٌ.. إذا!.

ارفعوا أصابعكم يا مَنْ كنتم تحصلون على صفر دائماً فى الإملاء.

كانت هذه المحادثة فى بداية العام الدراسى.. أثناء تواصلى مع تلاميذ الصف الرابع على سبيل المثال. لقد فُتحت المحادثة بمنهجية على الإملاء الأولى من سلسلة طويلة:

موافق.. سنرى جيداً. خذوا ورقة.. اكتبوا إملاء.
- أوه.. لا يا سيبىبيبيدي!.
- هذا ما لا يُتفاوَض فيه. إملاء. اكتبوا:

يدّعى نيكولا أنه سيحصل دائماً على صفر في
الإملاء.. يدّعى نيكولا...

إملاء لم يُحضّر لها.. كنتُ أرتجلها في الحال..
صديّ لحظيّ لا اعترفهم بعدم الكفاءة:

يدّعى نيكولا أنه سيحصل على صفر دائماً في
الإملاء لسبب وحيد هو أنه لم يحصل قط على درجة
أخرى. فرديريك.. سامي و فيرونيك يشاركونه في
الرأي. الصفر الذي يلاحقهم منذ إملائهم الأولى
يقبض عليهم ويبتلعهم. مُصغياً إليهم.. كل منهم يسكن
في صِفْر لن يستطيع الخروج منه. لا يعرفون أن
المفتاح لديهم في جيوبهم.

فيما كنتُ أرتجل النصّ مُوزعاً منه على كل منهم
دوراً صغيراً.. على سبيل إنعاش فضولهم.. كنتُ أنتبه
لحساباتي النحوية: اسم مفعول مُصَرَّف مع فعل
(Avoir) (١).

مفعول شيء مباشر (٢) موضوع في الورا..
مضارع مفرد مسبق بضمير مفعول جَمْع وضمير
وصل للمضارع.. اسماً مفعولين آخرين مع فعل
(Avoir)

مفعول شيء مباشر موضوع في الأمام.. مصدر
فعل مسبق بضمير مفعول.. إلخ.

(١) هناك أزمة في اللغة الفرنسية تحتاج في تكوينها لفعل مساعد
وأشهر هذه الأفعال فعلاً هما: فعل (Avoir / يملك)
وفعل (être / يكون). (المترجم).

(٢) هناك مفعولان في اللغة الفرنسية: مفعول مباشر ومفعول غير
مباشر وهو الذي يسبقه أحد حروف الجر. (المترجم).

أنجزتُ الإملاء.. كنا قد شرعنا في تصحيحها
في التو.

. حسناً.. يا نيكولا.. اقرأ علينا الجملة الأولى.
. يدعى نيكولا أنه سيحصل دائماً على صفر في
الإملاء.

. أهذه هي الجملة الأولى؟ أهذه نهايتها.. أنت
متأكد؟

....

- اقرأ.. بانتباه.
- آه.. لا.. لسبب أنه لم يحصل قط على درجة
أخرى.

- جيد. ما أول فعل مُصرّف؟

- يدعى./pretend.

- أجل ومصدره؟

Pretendre..

- وإلى أي مجموعة(*) ينتمي؟

- يا للعجب...

- الثالثة. سأشرح لك ذلك بعد قليل وما هو
زمنه؟

- مضارع.

- وفاعله؟

(*) تنقسم الأفعال في اللغة الفرنسية إلى ثلاث مجموعات:
أولى. ثانية. ثالثة.. وفقاً لحروفها الأخيرة. (المترجم).

- أنا. أخيراً.. يا نيكولا .

- الضمير الشخصي؟

- الضمير الشخصي الثالث للمفرد (١) .

- الضمير الشخصي الثالث لفعل Preten-

(dre) في المضارع.. نعم.

. انتبه للنهايات (٢).

بالنسبة إليك يا فيرونيك.. ما الفعل الثانى فى

هذه الجملة؟

- a! (٣)

- a? فعل (avoir / يملك)؟ أنت متأكدة منه؟

أعيدى القراءة.

....

....

. لا معذرة.. يا سيدى.. إنه (a obtenu / (٤)

حصل على).

إنه فعل (obtenir (٥) يحصل على)

. فى أى زمن؟

(١) الضمائر الشخصية فى اللغة الفرنسية هى (أنا..

أنت.. هو/هى.. نحن.. أنتم/أنتن../هن). (المترجم).

(٢) النهايات هنا هى حروف تضاف للفعل بفرض تصريفه حسب

فاعله وزمنه . (المترجم).

(٣) تصريف فعل (avoir) فى زمن المضارع مع الضمير الثالث

(هو). (المترجم).

(٤) هنا الفعل مصرف فى زمن الماضى المركب. (المترجم).

(٥) لفعل هنا فى حالة المصدر. (المترجم).

تصحیح یسترد الجميع من أصفارهم.. بحيث
تؤكد الرحيل من هناك. فى الصف الرابع؟ إيه.. أجل!
الكل يُسترد من الصف فى الصف الرابع! حتى
فى الصف الثالث لم يكن أبداً الوقت متأخراً للرحيل
من الصف.. مهما تُفكر فى ضرورات النحو!.

ورغم ذلك لن أصدق نقص القواعد المستمر.. لن
أدس بمنهجية البطاطا الساخنة للرفيق القادم!
هيا.. سنرحل ثانيةً من الصف: كل فعل تمَّ
فحصه.. كل اسم.. كل صفة.. كل رابط.. خطوة
خطوة.. إنها اللغة التى لديهم مهمة إعادة بنائها فى
كل إملاء.. كلمة كلمة.. مجموعة مجموعة..

رازون (١).. اسم عَلم.. مفرد مؤنث.

- مُحدّد؟

- لا (٢)!

- ما هى كمحدّد؟

- علامة!.

- ما نوع العلامة؟

- علامة تعريف!.

- الكلمة رازون صفة نعتية؟ توضع أمامها؟

أم خلفها (٢)؟ بعيداً؟ أم قريباً؟

(١) Raison.. وهى تعنى عقلاً أو سبباً أو حقاً.. (المترجم).

(٢) لا هنا تعنى (la) وهى أداة التعريف الخاصة بالاسم المفرد المؤنث
فى اللغة الفرنسية. (المترجم).

(٣) معنى الصفة فى اللغة الفرنسية يتوقف أحياناً على مكانها قبل
أو بعد موصوفها. (المترجم).

- أمامها .. نعم: صفة وحيدة. خلفها .. لا صفة.
ما من صفة خلفها. تحديداً صفة وحيدة.
- أكمل التبعية (*) إن كنتَ قد نسيتَ أن تكتبها.

موضوعات الإملاء اليومية هذه كانت تقدم في
الأسابيع الأولى في هيئة قصص مُختصرة حيثما كنا
نكتب مذكرات الفصل لم تكن مُعدة .. من نقطتها
النهائية كانت تفتح على تصحيح فوري .. مليمتري
وجماعي.

ثم كان يأتي تصحيح المدرس السري .. تصحيحى
أنا .. فى منزلى .. وإعادة الكراسات فى اليوم التالى ..
الدرجة .. الدرجة المشهورة .. على سبيل رؤية الهيئة
التي يكون عليها نيكولا وهو خارج من صفه للمرة
الأولى وجه نيكولا .. فيرونيك أو سامى يوم أن كانوا
يكسرون قشرة البيضنة الإملائية.

متحررون من القضاء والقدر! أخيراً! أوه .. تفريخ
ظريف!

من إملاء لإملاء كان تمثّل استدالات النحو يَعْتَقُ
آليات كانت تُعيد عمليات التصحيح سريعة أكثر
فأكثر. كانت بطولات القاموس تقوم بالباقي. كان هذا
هو جزء التدريب الأوليمبى. نوع من الفسحة
الرياضية. كان هذا يعنى: ساعة توقيت فى اليد
للوصل بأقصى سرعة ممكنة للكلمة المراد البحث

(*) التبعية: هى حروف (e/s/es) التى تُضاف إلى اسم المفعول فى
زمن الماضى المركب حسب كون الفاعل مفرداً مؤنثاً أو جمعاً
مذكراً أو جمعاً مؤنثاً. (المترجم).

عنها.. لاستخراجها من القاموس.. لتصحيحها..
لغرضها ثانية فى كراسة الفصل الجماعية وفى دفتر
صغير فردى.. وللمرور إلى كلمة أخرى.. كانت سلطة
القاموس دائماً فى عداد أولوياتى وكوّنت رياضيين
استثنائيين على أرض الملعب رياضيون عمرهم اثنا
عشر عاماً كانوا ينقضون من أجلكم على الكلمة المراد
البحث عنها فى ضربتين أو ثلاث على أقصى تقدير!.

إدراك الصلة بين الترتيب الأبجدي وبين سُمك
القاموس هو ذاك المجال حيثما كان عدد من تلاميذى
يهزموننى شرهزيمة! (بقدر ما كنا فيه كنا نطرح أرضاً
دراسة أساليب الترتيب فى مكتبات البيع ومكتبات
الاطلاع باحثين فيها عن المؤلفين.. عن عناوين
وناشري الروايات التى كنا قد قرأناها فى الفصل أو
التى كنتُ أحكيها لهم. لقد كنا نتحدى أنفسنا فيمن
يصل إلى العنوان الذى اختاره أولاً!.

أحياناً كان أمين المكتبة يفتح الكتاب للفائز).

هكذا كان حال موضوعاتنا فى الإملاء اليومية
حتى اليوم الذى أوصيتُ فيه واحداً من تلاميذى
القدامى عديمى الكفاءة بالإملاء التالية:

— من فضلك يا سامى اكتب لنا إملاء الغد نصٌّ
من ستة أسطر يحتوى على فعلين ضميريين(*).. اسم
مفعول يأخذ الفعل المساعد (avoir) مصدر لفعل من
أفعال المجموعة الأولى.. صفة إشارة.. صفة ملكية..

(*) الفعل الضميرى فى اللغة الفرنسية هو الفعل الذى لا يحتاج إلى
مفعول إذ إن فاعله هو نفسه مفعوله. (المترجم).

كلمتين صعبتين أو ثلاث رأيناها معاً ومهارة أو مهارتين حسب اختيارك.

فيرونيك.. سامى .. نيكولا .. كانوا يدركون النصوص بالتناوب.. ويلقنونها لأنفسهم ويقودون تصحيحها. ذاك.. حتى ما يستطيع كل تلميذ فى الفصل عمله بوسائله الخاصة.. يصبح دون أدنى مساعدة فى سكون رأسه.. مُصحَّحه الخاص والمنهجى.

كانت الإخفاقات . كان هناك منها بكل تأكيد . تنهض فى أغلب الأحيان من سبب خارج . دراسى: عسر القراءة والفهم .. صَمَمٌ غير مُلاحظ...

تلميذ الصف الثالث هذا . على سبيل المثال..الذى لم تكن أخطاؤه تشبه شيئاً..التحوّل من [i] أو من [é] إلى [a] من [u] إلى [o] والذى يؤكد أنه لا يسمع الذبذبات الحادة. لم تعتقد أمه لثانية واحدة أن الصبى يمكن أن يكون أصم. حينما كانت تعود من السوق.. ناسية جزءاً من مهماتها.. حين كان يرد على مقربة منها.. حين كان يبدو أنه لم يسمع ما قالت له.. مُبدياً أنه فى قراءة.. فى مُرِيكة (*). أو فى ما كيت لمركب شراعى..كانت تنسب إلى صمتها الشرود الذى كان يؤثر فيها. (كنتُ دائماً ما أعتقد أن ابنى كان حالماً كبيراً.) تَخِيلُهُ أصمَّ كان أعلى من قدرتها كأم. (قياس السمع وفحص دقيق جداً للنظر كانا يجب أن يُعتبرا

(*) رسم كرتونى مبعثر الأجزاء على اللاعب أن يعيد تنظيمها المعروف هنا بـ «البازل» (المترجم).

إجباريين قبل دخول كل طفل إلى المدرسة. كانا قد يتحاشيان الأحكام الخاطئة للمدرسين وقد يخفيان عمى الأسرة وقد يحرران التلاميذ من الآلام العقلية التي يتعذر شرحها.)

ذات مرة.. وكل واحد يخرج من صفه.. كانت موضوعات الإملاء قد أصبحت أقل غزارة وأكثر طولاً.. موضوعات إملاء أسبوعية وأدبية.. موضوعات إملاء وَقَعَهَا هوجو^(١).. فاليري^(٢).. بروس^(٣).. تورنيه^(٤).. كونديرا^(٥).. أكثر جمالاً أحياناً من أن نستظهرها^(٦). كَنَصُ كوين^(٧) هذا المُقْتَبَس من [كتاب أمي]:

(١) هوجو.. «فيكتور هوجو» (١٨٠٢ - ١٨٨٥) شاعر فرنسي، كتب المسرح والرواية والمقالة، وكان فناناً تشكلياً ورجل دولة وناشطاً في الدفاع عن حقوق الإنسان وتصير الحركة الرومانسية في فرنسا يُعتبر من أعظم شعراء الفرنسية ومن أشهر أعماله «البؤساء» و«أحدب نوتردام».

(٢) فاليري «بول فاليري» (١٨٧١ - ١٩٤٥) أحد رموز المدرسة الرمزية في الشعر الفرنسي، أخذت هذه المدرسة تناهض مذهب البرنامج الذي فض التعبير عن الشاعر الفردية وبينما تبني فاليري ومجموعة من الشعراء، هم مالارمييه وبول فيرلين وأرثر رامبو وجان مورياس قصيدة جديدة تعبر عن العالم الخارجي للشاعر وتطلق هي في النفس من رغبات وما في الذهن من أحلام وما في القلب من مشاعر.

(٣) بروس، مارسيل بروس (١٨٧١ - ١٩٢٢) روائي فرنسي وناقد ومترجم وباحث اجتماعي، عاش في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في باريس، صاحب أشهر عمل في الأدب الفرنسي المعاصر «البحث عن الزمان»، وهو مؤلف من سبعة أجزاء نُشرت بين عامي ١٩١٢ و ١٩٢٧م.

(٤) تورنيه كاتب فرنسي شهير.

(٥) كونديرا: ميلان كونديرا (١٩٢١ -) روائي تشيكي، من أشهر الكتاب المعاصرين الآن، من أشهر أعماله.. «الخلود» و«كائن تُحتمل خفته»، «البطء»، «فن الرواية»

(٦) أي نقوم بتسميها عن ظهر قلب (المترجم).

(٧) Cohen المقتبس من كتاب أمي.

لكن لِمَ يكون الرجال أشراراً؟ لِمَ يكونون حقودين
بسرعةٍ جداً وشرسين؟

لِمَ يعشقون الانتقام.. يفتابونكم فى عجلة.. هم
مَن سيموتون قريباً.. المساكين؟

ما المغامرة المرعبة للبشر الذين يصلون إلى هذه
الأرض.. يضحكون.. يتحركون.. ثم فجأة لا يتمكنون
من الحركة.. ولا تعيدهم المغامرة طيبين.. هذا لا
يُصدّق.

ولمَ يجيبونكم بسرعة البرق بصوتٍ كَتُوَّةٍ (*).. إن
كنتم لطفاء معهم.. هؤلاء الذين يجعلونهم يعتقدون
أنكم بلا أهمية.. هذا يعنى بلا خطر؟

هؤلاء الذين يتصرفون بحيث يكون على الحنونين
أن يتظاهروا بكونهم أشراراً من أجل أن يدعّوهم فى
سلام .. أو حتى هؤلاء الذين يكونون مأسويين من
أجل أن نحبهم ولو كنا نذهب إلى الفراش بفضاعة
وننام؟

كلب نائم ليس فى جسده برغوث.. أجل.. هيا
لننام.. ففى النوم محاسن الموت وليس فيه أصغر
مساوئه.. هيا لنستقر فى التابوت المناسب.. مثلما أحب
أن أستطيع أن أنتزع - كسِنَّةٍ - طاقم أسنانه الذى
يضعه داخل كوب ماء على مقربة من سريره.. أحب أن
أنتزع مخى من علبته.. أن أنتزع قلبى الذى يخفق
بشدة.. هذا المسكين البرجوازي الذى يؤدى واجبه
(*) ببغاء بيضاء اللون لديها ملكة التعلم (المترجم).

بشكل جيد.. أنتزع مخي وقلبي وأغمرهما.. هذين
المسكينين المليارديريْن.. داخل محاليل مُنعشة فيما قد
أنام أنا كالطفل الصغيرالذى

لم أعد ولن أكونه أبداً. كما لو كان ثمة بشر
قليلون وفجأة يصير العالم بياباً.

كانت ساعة الزهو قد أقبلت: اليوم الذى هبطتُ
فيه على تلاميذى فى الصف الرابع.. بل فى الصف
السادس بالأبحاث التى كان تلاميذى فى الصف
الثانى أو الأول تعهدوا بتصحيحها إملائياً: المشتركون
فى الصُفْرِ خاصتى الذين تحولوا إلى مصححين!.

طيران النُوريّين(*) الإملائيين يحط على
موضوعاتهم!

- موضوعى.. لم أضف فيه أية تبعية يا سيدى!.

- بحثى.. به جمل لا أحد يعرف أين تبدأ وأين
تنتهى...

حين كنتُ أصحح خطأً.. ماذا كنتُ ألاحظ فى
الهامش؟

- الواقع.. الذى تريده...

احتجاجات مزاحية لأصحاب الحق وهم يطالعون
ملاحظات هؤلاء المصححين عديمى الشفقة:

إطلاقاً.. بل.. شاهدوا ما الذى كتبه فى الهامش:

غيباً! أبله! بطاطا! بالأحمر!

- أكان هذا يقتضى أن تُسسى تبعية...

(*) جمع نوريّ وهو نوع من العصافير. (المترجم).

كانت تنشأ .. داخل صفوف الكبار .. حملة
تصحيح تستعير المنهج التطبيقي بواسطة الصغار:
استجواب أفعال وأسماء قبل أن تقىء بحثها .. تضيف
التبعية الملائمة .. باختصار .. تنكبُّ على ضبط نحوى
له الفضل فى أن يقوم شرود بعض الجمل وبناءً عليه
تخمين بعض البراهين. فى مناسبة كذلك .. كنا
نكتشف .. وكان هذا ما يخلق موضوعَ عدد من
الدروس .. أن النحو هو الأداة الأولى للتفكير المنظم
وأن التحليل المنطقى المعروف (الذى نحفظ منه
بطبيعة الحال بتذكار ممقوت) يلائم حركات تفكيرنا ..
الذى يجد نفسه مشحوداً بحسن تصرف الجملة
التابعة الشهيرة. بل كان يصل الحال إلى أن نقدم
لأنفسنا بين الكبار موضوعَ إملاء صغيراً .. على سبيل
قياس الدور الذى تلعبه التوابع فى تطور برهان يُقاد
بشكل جيد.

ذات يوم ساعدنا فى هذا لا بروير شخصياً.
.. هيا .. تناولوا ورقة. شاهدوا كيف وهو يواجه
التوابع والأصول يعلن لا بروير - فى جملة وحيدة! -
نهاية العالم وبداية عالم جديد.

سأقرأ عليكم النص واليوم سأترجم لكم منه
الكلمات غير المفهومة. اصغوا جيداً. ثم ستكتبون ..
ليس ثمة ما يدعو إلى العجلة .. سأملأ ببطء
ستمسرون خطوة خطوة .. كأنكم كنتم تتمهلون
بأنفسكم!.

فيما يتوانى الكبار فى معرفة شئ لا انطق فقط
بمصالح الأمراء وبالشئون السياسية .. لكن بشئونهم

الخاصة بهم.. إنهم يتجاهلون اقتصاد وعلم رب الأسرة.. يمتدحون أنفسهم بهذا التجاهل.. يُتركون في حالة عوز وخضوع لمُديرين.. إنهم يكتفون أن يكونوا نواقة أو تلالاً.. أن يذهبوا إلى بيت زائس أو إلى بيت فرينيه.. أن يتحدثوا عن رهط وعن رهط متأخرين.. أن يقولوا كم موقع يوجد من باريس إلى بيزانسون (١) أو إلى فيليبسبورج (٢) .. مواطنون يتعلمون من داخل ومن خارج المملكة.. يراقبون الحكومة.. يصبحون نُبهاء وسياسيين.. يعرفون قوَى الدولة كلها وضعيفها. يحلمون باتخاذ أفضل المواقع.. يتخذون مواقعهم.. ينهضون.. يصبحون ذوى نفوذ.. يُريحون الأمير بقسط من اهتمامات شعبية.

– والآن.. الضربة القاضية:

الكبار الذين يحتقرونهم.. يوقرونهم سعداء إن يصبحوا أصهارهم.

– جملتان أساسيتان.. حُذفتْ ثانيتهما.. سعداء (هم يكونون سعداء).. محبوبكتان بجملتين تابعتين.. الجملة الموصولة: الذين يحتقرونهم.. والجملة الشرطية الختامية.. المُقتالة: إن يصبحوا أصهارهم.

(١) بيزانسون: مدينة سياحية رئيسية في شرق فرنسا تقع على مقربة من الحدود الفرنسية السويسرية.

(٢) فيليبسبورج: مدينة ألمانية.

ولماذا لا نستظهر هذه النصوص عن ظهر قلب؟
وبأى اسم لا نتملك الأدب؟
لأن هذا لم يعد يحدث منذ زمن طويل؟
- قد نترك أنفسنا نختفى من الصفحات المثيلة
كأوراق ميته.. لأن هذا لم يعد يجيء فى أوانه؟
عدم الاحتفاظ بلقاءات مثيلة.. أهذا يُعقل؟
لو كانت هذه النصوص كائنات.. لو كان لهذه
الصفحات الاستثنائية وجوه.. قياسات..
صوت.. ابتسامة.. رائحة.. أكنا سنقضى ما تبقى من
حياتنا نعض على النواجذ ندماً على أننا تركناها تجري؟
لَمْ نلتزم بالآل نحتفظ منها إلا بأثر سيتلاشى
حتى لن يعود يبقى منه إلا ذكرى أثر... (يبدو لى..
أجل.. أنتى درست نصاً فى المدرسة.. سابقاً عن مَنْ؟
لا برويير^(١)؟ مونتسكيو^(٢)؟ فينيلون^(٣)؟ أى عصر..

(١) برويير :جون ميشيل برويير .كاتب فرنسى مشهور فى علم الأخلاق
(٢) مونتسكيو : شارل لوى دى سيكوندا إلى (١٦٨٩ - ١٧٥٥) المعروف بـ
«مونتيسكيو» فيلسوف فرنسى صاحب نظرية فصل السلطات التى
تعمل بها غالبية الأنظمة حالياً ومن أشهر مؤلفاته «روح القانون» الذى
صار من أبرز المراجع فى العلوم السياسية.
(٢) فرانسوا دوسالينياك دولاموت فينيلون (١٦٥١ - ١٧١٥م كاتب وشاعر
فرنسى، من أبرز رموز النهضة الأوروبية خلال النصف الثانى من
القرن السابع عشر.

السابع عشر؟ الثامن عشر؟ نصٌّ فى جملة وحيدة كان
يصف الانزلاق من طبقة إلى أخرى...

باسم أى مبدأ .. هذه الورطة؟

فقط لأن مُدرسى العام الماضى ذائع الصيت
كانوا يجعلوننا نسمع أشعاراً معتوهة غالباً .. أمام أعين
بعض المسنين البلهاء كانت الذاكرة عضلةً تحتاج إلى
تدريب أكثر من احتياج مكتبة للنمو؟ أهلهذه القصائد
الأسبوعية التى لم نفهم منها شيئاً...

كل قصيدة منها كانت تطرد سابقتها..حتى
اعتقدنا أننا نتدرب على النسيان!.

من ناحية أخرى.. كان مدرسوننا يعطونها لنا
لأنهم كانوا يحبونها.. أو لأن مُعلميهم كانوا قد لقنوها
لهم.. أنها كانت تُنسب إلى بانتيون صاحب رسائل
ميتة؟

هم أيضاً.. ألصقوا بنا الأصفار!.

وساعاتٍ من التسميع!.

(بداهةً.. بناكشيونى.. لم نتعلم تسميعه!)

لكن إذا.. يا سيدى.. كنتُ عرفتُه مساء أمس أيضاً
كنتُ سمعته على أذى.. كان هذا من الشُّعر مساء
أمس.. لكن هذا الصباح ها هو التسميع الذى
تتظره.. وهذا يُصينى بالإمساك.. هذا المرصاد..

بطبيعة الحال.. لم أقل شيئاً من كل هذا.. كنتُ
خائفاً للغاية.. لم أعد إليها.. هذه المحنة المرعبة.. محنة
التسميع أمام المنصّة.. إلا لأحاول أن أفسر الازدراء

لى حيث اليوم ثمة من يمسك بكل تحريضات
الذاكرة قد يكون هذا إذا من أجل التوصل إلى هذه
الأشباح التى كنا قد قررنا ألا نلحق بها أكثر صفحات
الأدب والفلسفة روعة؟

نصوص حُرِّمَ التذكر عليها.. لأن بعض الحمقى
لم يجعلوا منها سوى قضية ذاكرة؟

إذا كان هذا كذلك.. فإنها حماقة طردت حماقة
أخرى. ربما يعارضنى من يقول إن العقل المنظم ليس
فى أى احتياج للتعلم عن ظهر قلب فهو يعرف كيف
يصنع عسله من اللب الجوهريّ.

هو يحفظ ما يؤدي معنى ما.. ومهما قلتُ عنه
يحفظ بإحساس الجمال كاملاً. زد على هذا. يمكن
أن يلتقيكم فى أى كتاب فى لحظة داخل مكتبته..
يصل فى أوانه إلى السطور الجيدة فى دقيقتين. أنا
شخصياً.. أعرف أين ينتظرنى لا برويير.. أراه على
رفه الجدارى.. كونراد.. ليرمونتوف^(١).. بيرو^(٢)..
شاندلر^(٣).. كل رفقتى هناك.. مبعثرة هجائياً فى هذا
المنظر الذى أعرفه جيداً. دون أن أتحدث عن فضاء

(١) ليرمونتوف: (ميخائيل ليرمونتوف) (١٨٤١ - ١٨٤١م) شاعر
روسيا العظيم ومن أشهر مؤلفاته «الأسير القوقازى»
و«القرصان» و«بطل هذا الزمان».

(٢) بيرو... أديب وكاتب فرنسى معروف.

(٣) ألفرد شاندلر جونيور (١٩١٨ - ٢٠٠٧) مؤرخ أمريكى، له أكثر ٥٢
مولفاً وهو صاحب نظرية «اليد المنظورة» فى الاقتصاد التى
حلت محل «اليد المخفية» التى روج لها الاقتصادى الشهير «آدم
سميث» فى القرن الثامن عشر، فى تحديده لمصادر السوق
الحرّة.

الإنترنت حيث يمكننى بنهاية سبابتى أن أستشير كل
الذاكرة البشرية. الاستظهار عن ظهر قلب؟

فى الوقت الذى تُعدّ الذاكرة فيه بالمليارات.

صحيح كل هذا.. لكن الشيء الأساسى فى
موضع آخر. وأنا أستظهر عن ظهر قلب.. لا أعوض
عن شيء.. أضيف إلى الجميع.

القلب هنا هو قلب اللغة. يغطس داخل اللغة. كل
شيء هناك. ابتلاع الماء وقيئه مرة أخرى. وأنا أجعل
تلاميذى يتعلمون بعض النصوص.. فى الصف
السادس فى السنة النهائية (نصٌ يُدرّس أسبوعياً..
فيما تُسمّع بقية النصوص فى كل يوم من أيام العام
الدراسى).

كنتُ ألقى بهم يقظين جميعاً داخل موج اللغة
العظيم الذى يتسلق العصور لكى يأتى ليدق بابنا
ويعبر منزلنا. بكل تأكيد كانوا يجمعون.. المرات
الأولى!

كانوا يتصورون الماء بارداً للغاية.. عميقاً جداً..
والتيار قوياً جداً.. تكوينهم هزيل جداً. شرعى!

كانوا يقدمون لأنفسهم الخوف من شرفة
الغطس:

. لن أصل إليه أبداً.

. ليس لدى ذاكرة.

(تخرجنى هذه الحجة أمهاً*) من الميلاد!.

(*) الأمه: هو الشخص المصاب بداء النسيان / الزهايمر (المترجم).

. هذا طويل جداً!.

(بالنسبة إلى.. غبى الخدمة العسكرية القديم!)
- فضلاً عن ذلك.. ليست الأشعار كما نتحدث
اليوم!.

(آه! آه! آه!)

. سيُدُون هذا يا سيدى؟

(وكيف!)

دون إحصاء اعتراضات الناضجين المهينين:
. أتستظهر(*)؟ لم نعد رُضْعاً!.
. أنا لستُ بيغاء!.

كانوا يقامرون بكل شيء. كان هذا بشكل شرعى.
من جهة أخرى.. كانوا يقولون هذا النوع من
الأشياء.. لأنهم كانوا يسمعونها تُقال. آباؤهم..
بأنفسهم.. أحياناً.. آباء.. إلى أى مدى متحضرون:
(كيف.. يا سيدى بناكشيونى تجعلهم يستظهرون
نصوصاً؟ لكن ابنى لم يعد طفلاً!).

ابنك يا عزيزتى لن ينتهى به الحال إلى أن يصبح
طفلاً للغة.. وأنتَ بنفسك رضيع صغير جداً.. وأنا
صبى مثير للسخرية.. والجميع بقدر ما نكون هَنَّةً
يحملها نهر عظيم يتدفق من النبع الفموى للحروف..
وأنه سيحب معرفة فى أية لغة يسبح.. هذا الذى
يحملة.. يروى ظمأه.. يغذيه.. وسيصبح بنفسه حامل
هذا الحُسْن. وبأى فخر!..

(*) الاستظهار: هو ما نطلق عليه التسميع أى أن نقول الشيء عن
ظهر قلب.(المترجم).

سيعشق هذا .. ثقى به .. طعم هذه الكلمات داخل
فمه .. شُهب الأفكار المضيئة داخل رأسه .. اكتشاف
كفاءات ذاكرته الخارقة .. رشايقته اللانهائية .. صندوق
الصدى هذا .. هذا الصوت الغريب حيث يجعل أكثر
العبارات روعةً تُغنى .. تدوى الأفكار الأكثر وضوحاً .
سيفتن بها .. بهذه السباحة تحت اللسانية حيث
سيكتشف مفارة ذاكرته الشرهة .. سيعشق الغطس
داخل اللغة .. فيها يخطئ عمق النصوص .. وعلى مدار
حياته سيعرفها هناك .. إنها أساسيات وجوده .. مقدرة
تلاوتها ارتجالاً .. يقولها لنفسه من أجل نكهة
الكلمات . رسول عُرّف مكتوب بفضله يصبح فموياً مرة
أخرى . سيصل ربما إلى أن يقولها لشخص آخر من
أجل أن يقتسمها معه .. من أجل ألعاب التضليل .. أو
من أجل أن يتحذلق .. إنها مخاطرة الركض .. سيرتبط
فى المسير بأوقات ما قبل الكتابة حيث كان بقاء الفكر
يتبع صوتنا الوحيد . لو حدثتني بشكل ارتدادى ..
سأجيبك مستخدماً طريقة إعادة الاتصال . المعرفة
جسدية فى البداية . إنها آذاننا وأعيننا التى تجتذبها ..
وفمنا هو الذى يرسلها . مؤكد .. تأتينا المعرفة من
الكتب .. غير أن الكتب تخرج من داخلنا نحن هذا ما
يُحدثُ ضجة . فكرة .. نوق القراءة هو ميراث الاحتياج
إلى الكلام .

- ١٣ -

آه! كلمةٌ أخيرة.. لا تقلقى يا سيدتى.. (أستطيع أن أضيف اليوم إلى هذه الأم التى لا تتغير من جيل لجيل).

كل هذا الجمال فى رأس أطفالك.. ليس هذا ما سيُعيقهم عن أن يلعبوا كالقط صوتياً مع رفاقهم الصفار على اللوحة.. ولا أن يرسلوا هذه الرسائل القصيرة(*) التى تجعلك تُصدرى صرخات عُنّاب منسورى:

(يا إلهى.. يا لها من إملاء! كيف يتكلم شباب اليوم!).

لكن ماذا تفعل المدرسة؟

اطمئنى.. اجعلى أطفالك يعملون.. لن نَمَسَّ رأس مالك من القلق الأمومى.

(*) المقصود هنا الرسائل التى تُرسل عبر التليفون المحمول.. (المترجم).

إذا.. نصُّ واحد أسبوعياً.. كان علينا أن نُجيد تسميته كل يوم من أيام العام الدراسي.. ارتجالاً.. هم مثلي.. نصوص مُرقَّمة.. لزيادة مدى الصعوبة.. الأسبوع الأول.. نص رقم واحد.. الأسبوع الثاني.. نص رقم اثنين.. الأسبوع الثالث والعشرون.. نص رقم ثلاثة وعشرين.. كل مظاهر دراسة الآلات البلاء.. لكن هذه الأرقام هي عِوضاً عن العنوان.. كان هذا من أجل اللعب.. من أجل إضفاء سرور المخاطرة على فخر المعرفة.

- أميلي.. اتلُّ علينا النص التاسع عشر..

- التاسع عشر؟ إنه نص كونستان عن الخجل.. بداية أدولف.

- تماماً.. نحن نُصغى إليك.

كان أبي خجولاً... وكانت خطاباته ودودة.. ملأى بالوصايا الحكيمة والمؤثرة.. لكن ما أن تواجهنا معاً.. حتى وجدت داخله شيئاً من الإكراه الذي لم أتمكن من تفسيره لحظتها والذي كان يتفاعل ضدي بطريقة مُضنية.. لم أكن أعرف - آنذاك - ما الذي كان سوى

الخجل.. هذه المعاناة الداخلية التى تطاردنا حتى سنين
العمر المتقدمة.. والتى تدفع عن قلوبنا المشاعر الأكثر
عمقاً.. التى تُجمدُ كلماتنا.. التى تُشوّه فى أفواهنا كل
ما نحاول أن نتفوه به.. ولا تسمح لنا بأن نتكلم إلا
بألفاظ غامضة أو بتهكم أكثر أو أقل مرارة.. كأننا كنا
نريد أن ننتقم من أحاسيسنا.. حتى من الألم الذى
نعانى من أجل أن نُعرفها عليه لم أكن أعرف أن أبى
كان خجولاً حتى وهو برفقة ابنه.. وأنه غالباً بعد أن
انتظر منى لزمان طويل بعض دلائل تعلّقى به الذى كان
يبدو فتوره الجلىّ أنه يمنعنى.. تركنى وعيناه
مغرورتان بالدموع.. وشكا لآخرين أننى لا أحبه.
- رائع ٢٠/١٨ ..

فرانسوا النص الثامن.

- الثامن.. وودى ألىن! الأسد والحمل.
- هيا.

سيقتسم الأسد والحمل الفراش نفسه..
لكن الحمل لن ينام كثيراً.
- تمام.. ٢٠/٢٠

صمويل.. النص الثانى عشر.

- الثانى عشر.. نص إيميل لروسو. وصَفّه لحالة
الإنسان.
- بالضبط.

- مهلاً يا سيدى.. نجح فرانسوا فى الحصول
على ٢٠/٢٠ بسطرين من نص وودى.. وعلى أنا أن
أسمع نصف إيميل؟

- إنه يانصيب الحياة الشنيع.

- حسناً.

أنتم تعتمدون على النظام الحالى للمجتمع دون أن تفكروا فى أن هذا النظام كان هدفاً لثورات حتمية.. ثورات كان يستحيل عليكم أن تتكهنوا بها وأن تتداركوها.. تلك التى تشاهد أطفالكم. الكبير يصبح صغيراً.. الغنى يصبح فقيراً.. يصبح الراعى من الرعيّة.. أ تكون نوائب الدهر نادرة جداً درجة أن تتمكنوا من عدّها.. وتكونوا معصومين منها؟

نقترب من حالة الأزمة ومن عصر الثورات من الذى يستطيع أن يُعيدكم مما ستصبحونه آنذاك؟ كل ما فعله البشر يستطيعون أن يهدموه.. ليست هناك سِيمات لا تزول سوى تلك التى تُرسّخها الطبيعة..

والطبيعة لا تصنع لا أمراء ولا أثرياء.. ولا حتى سادة.

ماذا سيفعل إذا.. فى الدناعة.. هذا المستبد الذى لا يُعظّم إلا من أجل التعظيم؟

ماذا سيفعل فى الفقر جابى الضرائب الذى لا يعرف كيف يعيش إلا من الذهب؟

ماذا سيفعل.. محروماً من كل شىء.. هذا المزهو المعتوه الذى لا يعرف قط يستخدم نفسه ولا يضع عالمه إلا داخل ما هو غريب عنه؟

سعيداً من يعرف كيف يغادر حينئذ الحالة التى تغادره.. ويبقى إنساناً رغماً عن الأقدار.

لَمْ نَمْتَدِّحْ هَذَا الْمَلِكَ الْمَهْزُومَ الَّذِي يَرِيدُ أَنْ يَنْدَفِنَ
غَاضِباً تَحْتَ أَنْقَاضِ عَرْشِهِ؟.. أَنَا أَزْدْرِيه.. أَنَا أَرَى أَنَّهُ
لَا يَعْيشُ إِلَّا بِوَاسِطَةِ تَاجِهِ.. وَأَنَّهُ كَانَ لَنْ يَكُونَ شَيْئاً
عَلَى الْإِطْلَاقِ إِنْ لَمْ يَكُنْ مُلْكاً.. لَكِنْ مَا يَفْقَدُهُ وَيَمْتَنِعُ
عَنْهُ حِينَئِذٍ هُوَ مَا لَا طَاقَةَ لَهُ بِهِ.. مِنْ مَكَانَةِ الْمَلِكِ الَّتِي
يَسْتَطِيعُ خَسِيسٌ.. شَرِيرٌ.. مَجْنُونٌ أَنْ يَمْلَأَهَا كَفِيرِهِ..
يَرْتَقَى إِلَى حَالَةِ الْإِنْسَانِ.. وَقَلِيلُونَ جِداً مِنَ الْبَشَرِ
يَعْرِفُونَ كَيْفَ يَمْلَأُونَ...

– مَنْ يَقُولُ أَفْضَلَ؟

لَمْ أَكُنْ أَبْرَحَهُمْ دَاخِلَ هَذِهِ النُّصُوصِ. كُنْتُ
أَغْطِسُ فِيهَا مَعَهُمْ. كَانَ قَدْ وَصَلَ الْحَالُ بِنَا إِلَى أَنْ
نَتَعَلَّمَ النُّصُوصَ الْمُعْقَدَةَ جِداً مَعاً.. أَثْنَاءَ الدَّرْسِ نَفْسِهِ..
طَوَالَ تَحْلِيلِهَا.

كُنْتُ أُبْهَرُ نَفْسِي بِمُعَلِّمِ سَبَّاحٍ. كَانَ الضُّعَافُ جِداً
يَتَقَدَّمُونَ فِي عَنَاءٍ.. رَافِعِينَ الرَّأْسَ خَارِجَ الْمَاءِ.. جِزْءاً
جِزْءاً.. مُتَعَلِّقِينَ بِلُوحِ شُرُوحِ الْخَشَبِيِّ.. ثُمَّ كَانُوا
يَسْبَحُونَ بِمُفْرَدِهِمْ.. فِي الْبِدَايَةِ كَانَتْ بَعْضُ الْجُمَلِ..
إِلَى أَنْ يَقْدَمُوا لِأَنْفُسِهِمْ عَمَّا قَلِيلٍ امْتِدَادَ فِقْرَةٍ.. دُونَ
قِرَاءَةٍ.. عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ.

مِنْذَ أَنْ فَهِمُوا مَا كَانُوا يَقْرَعُونَهُ اكْتَشَفُوا قُدْرَاتَ
ذَاكِرَتِهِمْ.. وَغَالِباً.. قَبْلَ انْتِهَاءِ الدَّرْسِ.. كَانَ عَدَدٌ جَيِّدٌ
مِنْهُمْ يُسَمِّعُ النَّصَّ كَامِلاً.. كَانُوا يَقْدَمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ
امْتِدَادَ بَرَكَةٍ دُونَ مَسَاعِدَةِ مُعَلِّمِ سَبَّاحٍ. كَانُوا يَبْدَعُونَ
الْتِمَتِ بِذَاكِرَتِهِمْ. لَمْ يَكُونُوا يَنْتَظِرُونَ فِيهَا عَلَى

الإطلاق. حكينا عن اكتشاف وظيفة جديدة.. كأنه كان يدفعهم بزعانف يفاجأ الجميع بهذا التذكر السريع جداً.. كانوا يكررون النص مرتين.. ثلاث مرات.. ودونما أية صعوبة.

إنه كبّح قائم.. كانوا يفهمون ما كانوا يتذكرونه. لم يكونوا يرضون أن يُسمّعوا تكملة الكلمات.. لم يعد هذا فقط في ذاكرتهم التي كانوا يحمحمونها.. كان هذا في ذكاء اللغة.. لغة الآخر.. فكّر الآخر. لم يكونوا يُسمعون إيميل.. كانوا يُصوّبون منطوق روسو في تلك اللحظات.. لكن بعد كل حساب.. هذا هو التآليه اللعني لجان - جاك الذي يتكلم بواسطة فمكم!.

أحياناً.. كانوا يلعبون.. يتدربون معاً.. يُنظمون
مسابقات سرعة.. أو يُسمعون نَصَّهُم بنبرة غريبة عن
طبيعتها:

الهيجان.. المفاجأة.. الخوف.. التعتة.. الفصاحة
الليقة.. الشغف العاشق.. عند الحاجة كان هذا أو
ذاك يُقلد الرئيس الحالى.. وزيراً.. مغنياً.. مُقدم
نشرة الأخبار التليفزيونية...

كذلك كانوا يَنكَبُون على لعبتين.. تدريبات
الرشاقة العقلية المحفوفة بالمخاطر.. كانوا يُطلقون
تحديات أكروباتية قومها لى ذات مساء فصل الصف
الثانى.. أثناء عشاء نهاية العام الدراسى. (كانوا
يحرسون الشئ السرى.. كى يُدهشوا المدرس.)

بين الكمثرى والجُبْن.. تُصَوَّب كارولين إصبعها
نحو سيباستيان:

- تَحدُّ: أريد الفقرة من النّصّ الثالث.. المقطع
الشُّعْرى الثانى من النص الحادى عشر.. الرابع من
النص السادس والجملة الأخيرة من النص الخامس
عشر. حشد سيباستيان المتحدى ذهنياً نصّ رُقِع

أقمشة ملونة الذي سمَّه تقريباً دون تردد كَنَصٌ فريد
وغير مألوف، ثم ألقى تحديه الخاص: وأنتِ بدوركِ
اتلى علينا جسر ميرابو(*).

حدِّدْ بدقة:

- بالقلوب.

- سهل.

فإذا فى أذنىَّ المشدوهتين.. تحت جسر ميرابو
يتخذ نهر السين مكانه ليعود إلى مجراه.. من البيت
الأخير إلى الأول.. حتى الاختفاء تحت بلاطوه لانجر.
مسرورة.. أطلقت اسم المؤلف: إيريانيلويا!.

- وهذا.. يا سيدى.. أتعرف كيف تفعله؟

ربما لم يكن مفتش الأكاديمية يحب أن يرى
السين عائداً إلى منبعه أو أسطوانة الغسالة وهى
تخلط كل نصوص العام الدراسى.. أو تلاميذى فى
الصف السادس وهم يُزينون فصلنا بأشرطة؛ حيث
كانت تتدلى أخطاؤهم الإملائية الأكثر مُشاهدةً كجلود
انهزامية. ثمة من استطاع أن يلومنى على تركى لأكبر
تلاميذى يتعهدون بكراساتهم فى تصحيح يَغتال
التلاميذ الصغار!.

ألن يكون هذا مدحاً للبعض بهدف إذلال آخرين؟

لم نداعب هذه الأشياء.. بعد كل حساب!.

لم يكن يجب أن تكون ثمة مرافعة:

ما من هلع يا سيدى المفتش.. يجب معرفة اللعب

(*) اسم قصيدة للشاعر الفرنسى جيوم أبولينير. (المترجم).

مع المعرفة. اللعب هو تنفس الكد.. الخفقان الآخر للقلب. اللعب لا يلحق الضرر برصانة التدريب.. بل هو طباقه.

من جهة أخرى.. اللعب مع المادة الدراسية تدريب لنا على السيطرة عليها. لا تصف بالطفل الملاك الذى يقفز على الحبل.. إنه متهور.

فى خلطهم لنصوصهم.. لم يكن ينقص تلاميذى فى الصف الثانى أن يحترموا السيد الأدب.. كانوا يُشيدون بسيادة ذاكرتهم!

كانوا لا يُقلّلون قدر معرفة ما.. وفى براءة يندهشون بمهارة ما!

يُعبّرون عن فخرهم وهم يلعبون دون أن يرفعوا أعناقهم. كانوا من جهة أخرى يمزحون بروسو.. يواسون أبولينير.. يتسلون بكورنى(*) - الذى كان لديه مذاق الخدع المسلية هو أيضاً.. والذى يجب أن يدرك أن خلوده طويل بعض الشيء.. وبخاصة.. كانوا يقيمون فيما بينهم وسطاً من البوح اللُعبى الذى كان يُعضدّ الذهن الجاد لكل واحد فيهم. ثم كانوا ينتهون من هذا بالخوف. كانت هذه هى طريقته فى أن يقولوا.. فى أن يصيحوا: أخيراً!

زد على هذا كنتُ أحياناً ما أَلعب معهم. لقد وصل بنا الحال إلى أن نتأمل الغباء مع الفائدة الكبرى.. أن ندرس نتائج تعايشه مع الذكاء النادر جداً. مندهشون

(*) كورنى: بيير كورنى (١٦٠٦ - ١٨٤٨م) شاعر مسرحى فرنسى، يعتبر من رواد المسرح الكلاسيكى فى تاريخ الأدب.

لكن منهكون بارتقائنا ابن أخى رامو(*).. كنا ننسجم على سبيل المثال مع وضع الشتائم. شتيمة بواسطة تلميذ (كانت لدى ميزانية لهذا العمل). مَنْ كانت تقع عليه القصة الأكثر غباءً.. التى اقترحت بواسطة قطع الحلوى هذه.. الخدعة الأكثر إهانة فى قمة الذكاء حيث كنا نُخيم.. هذا الذى كان يريح شتيمة ثانية.. وكنا نحن نستعيد ارتقائنا.. القدم خفيفة.. مُكرمين بصداقة ديدىرو. كنا نعرف أنه لو كان إدراك النص غزواً وحيداً وفضلاً للعقل.. فإن الخدعة الغبية تثبت.. هى.. تواطؤ مريح لن يتجزأ إلا بين أصدقاء حميمين كنا نتبادل معهم القصص الأكثر غباءً.. طريقة إعادة الاحترام المُضمَر إلى ذكاء عقولهم. أتخابث مع آخرين.. أبوح بمعرفتى.. أستقر فيها.. أُغوى.

(*) اسم كتاب. (المترجم).

تُرى مَنْ كانوا .. تلاميذى؟

بالنسبة إلى عدد مؤكد منهم نوع التلميذ الذى كُنته فى سِنِّهم .. الذى نجده بعض الشيء فى كل مكان فى المدارس الداخلية حيث يرسب الفتيان والفتيات الذين استبعدتهم المدارس الثانوية الجديرة بالاحترام. كان كثيرون منهم يعيدون العام الدراسى ويمكثون فى تقدير لا قيمة له. آخرون .. كانوا يشعرون ببساطة أنهم على الهامش .. خارج (النظام). بعضهم فقد .. حتى الدُّوَار - الإحساس ببذل المجهود .. بالزمن .. بالإجبار .. باختصار .. بالعمل .. ببساطة شديدة .. تهاونوا فى الحياة .. متفرغين بدءاً من سنوات الثمانينيات للاستهلاك الجامح .. لا يعرفون قط أن يستخدموا أنفسهم ولا يضعون عالمهم إلا داخل من كان غريباً عنهم (تأمل روسو منقولاً على سطح مَادى .. لم يتركهم غير مكترثين). والجميع من الحالات الخاصة .. بكل تأكيد هذا .. تلميذ ممتاز فى مدرسة الولاية الثانوية .. وجد إذناً أخيراً على سطح باخرة على أهبة الإقلاع إلى المدارس الكبرى حيث جعله ملفه يُقبل فيها.

لقد حمل منها حزناً شبيهاً حول شعر رأسه إلى
بُقَع: انهيار عصبى.. فى عمر الخامسة عشرة!.

هذه.. التى أقبلت على الانتحار بِجَرَحٍ أوردتها
(لماذا فعلتِ هذا؟ - كى أرى!).. تلك التى كانت تُغازل
بالتناوب فقدان الشهية والجوع المرضى.. هذا الذى
كان يهرب مؤقتاً.. ذاك القادم من إفريقيا.. المصدوم
بثورة دامية.. وهذا.. ابن البواب الذى لا يكل.. ذاك
الصبى الكسول ابن الدبلوماسى الغائب.. كان بعضهم
مثقلاً بالمشكلات العائلية.. كان بعضهم يعزف على
أوتارها بلا حياء.. هذه الأرملة القوطية ذات العينين
المسوداوين والشففتين البنفسجيتين.. أقسمت ألا
تندهش من شىء.. حين سُمِرَ هذا القميص
الرياضى.. بنان وسانتياج.. الهاربان من مدرسة
كاشان الثانوية الفنية.. كى يلتحقا لدينا بمرحلة
طويلة.. اكتشفا متعجبين مجانية الثقافة. كانوا فتیان
وفتيات جيلهم.. سوقيو السبعينيات.. قرطاجينيو أو
قوطيو الثمانينيات.. مشدوهو التسعينيات
المعاصرين.. كانوا يقلّدون صيحات الموضة مثلاً
نلتقط ميكروبات: موضة الملابس.. الموسيقى..
الغذاء.. الألعاب.. الإليكترونيات.

كانوا يستهلكون. تلاميذ بداياتى.. تلاميذ
السبعينيات كانوا يملئون بالنسبة إلى نصفهم الفصول
المذكورة (مُجهّزة) لمدرسة سوانسون الثانوية.. فصول
كنا قد حددنا بدعابة مهنية جداً أنها لم تكن (لـ
التجهيز).. فى كلمتين. كان بعضهم تحت حراسة

قضائية. كان الآخرون أبناء مزارعين برتغاليين.. تجار محليين أو أبناء كبار مُلاك الأراضي الذين كانت حقولهم تغطى سهول الشرق الفسيحة. بدناء من كل الشباب قُدموا للانتحار الأوروبي من ١٤ - ١٨.

كان سُوقيُّونا يقتسمون الأماكن نفسها مع هؤلاء التلاميذ (الأسوياء).. المطعم نفسه.. الألعاب نفسها.. وكان هذا الخليط المحفوظ ليوضع فى حساب الإدارة. الأمية المتأخرة لا تؤرخ من اليوم.. هذا بالنسبة إلى هؤلاء الفتيان وهؤلاء الفتيات (المُجهَّزين) الذين كان يجب على فى الصف الرابع أو فى الصف الثالث أن أعلمهم الثقافة والإملاء مرة أخرى.. كان هذا معهم.. هم الذين كنا نسألهم عن هذا الـ [y] حيث لم نتوصل إليه أبداً لأننا نجهل أنه لم يكن سوى كائن هناك.. كائن الآن.. كائن معاً.. وهذا يجعله على طبعه يبقى مدرّسهم لمادة الرياضيات وأنا كنا قد علمناهم كيف يلعبون لعبة الشطرنج.. أيضاً. الواقع.. أنهم لم يشفوا منه وإن كان الماء. صنعنا رقعة شطرنج جدارية كبيرة والتي قدموها لى ساعة رحيلى (لقد صنعنا منها واحدة أخرى).. والتي أحتفظ بها بشعور من الإجلال والحب. انتصاراتهم فى هذه اللعبة الشهيرة والصعبة.. كان ذاك هو عصر البطل الشهير سباسكى. فيشر.. الثقة المكتسبة التى حازوها فى هذه اللعبة هازمين فصول المدرسة المجاورة (هزمنا علماء اللاتينية يا سيدى!).

لم يكونوا بلا ثمن فى تقدمهم فى الرياضيات.. فى تلك السنة.. ولا فى نجاحهم فى الشهادة

التكميلية. فى نهاية العام كنا قد ارتقينا أوبو ملكاً..
كل الفصول مختلطة. أخرجت صديقتى فانشون..
المدرسة اليوم فى مارسيليا.. هى أيضاً من طراز العم
جول.. لا تصدأ فى مقاومتها ضد كل الجهالات.
بالتبعية.. الأب والأم أوبو كانا قد أثارا صخباً فى
سريرهما الكبير على مرأى من المطران المحلى.
(عمودى.. السرير.. من أجل أن نستطيع أن نَعْجب
الزوج الملكى حتى مؤخرة قاعة الألعاب البدنية حيث
تُتَج المسرحية.)

منذ ١٩٦٩ وحتى ١٩٩٥ لو استثنينا عامين انقضيا
فى مؤسسة أختير بدقة من يدخلها كان معظم تلاميذى
سيكونون إذاً مثلما كنتُ بنفسى.. أطفالاً ومراهقين فى
صعوبة دراسية تزيد أو تنقص. كان الأكثر إصابةً
يُظهرون تقريباً الأعراض نفسها التى كانت لدى فى
مثل عمرهم: فقدان الثقة فى النفس.. العدول عن بذل
أى مجهود.. عدم الكفاءة فى التركيز.. غفلة.. ولع
بالأكاذيب.. تكوين جماعة عند زقاقى.. كحول أحياناً..
أيضاً مخدرات .. اللطيفة زوراً.. العين سائلة
بالأحرى.. بعد كل حساب.. بعض الصباحات...

كانوا تلاميذى. (ياء الملكية هنا لا تُحدد أية
ملكية.. إنها تشير إلى فاصل زمنى.. أعوامنا
الدراسية.. حيث مسئوليتى كمدرس توجد مرهونة
كاملة إزاء هؤلاء التلاميذ.)

جزء من مهنتى يرتكز على إقناع تلاميذى الأكثر
هجرأ؛ لأنفسهم أن المجاملة أفضل من الصفة المُعدَّة

سلفاً عند التروى.. أن الحياة فى تجمع هى حياة
التزام.. أن يوم وساعة تأدية واجب ما ليسا قابلين
للتداول.. أن واجباً ما لم يُتَقَن يكون فى انتظار إعادته
فى اليوم التالى.. أن هذا.. أن ذاك.. لكن هيهات..
هيهات طويلاً.. لا رفاقى ولا أنا لم نكن لنتركهم
فى وسط المعبر من أجل أن تكون لديهم فرصة
الوصول إليه.. كان يجب أن نعيد إليهم ثانية المعرفة
بل بذل المجهود.. ومن ثمّ مذاق العزلة والسكون..
وبخاصة تأثير الوقت.. إذا.. السأم.. لقد وصل الأمر
إلى أن أوصيهم بتدريبات السأم.. نعم.. كى أسكنهم
فى الوقت.. كنتُ أرجوهم ألا يفعلوا شيئاً.. ألا يفعلوا..
ألا يستهلكوا شيئاً ولا حتى فى المحادثة.. كذلك ألا
يعملوا.. باختصار.. ألا يفعلوا شيئاً.. لا شيء
إطلاقاً.

- تدريب السأم.. هذا المساء.. عشرون دقيقة
لعدم فعل شيء قبل أن ألقى بكم فى العمل.
- ولا حتى الاستماع إلى الموسيقى؟
- خاصة لا!.

- عشرون دقيقة؟

عشرون دقيقة. الساعة فى اليد. من الخامسة
والثلث إلى السادسة إلا الثلث ستعودون مباشرة إلى
أماكنكم.. لن تتحدثوا مع أحد.. لن تتوقفوا فى
مقهى.. تتجاهلون وجود البليار الكهربائى.. لن تلتقوا
بأصحابكم.. تدخلون حجرتكم.. تجلسون فى ركن
سريركم.. لن تفتحوا حقيبتكم.. لن تسمعوا الوكمان..

لن تشاهدوا الجيم بوى.. ستنتظرون عشرين دقيقة..
والعين فى الفراغ.

- لأى شىء نفع؟

- بالفضول فكروا ملياً فى الدقائق التى تمر.. لا
تفوتكم منها واحدة واحكوا لى فى الغد. كيف
ستستطيع أن تتحقق من أنهم فعلوا؟

- لن أستخدم.

- وبعد العشرين دقيقة؟

- ستقضون على طعامكم كالجائعين.

لو كان على أن أصف هذه الدروس سأقول إن تلاميذى الكسولين المفترضين وأنا كنا نصارع فيها ضد الفكر السحري.. ذاك الذى كما فى الأساطير.. يجعلنا أسرى مضارع مستمر. الانتهاء إلى حل مع الصفر فى الإملاء.. على سبيل المثال.. تخلص من الفكر السحري. نُحطِّم قَدْرًا. نخرج من الدائرة. نفيق. نضع قدمًا فى الواقع. نشغل المضارع الاستدلالي. نبدأ فى الفهم. يجب جيداً أن نصل ذات يوم إلى حيث نُفِيقُ!.

ذات يوم.. ذات ساعة! لم يقضم أحد إلى الأبد تفاحة عدم الكفاءة! لسنا فى حكاية.. ضحايا الفتنة! ربما صدقت.. يُعْلَمُ: الانتهاء إلى حل مع الفكر السحري.. يحدث بحيث أن كل درس يبدؤ ساعة الإفاقة.

أوه! أرى جيداً ما الذى يستطيع هذا النوع من البلاغ الرسمى أن يملكه ممن يتضجر من كل المدرسين الذين يحملون على اكتافهم الفصول الأكثر تعباً فى أحياء هذه الأيام. خفة هذه الصيغ فى نظر البلداء الاجتماعيين..

السياسيين..الاقتصاديين..العائليين والمثقفين..
هذا حقيقى ...

يبقى أن الفكر السحرى يلعب دوراً يُعتد به فى الاستبسال الذى يرتديه التلميذ الكسول ليبقى كامناً فى قاع عدم الكفاءة. وذلك.. منذ الأزل وداخل كل الأوساط. الفكر السحرى... ذات يوم أطلب من تلاميذى فى الصف الأول أن يرسموا بورتريهاً للمدرس الذى يعطى موضوعات البكالوريا. إنه واجب مكتوب:ارسموا بورتريهاً للمدرس الذى يعطى موضوعات اللغة الفرنسية فى البكالوريا. لم يعودوا أطفالاً.. كان لديهم وقت ليفكروا.. أسبوع ليُعيدوا إلى كراساتهم.. كانوا يستطيعون أن يقولوا لأنفسهم إن مدرساً واحداً لا يكفى لإعداد كل موضوعات اللغة الفرنسية من كل الأقسام بالنسبة إلى كل الأكاديميات.. إن الأمر أصبح على الأرجح فى مجموعات.. أننا نتقاسم المهمة.. أن لجنة قررت موضوعات من المحتوى تبعاً للمناهج المختلفة هذا نوع من الحُسيان..لا شئ: رسموا بورتريهاً لى جميعاً.. بلا استثناء.. بورتريهاً لعجوز حكيم..مُلْتَحٍ.. منعزل.. وعلاّمة.. الذى كان من أعلى جبل الأوليمب المعرفى يُطلق على فرنسا موضوعات البكالوريا كعدد من الألفاظ الشيطانية.

تخيلتُ هذا الموضوع لأقدم لى الصورة التى رسموها من المُرافعة.. ومن هناك تضىء طبيعة كبُحهم. غرض مصاب فى الحال تزوّدنا بحوليات

البكالوريا..أحصينا منها كل موضوعات أبحاث السنوات الأخيرة..شَرَحْنَاها .. درسنا تركيبها.. اكتشفنا أننا لم نَعرض فيها أكثر من أربعة أو خمسة أغراض تفكيرية.. هي نفسها قُدمت في نمطين صياغيين أو ثلاثة فقط.

(كانت نادراً أكثر تشعباً.. في مجملها.. من الروايات المختلفة حول الدخل من البط إلى البرتقال: ليس هناك بط.. خذوا دجاجاً.. ليس هناك برتقال.. خذوا لفتاً. وإن لم يكن ثمة دجاج ولا بط.. فخذوا ثوراً وجزراً. كانت الصلصة تبقى كما هي: ستؤيدون منطقكم الاستشهادي المأخوذ من ثقافتكم الشخصية.)

إلى جانب هذا التحليل البنيوي كانت لديهم مهمة.. بالنسبة إلى الواجب التالي.. أن يُؤلفوا بأنفسهم موضوع بحث.

- سَيُدَوِّنُ هذا يا سيدي؟

(كم مرة سمعت هذا السؤال!)

- بالتأكيد كل عمل يستحق راتباً رائع! موضوع بسيط يُدَوِّنُ كبحث تام.. الحظ! لكننا نبتهج. كنا نتوقع إجازة أسبوعية مُخففة. لكن ما لم أقلق لأجله هو أن هذا العمل لن يرتفع فوق سيقانهم. لقد وعدوني بالتفكير فيه بجدية.. موضوع طبقاً للقانون هو بحث.. تأليف.. والجميع مُحَلِّفون شديداً الشبه.. يا سيدي! (كل شيء مأخوذ في الحسبان.. حلول الأب محل الله كان يغريهم بشكل كاف.)

لم يتخلصوا من ورطة مشئومة جداً. كتبوا موضوعات أبحاثهم تبعاً لما كانوا يعرفونه من منهجهم ولبعض الأفكار التي كانت تسبب في فضاء الزمن. استطعت أن أجعلهم يُستأجرون بواسطة الوظيفة. الواحد منهم.. أو بالأحرى الواحدة منهن.. كانت فتاة لاحظت أن صياغة هذه الموضوعات الرسمية لم تكن مُستثناة من الفكر السحري:

. (ستؤيدون منطلقكم الاستشهادي المأخوذ من ثقافتكم الشخصية.)

أى استشهاد.. فى يوم البكالوريا يا سيدى؟
من أين يُخرجه مَنْ رُشَّح للامتحان؟ مِنْ رَأْسِهِ؟
الجميع لم يتعلموا نصوصاً مثلاً تعلمنا!.

وأية ثقافة شخصية؟ أريدون أن نحدثهم عن مطربينا المفضلين؟ عن رسومنا المتحركة؟ سحرية قليلاً.. هذه الصيغة.. كلا؟

- ليس هناك ساحر مثالى.

الأسبوع التالى.. لم يبقَ لهم إلا أن يعالجوا الموضوع الذى عرضوه لأنفسهم. لم أشأ أن يَمَسُّوا السمو.. لكن القلب كان يتطلع إليه. لقد حصدتُ أبحاثاً كان يلزمها القليل من الفكر السحري... وكان يلزمهم درجات أكثر فى فَهْم صيغة أمر البكالوريا.

. سَيُدَوِّنُ هَذَا يَا سَيِّدِي؟

كان هناك سؤال الدرجات.. بكل تأكيد سؤال جوهرى.. التدوين.. لو نريد مهاجمة الفكر السحرى.. فلنقاوم العبث. مهما كانت المادة الدراسية التى يُدرّسها.. يكتشف المدرس على وجه السرعة أنه فى كل سؤال مُوجَّهٌ يُجهِّز التلميذ الذى يُسأل ثلاثة إجابات ممكنة: الدقيقة.. المزيفة.. العبثية. أنا بنفسى أسرفتُ بشيء مقبول فى العبث خلال فترة دراستى (الكسر.. (١) يجب أن يُحوَّل إلى عامل مشترك (١).

أو.. فيما بعد: (جا a على جا .. b (٢) اختصر جا .. يتبقَّى a على b!)

سوء فهمى خلال فترة دراستى بلا شك يتوقف على ما كان المدرسون يُدَوِّنونه كما لو كانت إجاباتى المزيفة عبثية كنتُ أستطيع أن أجيب حتماً بأى شيء.. شيء وحيد كان يضمننى: كنتُ أحصل على درجة!

(١) يقصد الكسر الاعتيادى الذى يتكون من بسط ومقام مثل $\frac{1}{2}$: (المترجم).

(٢) جا: هى رمز لجيب الزاوية وهى مصطلح يستخدم فى مادة الهندسة. (المترجم).

صفر.. كالعادة. فهمتُ هذا مبكراً جداً.. كان هذا أفضل طريقة لامتلاك السلام.. الصفر على أى حال.. مؤقتاً.

والحالة هذه.. الشرط اللازم لتحرير التلميذ الكسول من الفكر السحري.. هو الرفض الصريح لتدوين إجابته لو كانت عبثية. خلال أولى جلسات التصحيح النحوى لـ (مُهيّأتى)..^(١)، والتي تطمح - كعادتها - إلى الصفر لم تكن شحيحة فى الإجابات العبثية. فى الصف الرابع على سبيل المثال.. الصديق سامى.

- سامى.. ما هو أول فعل مُصرف فى الجملة؟
- vraiment^(٢) يا سيدى إنه vraiment.
- ما الذى جعلك تقول إنَّ vraiment هو فعل؟
- لأنها تنتهى بـ (ent) !
- وفى المصدر ماذا يكون؟
- ...؟

. هيا.. هيا! ماذا يكون؟ فعل من أفعال المجموعة الأولى؟

الفعل (vrainer) (٣)

(١) يقصد تلك الإجابات التى كان يُعدها مقدماً. (المترجم).
(٢) هذه الكلمة التى اختارها سامى على أنها فعل؛ لأنها تنتهى بـ (ent) والـ (ent) هى نهاية الأفعال المصروفة مع الضمير هم/هن ليست فعلاً لكنها ظرف بمعنى حقاً (المترجم).
(٣) تنتهى أفعال المجموعة الأولى فى اللغة الفرنسية بـ (er) والكلمة هنا محرفة وليست صحيحة.. لقد اختلقها المدرس بناء على إجابة التلميذ.. وما بعدها تصريف للفعل المختلق مع الضمائر (أنا/أنت/هو). (المترجم).

Je vraie ..Tu vraimes..Il vraie

الإجابة العبثية تُميز بتزييفها بما لا ينبثق عنها من مساعي الاستدلال غالباً.. وبشكل آلي.. تقتصر على فعل منعكس.. التلميذ لا يُخطئ.. إنه يجيب بأى شيء مُطلقاً من إشارةٍ مَهْمَا كانت (هنا النهاية. ent) ليس هذا فى السؤال الموجه الذى يجيب عليه.. لكن فى الحقيقة الذى نوجهه إليه.. وننتظر إجابة منه؟ يعطيها.. بدقة.. مزيفة.. عبثية.. لا طائل منها من جهة أخرى.. فى بداية حياته الدراسية كان يعتقد أن قانون اللعبة يرتكز على الإجابة من أجل الإجابة.

كان يُبرز فجأة إصبعه الممدود من مقعده..والذى يهتز من نضاد الصبر:(أنا! أنا!.. يا مُعلمتى.. أنا أعرف! أنا أعرف!)(أنا موجود! أنا موجود!).

وكان يجيب بأى شيء.. لكن بسرعة جداً.. نتألف معاً.. نعرف أن المدرس ينتظر منا إجابةً دقيقة.. من المعروف أننا لن نشترىها من المتجر حتى ولو كانت مزيفة.. ما من فكرة لما كان عليه أن يجيبنا.. تماماً لو أننا فهمنا السؤال الذى يوجهه لنا.. أأستطيع أن أذكر هذا للمدرس؟ إلى أن أختار الصمت؟ كلاسقطتُ جانباً يا سيدى؟

اعتقدوا أننى أتأسف له.. جرّيتُ الصدمة.. كان هذا فى وقت متأخر.. ذاك كل شيء.. ضع لى صفراً ولنظل أصدقاء طيبين.. الإجابة العبثية تنشئ الاعتراف الدبلوماسى للتجاهل الذى رغم أى شيء يبحث عن تثبيت الصلة.. بالتأكيد.. تستطيع الإجابة

العبيثية أيضاً أن تُعبّر عن عصيانٍ مُميّز: يكسر
أقدامى.. هذا المدرس يدفعى داخل خنادقى. هل
أوجهها إليه.. هذه الأسئلة.. أنا؟

فى كل حالات المشهد.. تدوين هذه الإجابة عن
طريق تصحيح استفهام مكتوب - على سبيل المثال هو
قبول تدوين أى شىء.. ومن ثمّ يقتطف بنفسه فعلاً
تربوياً عبثياً. هنا.. تلميذاً ومدرساً يُظهران أكثر أو
أقل الرغبة نفسها بوعى: الإقصاء الرمزي للآخر.
مجيئاً بأى شىء على السؤال الذى يوجهه لى
مُدرسى.. أكف عن اعتباره مدرساً.. إذ يصبح هو
البالغ الذى أداهنه أو الذى أقصيه بواسطة العبث.
موافقاً على أخذ الإجابات العبيثية المزيفة لتلميذى أكف
عن اعتباره تلميذاً.. إذ يصبح موضوعاً خارج الموضوع
الذى أنفيه فى كواكب الصفرا السرمدى. لكن.. إلى
جانب هذا.. أقوم بنفسى بإلغائى كمدرس.. وظيفتى
التربوية تتوقف على مقربة من هذه الفتاة أو من هذا
الفتى اللذين يرفضان أن يلعبا دورهما كتلميذَيْن حين
أُشرع فى ملء بطاقتهم الدراسية.. يمكننى دائماً أن
أستنتج نقص الأساسيات لديهم. التلميذ الذى يعتبر
الظرف (vraiment) فعلاً من أفعال المجموعة الأولى
ألا يفتقر بغرابة إلى الأساسيات؟ بالتأكيد. لكن
المدرس الذى يتظاهر زيفاً بتشبثه بإجابة عبثية بوضوح
أهو جدير بالعكوف على مقامرة؟

على أى حال.. هو عرضة لخسارة أمواله فى
هذه المقامرة.. للمخاطرة فيها بزمان تلاميذه

الدراسي.. لأن التلميذ الكسول.. هو نفسه.. كواكب
للصفر.. لقد سَلَّم بهذا (يعتقد)

إنها قلعة لن يطرده منها أحد. يُدعمها مَكُوماً
العبث.. يُزيّنُها بتفسيرات مُتغيّرة وفَقَّ عمره..
مزاجه.. نزعتَه .. وسطه الاجتماعي.. طبعه: (أنا
غبيّ جداً).. (لن أصل إليه أبداً).. (لن يستطيع
المدرس أن يشعر بي).. (أنا حاقِد).. (يُمكن
برأسي).. إلخ.. إنه يُغيّر وجهة مسألة التعليم على
أرض العلاقة الشخصية المُلتبسة حيث يصبح كل شيء
مسألة نَزَقٍ.. كذلك ما يفعله المدرس.. مُقتنعاً أن هذا
التلميذ يقوم بفعل هذا عمداً؛ لأن ما يمنع المدرس من
الإمساك بالإجابة العبثية من أجل نتيجة مدمّرة للفكر
السحري.. هو في أغلب الأحيان الشعور الذي
يستهيئ به التلميذ عن قصد مذ ذاك.. ينزوي المعلم
في [y] الخاص به: (برفقة ذاك.. لن أصل إليه
أبداً).

ليس ثمة مدرس معصوم من هذا النوع من
الإخفاق. إنني أصونه من آثار الجراح العميقة. إنها
أشباهي الأسرية.. الوجوه المترددة لهؤلاء التلاميذ
الذين لم أعرف أن أخرجهم من [y] الخاص بهم..
والذين احتجزوني داخل الـ [y] الخاص بي هذه
المرة.. لم أتمكن من فعل شيء فيها.

- آه.. أخيراً!

- ماذا.. أخيراً؟

أعرفُ هذا الصوت. إنه يتسكَّعُ داخلي منذ
السطور الأولى لهذا الكتاب. إنه يترصد في كمين.
ينتظر فُرْجةً ما. إنه التلميذ الكسول الذي كنته.
متيقظ دائماً. اليوم هو أكثر ميلاً من بعضي إلى حمل
نظرة ناقدة لنشاطي كمدرس. لم يستطع أبداً أن
يخلصني من ورطة. لقد شِخْنَا معاً.

- أخيراً ماذا؟

- أخيراً نصِلُ إلى الـ [y] الخاص بك! الـ [y]

الخاص بك كمدرس. منطقة عدم كفاءتك. لتقرأه إلى
الآن.. لقد ملأكتني سَمَتَ المدرس الذي لا شائبة
فيه. قل إذا!

قل إنني أنقذك من كل تشوهات الإبداع.. إنني
أملأ لك كل واحد فيها بأدب لا يُنسى.. إنني أعيد
إليك كل العقول الأكثر غموضاً إلى عقول منهجية!

ما من إخفاقات إذا؟

...

. صَبَى عَلَامَ (هَذَا لَا يَأْخُذُ). هَذَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ
أَبْدًا؟

مَا مِنْ مُنْتَقِمٍ صَغِيرٍ يَصْعَدُ ثَانِيَةً مِنْ لُجَجِي كِي
يُوقِظَ أَشْبَاحِي!).

وَكُلٌّ عَلَى مَا يُرَامُ تَظْهَرُ ثَلَاثَةُ وَجُوهٍ فِي الْحَالِ.
ثَلَاثَةُ وَجُوهٍ مِنْ قَاعِ الْفَصْلِ. فِي السَّنَةِ النَّهَائِيَّةِ. لَدَيْهَا
الْعَشْرَاتُ مِنَ النِّقَاطِ لَتَلْحَقَ بِبِكالُورِيَا اللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ
لَكِنْ تَظَلُّ مُحْكَمَةً السَّدِّ تَمَامًا لِمَا أَقُولُهُ لَهَا عَنْ كَامِي^(١)
الَّذِي كَانَ عَلَيْهَا أَنْ تُقَدِّمَ رِوَايَتَهُ الْغَرِيبَ. وَجُوهٌ حَاضِرَةٌ
فِي كُلِّ الدَّرُوسِ لَكِنْ فِي مَكَانٍ آخَرَ كَلِيًّا. ثَلَاثَةُ غُرَبَاءَ
مَعِينِينَ. إِلَى مَنْ لَمْ أَسْتَطِعْ أَبْدَأُ أَنْ أُنْتَزِعَ أَدْنَى دَلِيلٍ
عَلَى مَنْفَعَةٍ مَا؟ وَمِنْهَا ضَيْقُ الصَّمْتِ الْخَنَاقِ عَلَى فِي
الدَّرْسِ الْمُتَقَنِّ.

ثَلَاثَةُ «مِيرَسُول»^(٢) يَخْصُونَنِي...

أَصْبَحْتُ هَذِهِ الْوُجُوهَ نَوْعًا مِنَ التَّصَوُّرِ الْقَسْرِيِّ.
لَمْ يَكُنْ بَاقِي الْفَصْلِ يَكْفِي لَأُنْتَزِعَهَا مِنَ الْعَيْنِينَ.
- أَهَذَا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ؟

... -

- أَهَذَا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ؟

أَلَيْسَ هُنَاكَ سِوَى هَذِهِ الْوُجُوهِ الثَّلَاثَةِ ؟

(١) كَامِي (الْبِير كَامِي) (١٩١٢ - ١٩٦٠م) أَدِيبٌ وَفِيلَسُوفٌ فَرَنْسِيٌّ
مِثَالِي، مِنْ أَعْلَامِ الْوُجُودِيَّةِ وَمِنْ أَهَمِّ أَعْمَالِهِ.. «أَسْطُورَةُ سِيزِيف»
و«الْمُتَمَرِّد».

(٢) مِيرَسُول: اسْمُ شَخْصٍ يَعْرِفُهُ الرَّاوِي وَهَذَا يَقْصِدُ ثَلَاثَةَ أَشْخَاصٍ
يَحْمِلُونَ هَذَا الْاسْمَ. (الْمُتَرْجِم).

كلا.. هناك ميشيل فى الصف الثانى.. سبعة عشر عاماً ويزيد.. طُرد حيث كان.. تجمّد على وصيتى التى تُحصّن فى وقت قياسى اضطراباً هائلاً فى المؤسسة وينتهى بانفجار على مرأى من عينيّ (لكن لم أطلب منكم أبداً.. ببس الرديء!).

قبل الاختفاء داخل [أنا] لا أعرف أى حياة.

- أتريد آخرين منهم؟ جماعة من صفار اللصوص الذين يسطون على كبرى المحلات رغم دروسى الأخلاقية.. أيرضيك هذا؟

- لنفترض أن هذا سيتحسن ونحن نتقوه به.

- أيجعلك هذا ترى.. أعرفه جيداً.. سرورك سرور إنسان بلا قيمة لجعل الدروس فى العالم كله لى أنى أصفيت إليك.. ما كنتُ علّمتُ أحداً.. كنتُ سأستيقظ مبكراً جداً ذات صباح كى أتنزه على شاطئ لاجُود.

ضحك ساخر:

- نتيجة.. أنا هناك دائماً.. معك.. يمشى التلميذ

الكسول بانحراف ويتعلق ب.. قضية علم الاشتقاق...

ختام محادثتنا. إلى: إلى اللقاء يتوارى داخل

أعماقى.. تاركاً لى بعد كل حساب ندم دروس تم تحضيرها على عجل.. عدد كبير من الكراسات التى تُعاد إلى أصحابها متأخرة على الرغم من تصميمى... [Y] المدرس الخاص بنا.. المكان مغلق من تعبنا العنيف حيثما نأخذ معيار تنازلنا. سجن متسخ. ندور

فيه دائرياً.. عادةً.. ونحن مهمومون بالبحث عن
الجنة أكثر من همنا بالعثور على حلول.

نعم.. نُصَفَى إلى طنين تجمُّعنا التَّربويّ النّشيط..
حالما تخمد همّتنا.. يصل بنا شغفنا إلى البحث عن
المُذنبين أولاً. تبدو التربية الوطنية منتظمة في أماكن
أخرى من أجل أن يستطيع كل منا أن يشير إلى ما
يخصه منها بكل سهولة:

— لم تعلّمهم الحَضَانَةُ إذاً أن يمكثوا؟

يسأل مدرس المدارس الابتدائية أمام أطفال
صغار مضطربين ككُرات البليار.

— ماذا صنعوا في الصف الأول؟

يتضجر مدرس المدرسة الإعدادية وهو يقابل
تلاميذ الصف السادس الذين يعتبرهم أميين.

— أيسطيع شخص ما أن يقول لي ما الذي
تعلّموه حتى وصلوا إلى الصف الثالث؟

يتعجب مدرس المدرسة الثانوية أمام ميل تلاميذه
في الصف الثاني للكلام دونما مفردات.

— إنهم حقاً يجيئون من المدرسة الثانوية؟

يتساءل برفيسور الكلية وهو يدقق في حزمة من
كراساته الأولى.

- بيّنوا لى ما الذى تفعله فى الجامعة؟
يُرْعَد صاحب العمل الصناعى فى مواجهة فتياه
الْمُرْهَقِينَ.

- تُكوّن الجامعة ما يتمناه نظامكم تماماً.. يجب
المنتسب الحديث غير الغبى جداً: عبید أميُون وعملاء
أعمياء!.

المدارس الكبرى تُعلّم مراقبى عمّالكم . معذرة
(موظفيكم الإداريين) ..ومساهموكم يجعلون اللوح
الخشبيّ يدور مع أرباح الأسهم.

- تخلىّ العائلة عن دورها.. تأسف وزارة التربية
الوطنية.

- لم تعد المدرسة كما كانت.. تتأسف العائلة. إلام
تنضم القضايا الداخلية فى كل مؤسسة تحفظ ماء
وجهها نزاع القدماء الأزلّى والمحدثين.. على سبيل المثال:
خزىّ لـ (مريّين البلداء)!. يصيح نُقّاد الفوغائية
(الجمهوريون) (*).

- فليسقط الجمهوريون النخبويّون! .

يهاجم بشدة المُرّيون باسم الثورة الديمقراطية.

- النقابات تعضّ الآلة! يدّعى موظفو الوزارة.

- نضل ساهرين! ترد النقابات.

- نسبة مئوية مشابهة من الأميين فى الصف

السادس.. لم يكن يحدث هذا فى زمنى.. يأسف
الحرس القديم.

(*) نسبة إلى الحزب الجمهورى فى أمريكا وأوروبا. (المترجم).

.. لم تكن المدرسة الثانوية فى زمننا تتلقى إلا
بعض النصائح من الهيئات الإدارية ذات السروال
القصير.. يتهم المهرج.. كان هذا هو الزمن الجميل..
أليس كذلك؟

- كل البورتريهات هى لأملك.. أيها الصبى؟
ينفجر الأب الغاضب مُهدداً.

- لو كنتَ أقل قسوة فى تعاملك معه.. ما كان
ليكون هناك لتردّ الأم المُستاءة.

- كيف أعمل فى مناخ عائلى كهذا المناخ؟
ينوح المراهق المُحبَط فى أذنّى المدرس المتسامح..
حتى التلميذ الكسول.. هو بنفسه.. الذى بعد لجوئه
إلى القسوة المنهجية كى يُرسل مُدرسه يُعالج فى
المستشفى من انهيار عصبي طويل.. هو أول من يُبين
لكم بلطف:

- سيدى أونتل كان ينقصه التأثير.. وإن لم يكن
كل هذا يكفى.. فلدينا دائماً الحيلة لنشير إلى مَنْ منا
يرتدى قبعة قصورنا المعرفى:

- لم أتمكن من شىء.. أنا هكذا.. كان يكتب إلى
أمه التلميذ الكسول الذى كنته وهو يسأل ما إذا كنا
نُفينا المستر هيد الذى لم يمنع جيكل من أن يكون
دكتوراً جيداً إلى أبعد مكان فى قارة إفريقيا فلنصنع
شياً رائعاً منعشاً.. المُدرسة شابة.. مستقيمة.. ليست
مثقفة.. ولا هى مسحوقة بثقل القضاء والقدر..
حاضرة هى تماماً.. وفصلها ملء بكل التلاميذ..

آباء.. زملاء.. وأرباب عمل فرنسا ونافار.. إلى من يتلاقون - أضفنا عدة مقاعد - الوزراء العشرة الأوائل للتربية الوطنية.

- حقًا. لم نتمكن من شيء؟

تسأل المدرسة الشابة والفصل لا يجيب.

- جيد ما سمعته منذ قليل؟

(لم نتمكن من شيء؟)

صمت.

حينئذ.. تمد المدرسة الشابة قطعة طباشير للوزير الأخير وهو لا يزال في منصبه وتطلب:
- اكتب لنا هذا على السبورة: لم نتمكن من شيء..

- أنا لستُ من قال هذا. يعترض الوزير. بل هم موظفو الوزارة!

إنه أول شيء يعلنونه لكل قادم جديد: (مهما يكن من أمر.. يا سيدي الوزير.. لم نتمكن من شيء!)
لكني.. مع كل الإصلاحات التي اقترحتها لم أستطع أن أرتاب من قول شيء مماثل!

ليس هذا - بعد كل حساب - خطئي لو أن عدداً من الأثقال يمنع نبوغى المصلح من التعبير عن أفكاره!
- قليلون من قالوا هذا.. تجيب الشابة المدرسة المبتسمة.. اكتب لنا هذا على السبورة:

لم نتمكن من شيء / On n'y peut rien

On y peut rien.

- أضيف n ص أمام .. y هذا الـ n ص يُعتبر
مُشكلة وليس إلا قليلاً!

On n y peut rien

ممتاز ماذا يكون هذا الـ $[y]$ في نظرك؟
- لا أعرف.

- إذا.. يا أصدقائي الجيدين.. يجب تحديداً أن
نجد ما يريد أن يقوله هذا الـ $[y]$.. وإلا.. نكون
جميعاً سيئين.

٤

أَنْتَ تَفْعَلُهَا عَمَدًا

لَمْ أَفْعَلْهَا عَمْدًا

- ١ -

فيركور.. الصيف الماضى. نحتسى جرعةً من
خمر.. (١) V وأنا.. على رصيف لا باكسول.. ونشاهد
فى استرخاء قطيع ماشية جوزيت لدى عودته من
الحقول. V الذى أصبح مثلى فى سن التقاعد يسألنى
عما أكتب فى هذه اللحظة. أخبره به.

- آه! التلميذ السيئ! وعلى ذلك أعرف عنه
شعاعاً.. لأنى لم أكن سهماً فى المدرسة.. إنه أنا من
يقوله لك.

ذات زمان.

- تَرَكْتُهُ بمجرد أن استطعت.. فى أماكن أخرى.
أوه.. هناك!.

تتبع جوزيت الأبقار وهى فوق دراجتها (٢).
تتحصن باثنتين يرتديان حذاءين أبيضين.

- كنتُ غيبياً.. يواصل.. V لكن ماذا تريد.. فى
هذا العمر لا نسمع سوى دَمِنَا.

(١) أحد أصدقاء المؤلف لکه لم یُصرَح باسمه. (المترجم).

(٢) المعنى القاموسى لهذه الكلمة هو الأرجوحة. لكنها هنا تستخدم
كاسم علم لأحد الأماكن. (المترجم).

ذات زمان.

- لأن هذه لها فائدتها.. إنها المدرسة! لو كنتُ بقيتُ فيها.. بدلاً من أن أُبقر بطنى من أجل أن أربح ثلاثة فلّسات (*). لكنتُ اليوم رئيس عمل.. كنتُ أقود أشخاصاً متعدّدى الجنسيات!.

مساء الخير يا جوزيت!.

... -

- أود أن أقول.. كنتُ سأقودهم إلى شفا الكارثة.

وحين أرسلهم إلى القاع سأرحل بصحبة شيك ضخّم وتهنّئات الرئيس مرّ القطيع.

. بدلاً من هذا...

يفكر . ٧ يبدو مُبتلاً بالسيرة الذاتية.. لكنه أقلع عنها:

. أخيراً. لم أفعّلها عمداً...

يتوقف برهةً على هذه البيّنة.

. دون مزاح. كانوا يعتقدون أنني فعلتها عمداً.. لكن كلا!.

كنتُ كَجِرَوٍ صغير.. كنتُ سأركض وراء خَطْمى.

(*) الفلم: هو جزء من عشرين جزء من الفرنك العملة الفرنسية قبل استخدام العملة الأوروبية الموحدة / اليورو (المترجم).

الحقيقة أن أحد الاتهامات الأكثر تكراراً، والتي تُلقِيها الأسرة والمُدرسون على التلميذ الكسول هو(أنت تفعلها عمدًا!) التي لا مفر منها. إما اتهام مباشر (لا تحك حكاية.. أنت فعلتها عمدًا).. إما سُخط متتابع بتوضيحات شتى (لكن.. هذا ليس ممكناً.. أنت تفعلها عمدًا).. وإما معلومة مرصودة لثالث.. أن المُشتبه فيه سيحوز مفاجأة.. فلنقل.. ونحن نُصغى إلى باب والديه (أقول لك إن هذا الصبي يفعل لها عمدًا!).

كم مرة سمعته بنفسى.. وفيما بعد تلفظت به.. هذا الاتهام.. إصبع ممتد نحو التلميذ أو نحو ابنتى أنا حين كانت تتعلم كيف تقرأ.. لو أنها تلعثمت قليلاً. إلى اليوم الذى فيه فكرتُ فيما كنتُ أقوله هناك.

أنت تفعلها عمدًا.

فى كل حالات المجاز. نَجْمُ الجملة هو الظرف (/ *expres* عمدًا). هو فى مملكة النحو شريك بشكل مباشر للضمير (tu / أنت). أنت عمدًا! أما الفعل

(faire / يفعل) فهو فعل ثانوى والضمير الشخصى
[le] (*) لا لون له كليةً.

المهم.. ما يرنُّ فى أذن المتَّهم. إنها حقيقةٌ هذه الـ
(أنت عمداً).. التى تجعله يفكر فى سبابة ممدودة.
أنت المذنب..

المذنب الوحيد..

والمذنب عن قصد.. مع هذا..

هكذا تكون الرسالة.

الـ (تفعلها عمداً) التى يقولها البالغون تهبط أثناء
(لم أفعَلها عمداً) التى يقولها الأطفال، والتى تُشى
بغباء موظَّف ذات مرة.

معروضةٌ بحِدَّةٍ لكن دونما توهّماتٍ كبرى.. تقود
تلقائياً (لم أفعَلها عمداً) تقريباً إلى إحدى الإجابات
التالية:

– آمل تماماً..

– سعيداً أيضاً..

– كان يخفق أكثر من هذا..

هذا الحوار المعكوس ليس مؤرّخاً بيوم أمس.. وكل
بالغى العالم يجدون جوابهم الروحانى على أية حال
للمرة الأولى فى (لم أفعَلها عمداً).. يفقد الظرف
(exprès / عمداً) قليلاً من قدرته.. فيما لا يكتسب
الفعل (faire / يفعل) منها شيئاً.. بل يمكث نوعاً من
(*) هنا يحل محل مفعول مباشر مفرد مذكر وتتوب عنه الهاء فى
تفعلها (الترجم).

الأفعال المساعدة.. (*) والضمير [le] يعد دائماً سهلاً. ما يبحث المذنب لجعله يرنُ في آذاننا. هنا.. هو الضمير (je / أنا) المشارك لـ (pas / لا) في النفي. على (أنت عمداً) الخاصة بالبالغ تجيب الـ (أنا لا) الخاصة بالطفل.

ليس ثمة فعل. ولا ضمير مفعول. ليس ثمة سوى أنا. في هذا المكان. هذا الـ (je / أنا). متأسفةً على هذه الـ (pas / لا). مَنْ يقول ماذا. في هذا الشأن.. أنا لا أملك نفسي.

- لكن طبعاً سوى لو.. كنت فعلتها عمداً..

- لا.. لم أفعّلها عمداً..

- أنت عمداً..

- أنا لا..

حوار الطُرشان.. حاجة لانتعال حذاء في لمسة.. لتأخير النهاية. نفترق دون حلّ ودون توهّمات.. بعضنا مقتنع بألا يكون مُطيعاً.. وبعضنا الآخر مقتنع بألا يفهم.

هنا يستطيع النحو أن يبدو مفيداً أيضاً.

لو كنا نرضى - على سبيل المثال - بالاهتمام بهذه الكلمة المهجورة والتي لا تُرى في ميدان الجدل.. هذا الـ [le] الذي جذب سراً كل خيوط حوارنا. هيا.. ثمة تدريب نحوى صغير على الطريقة القديمة.. تحديداً لنرى كيف كنتُ أفعّله مع (مُهيّأتى).

(*) الأفعال المساعدة في اللغة الفرنسية تساعد في تكوين الأزمنة ولا يكون لها معنى في هذه الحالة (المترجم).

- من يستطيع أن يقول لى ماذا يكون هذا ال
فى [le]

(tu le fais exprès)

- أنا..أنا! إنها أداة يا سيدى!.

- أداة؟ لماذا أداة؟

- لأن le..la ..les يا سيدى! إنها أداة تعريف
حتى! بنبرة الانتصار. أرينا للمدرس أننا كنا نعرف
شيئاً ما.

le..la..les.. أدوات النكرة.. و Un..une..des..

أدوات المعرفة. هى ذى.. المسألة تلتوى.

. آه.. حسناً! أداة تعريف؟ وأين أيها العفريت

يوجد الاسم الذى تُعرفه هذه الأداة؟

- ...

نبحث.

ليس ثمة اسم.

حيرة.

ليست أداة.

ماذا يكون هذا ال [le]

- ...

- إنه ضمير يا سيدى؟

- أحسنت. أى نوع من الضمائر؟

- ضمير شخصى!.

- لكن أيضاً؟

ضمير مفعول.

- حسنًا. جيد جدًا. هو ذاك. الآن نترك الفصل ونعود إلينا نحن.. فلنحلل ضمير المفعول هذا فيما بين البالغين.

باحتراس. إنها كلمات خطيرة.. ضمائر المفعول.. سمات ضد شخصية تُدفن تحت المعنى الواضح والتي تقفز في الوجوه لو أننا لم تنتزعها هذا الـ [le] على سبيل المثال.. كم مرة تساءلنا. ناطقين الاتهام (أنت تفعلها عمداً).. ما الذي يعبر عنه ضمير المفعول بالنظر إلى ذلك؟ تَعَمَّدَ عَمَلٌ ماذا؟ الغباء الأخير.. [le] في الأهمية؟

لا.. النبيرة التي ألقينا بها هذا الاتهام (لأنه توجد نبيرة أيضاً) تجعلنا نسمع بوضوح أن المذنب يفعلها عمداً دائماً.. أنه في كل مرة يفعلها عمداً.. أن هذا الغباء الأخير هو تأكيد لتصلب الرأي هذا حينئذٍ.. تَعَمَّدَ عمل ماذا؟

ألا تُطيعني؟

ألا تعمل؟

ألا تفكر؟

ألا تفهم؟

ألا تحاول الفهم حتى؟

أن تعارضني؟

أن تسخطني؟

أن تغيظ مُدرسيك؟

أن تُحزن والديك؟

أن تخضع لأردأ ضعف فيك؟

أن تدمر مستقبلك وأنت تُفسد حاضرك؟

أن تسخر من الناس؟

هو ذاك.. ما هو؟.. أتسخر من الناس؟ أثيرنا؟

كل هذا.. نعم.. لو نريد.. فلنقبل..

حينئذ يُوجّه سؤال الظرف.. لمَ عمداً؟ فى أى

ختام؟

لأى سبب يفعل هذا؟ عليه أن يتتبع جيداً هدفاً

بحيث يفعله عمداً.. عمداً من أجل ماذا؟

ليتمتع باللحظة؟ يتمتع باللحظة بكل بساطة؟ لكن

اللحظة التالية والتي لا مفر منها.. تلك التي يقضيها

برفقتى.. هى أسوأ ربع ساعة.. بما أنتى أوبّخه لربما

يريد أن يعيش بسلام فى حالة الكسل.. غير مكترث

بالتوبيخات؟ نوع من المتّعية(*)؟ كلا.. هو يعرف جيداً

أن سعادة عدم فعل شىء تشتت نظرات الازدراء.. أو

التوبيخات القاطعة.. التي تُحدث تقززه من نفسه.. إذا؟

لماذا يفعلها عمداً مع ذلك؟ كى يجذب احترام التلاميذ

الكسالى الآخرين؟

لأنه ثابر.. أكون هذا غدراً من وجهة نظرهم؟

إنه يلعب عن قَصْد السيئين ضد الجيدين..

الشباب ضد المُسنين؟ إنها طريقته هو للاندماج فى

المجتمع؟

(*) مذهب يقول بأن اللذة والسعادة هى الخير الأوحد أو الرئيس

فى الحياة (المترجم).

إن نريد . على أى حال .. هى الأطروحة المفضلة
للحدثاء: قَبَلِيَّة عدم الكفاءة .. فرار كل التلاميذ
السيئين فى مستنقع فسيح حيث يتجمهر الأوباش .
أطروحة لديها خزانة بها هذا التفسير الذى يستريح
على حقيقة اجتماعية مؤكدة .. الظاهرة موجودة ..
دون أدنى شك . لكن الأطروحة تُجلى الشخص .. دائماً
منفرد .. من الصبى الذى .. ظاهرة الجماعات أم لا ..
يلتقى وحيداً فى لحظة أو فى أخرى .. وحيداً فى
مواجهة إخفاقاته .. وحيداً فى مواجهة مستقبله ..
وحيداً .. فى المساء .. فى مواجهة نفسه .. قبل أن
يذهب لفراشه . فلنتأمله إذاً . نشاهده وحيداً . من
يستطيع أن يراهن بسنتيم (*) على شعوره
بالرفاهية؟ من يستطيع أن يَشْكُ فيه بصدد يفعلها
عمداً؟

أنت تفعلها عمداً ...

ثمة افتراض:

أستطيع بالرغم من كل قاعدة نحوية أن يشير
الضمير (le) أيضاً إلى شيء ظاهريّ فى الجملة؟
نحن أنفسنا على سبيل المثال ... تَقَهَّر صورتنا
فى أعيننا نحن . صورتنا .. التى إلى حد ما تحتاج هى
أيضاً .. إلى مرآتها الجيدة . ضمير (le) الذى يتهم
الآخر . هنا الفاعل السيئ . بإرساله لى صورةً بالغ
عاجز وقلق . ضحية عدم قبول الدعوى المُبهم .

(*) جزء من مائة من الفرنك الفرنسى سابقاً . (المترجم) .

الله يعلم رغم ذلك أنهم أسوياء.. الأخلاق التي
أريد أن أرسّخها في ذهن هذا الطفل! ويُقرّ شرعاً
بالمعرفة التي أوزعها على هذا التلميذ!.

على عزلة الطفل ترد عزلتى الخاصة بى كبالغ.
أنت تفعلها عمداً.

وحين يَعمى فصلاً كاملاً.. حين يروح نحو
ثلاثين تلميذاً فى فعلها عمداً.. يجرب المدرس الذى
أكونه شعوراً جلياً لأن يصبح مادةً للسَّحْل الثقافى. ولو
أن هذا الـ (le) أحزن جيلاً كاملاً - (كان هذا غريباً
عن زمنى!).. لو أن أجيالاً متعاقبة فعلتها عمداً..
حينئذٍ نعيش كوكلاء أخيرين لنوع على وشك
الانقراض.. الباقون من العصر السابق حيث مرحلة
الشباب (نحن أنفسنا.. فى ذاك الزمن) كانت
متسامحة معنا.

ونحن نشعر جيداً بمفردنا فى حياة كهولتنا.. أننا
دائماً نأقبو الفكر طبعاً.. يقظون وكيف!.

أكفاء إلى أى مدى! فيما بيننا إجمالاً.. كأننا كنا
شباباً.. نحن بعض الشهداء على العصور المتحضرة..
نحن الذين نواصل التفكير بدقة.. مستبعدون مما
أصبح.. على الرغم منا.. من الواقع.
مُسْتَبْعَدُونَ...

لأن شعور الاستبعاد لا يُحزن فقط السكان
المُبْعَدِينَ بعد ذلك من الدائرة المُحِيطة.. إنه يهددنا
نحن أيضاً.. أكثرية السلطة منذ أن كفنا عن فهم

جزء صغير مما يحيط بنا.. منذ رائحة الاستهجان
أنتت هواء زمننا.

يا له من اضطراب نجره إذا..
وكأنه يدفعنا إلى أن نشير إلى المذنبين.
- أنت تفعلها عمدًا..

ضمير صغير جدًا جدًا من أجل العزلة إلى حد
ما..

جملة اعتراضية بصدد شعور الاتهام هذا
الخاص بالأكثرية القلقة. حين كنتُ مراهقاً.. كنا على
أى حال اثنين لنفعلها عمداً. بابلو بيكاسو(*) وأنا.
النايفة والتلميذ الكسول. لم يكن التلميذ الكسول يفعل
شيئاً وكان النايفة يفعل أى شيء.. لكن عمداً.. كلا
الاثنين. كانت هذه هى النقطة الوحيدة التى نشترك
فيها معاً. غالباً.. حول موائد يوم الأحد.. كان البالغون
يَدمون بيكاسو: بشع!.

رسامٌ للمتخذلقين!.

الـ (أى شيء) المُشيد فى فن عظيم...

رغم هذا العصيان كان بيكاسو يتدفق كطحلب:
رسماً.. تصويراً.. نقشاً.. خزفاً.. نحتاً.. ديكوراً
مسرحياً.. وحتى أدباً.. لقد أتقن كل هذا.
- كان يبدو أنه يعمل بأقصى سرعة!.

(*) بيكاسو «بابلو بيكاسو» (١٨٨١ - ١٩٧٣م) رسام إسباني، من
أشهر رسامي العالم استلهم فكرة التكعيبية من دراسة سيزان
إلى جانب الفن البدائي والنحت الإفريقي، ثم أرمى أعمدة
المدرسة التكعيبية مع نظيره جورد بروك ومن أشهر أعماله لوحة
«الجرينكا» و «مأساة كوربا».

إحدى هذه الطحالب الولودة جاءت من محيط
ضخم جداً لتلوث خلجان الفن الهادئ.

- إنه سبٌ لذكائى! لن أقبل أبداً أن يسخر أحد منى.
إلى درجة أننى ذات يوم أحد قمتُ بدور المدافع
عن بيكاسو وأنا أسأل السيدة التى أتت لتكرر هذا
الاتهام لمرات لا تُحصى: ماذا كانت تعتقد بإنصاف فى
ذلك الصباح لو أن الفنان أفاق على فكرة عمل شئ
دون إتقان وصنع لوحة صغيرة بقصد أن يسخر وحده
من السيدة جينيقيف بليجرو. الحقيقة أن هؤلاء
الناس المقدامون كانوا يبدأون فى تكبد إحساس
الاتهام.. كانوا يدخلون فى عزلة. لقد منحوا الرسام
مهارة انطواء فظيعة. كان المشعوذ يُجسّد له بمفرده
عالمًا جديداً.. مُهدداً إياه فى اليوم التالى.. حيث كانت
عشيرة بيكاسو يُحوّلون كل البليجرويين(*) إلى شخص
واحد.. بل وأيضاً ساذج.

- وبعد.. ليس أنا! أنا.. لن يُسيطر علىّ!

كانت جينيقيف بليجرو تجهل أن المعدة.. كانت
هى.. التى راحت تهضم بابلو بيكاسو كالباقين.. ببطء
طبعاً.. بل بلا رحمة.. إلى الحد الذى كان أحفادها
يركبون بعد أربعين عاماً إحدى السيارات العائلية
المصممة بشكل قبيح للغاية.. هى فتيل عملاق يمنحه
أحفاد بليجرو الجدد اسمَ الفنان.. والذى كان يقدم لهم
ذات يوم أحد جميل حَكَّة ثقافية.. على أبواب متاحف
بيكاسو.

(*) إشارة إلى كل من يَمُتُ للسيدة جينيقيف بليجرو بصلة
قربة (المترجم).

— ٤ —

نوايا الأكثرية ممن بأيديهم مقاليد الأمور
شرسة... آه!.

مؤيدو قانون.. ومهما كان: قانون ثقافى.. قانون
عائلى.. قانون مُنشأة.. قانون سياسى.. قانون دينى..
قانون قبيلة.. نادٍ.. جماعة.. حى.. قانون الصحة..
قانون العضلات أو قانون المخ.

كأنَّهم ينكمشون ما إن يَشْمُوا ما لا يُدرك..
حُرّاس القانون.. كأنهم يعيشون فى مقاومة آنذاك..
ثمة من يُعاهدهم بمفردهم فى مواجهة دسيّةٍ عامّة!..
هذا الخوف من كونهم مُهدّدين بما يخرج من
حوض الجلود.

آه.. شراسة القوى حين يُمثّل بالضحايا!..
الثرى حين يُعسّكر الفقر أمام بابه!..
الزوجين المختومين أمام طلاق العائلة الصادم!..
الجنود حين تشم التشتت!..
المؤمن ضارباً الكافر!..
حامل الشهادة مُحترماً الغيبى الذى يتعذر سبْر
أغواره!.

المتكبر الأبله بكونه مولوداً في مكان ما..
وهذا يُساوى بالنسبة إلى زعيم الضاحية
الصفيراتهم العدو على رصيف المواجهة.. كأنهم
يصبحون خطرين.. أولئك الذين فهموا القوانين..
حتى الأطفال لابد وأن يرتابوا منهم.

لم أقدره بشكل أفضل أبداً إلا ذات صباح من صباحات العُزلة.. لم أقدر الخوف الشرير لمن يشعر أنه مَقْصَى.. وهو يواجه الذين يكونونه حقاً. فى ذاك الصباح.. لم أستيقظ.. مینفى مكان ما فى الجنوب.. الغربى.. تزور تلاميذ مدرسة ثانوية فنية فى منطقة تولوز. كاتبة مدعوّة. هذا الصباح.. إذا.. ليس ثمة استيقاظ عاشق تحت رعاية الكافيين. على أن أباشر فى التو كتابى.. لكن.. إطلاقاً.. أبقى فى سريرى.. أنظر فى الفراغ.. مثلما كنتُ قديماً أمام الواجب الذى لم أؤدّه (لا تُزعجوا الصغير.. إنه يعمل). أخيراً.. أشعل المذياع. موجتى المفضلة. إنه يوم وساعة واحد من برامجى المفضلة. مرةً أسبوعياً.. تتقابل عقول مُكلّفة رسمياً تتحدث اليوم بنبرة نادرة جداً عن أناس لا يملكون شيئاً ليبيعهوه. فى البرنامج نتبادل بتمهل بعض الأفكار فى معرض دراسات كتبناها منذ قليل.. إحالات ذكية إلى ما قرأناه. بالضبط.. ما أنا بحاجة إليه فى صباح التكاثر هذا.. سأفكر من أجلى. لا تقل لأحد.. سأستهلك الفكر بتوان بقدر ما أستمع إلى أول مسلسل قادم. لذيذ. يسيل لعابى على

موسيقى المقدمة.. وأتركنى منذ المقدمة أنزلق داخل
حلبة العبارات.. أعلو بفتور بواسطة حلزونيّات إقامة
الحُجة.. وأشعر بأننى على ما يُرام.. فى أرض
المعرفة.. مطمئناً بدمائة الأصوات.. بليوننة الأسلوب..
بوكيل الكلام.. برصانة النبيرة.. بحدة التحليلات..
بالبيشاميل^(١) الذى لا عيب فيه، والذى به يصنع
المشرف على البرنامج وثاقاً بين القضايا التى هى فى
حالة مواجهة.. يُهدئ الخصومات الطارئة.. ويُنمى
بوفرة فكرته الخاصة...

دائماً ما كنتُ أحب هذا البرنامج.. هو من بين
بقية البرامج.. لما فيه من مميزات لباقتة. أقوم فيه
بصقل الواقع إلى الحد الذى يُرجعه لى مقروءاً.. إن
لم يكن مطمئناً. يُتفق أن المحادثة.. فى ذاك الصباح..
تأخذ فى الدوران حول شباب [الأحياء]^(٢).

فى لحظة مُعطاة.. تتحدث أصواتى الثلاثة عن
فيلم. أُصيخ السمع. الفيلم الذى يبدو أنه آذى المشرف
على البرنامج. إنه فيلم عن الضاحية. مُطلقاً.. إنه
فيلم عن مسرحية ماريثو. مُطلقاً.. إنه فيلم عن
مشروع تريبوى. أجل.. هو كذلك.. إنه فيلم عن تلاميذ
المدارس الثانوية فى الضاحية لحظة تمثيلهم مسرحية
ماريثو تحت إشراف مدرس اللغة الفرنسية. يُسمى
التَّجَنَّب. ليس فيلماً وثائقيًا. بل فيلماً درامياً كالفيلم
الوثائقي. لا يقول الحقيقة. إنه يحاول أن يُعطى

(١) صلصة بيضاء، المشهورة. (المترجم).

(٢) الأحياء السكنية. (المترجم).

التصور الأكثر صدقاً وإمكانيةً منها . أوصى بانتباه لا سيما وأنتى رأيتُ الفيلم الذى نحن بصددده . لم أكن منفِعلاً .. رغم ذلك : فيلم عن المدرسة .. أيضاً .. وعن الذى يحدث فى الضاحية .. أكثر من مرة ...

رأيتُه .. بيد أنى بلا شك مدفوع بفضول وراثى . (أرواح الموتى للعم جول : (اذهبْ لترى التجنب .. يا ابن أخى .. لا تُناقشْ!) وقد أدّى هذا إلى لحظة مُواتية : مدرس يدل تلاميذه على طريق المسرح .. على درب أكثر الرسائل روعةً . يصعد تلاميذ الفصل لعبة الحب والمصادفة لما ريقو . نرى فيها صبياناً خَصَّصوا لهذا التمرين الطاقة والتركيز اللذين لا يُنهكان لا قصص حبهم ولا مشكلاتهم الخاصة بالعائلة أو بالحي .. ولا منافساتهم المراهقة .. ولا تجاراتهم الصغيرة .. ولا صعوباتهم اللغوية .. ولا حتى منزلة المسرح المرموقة .. فاعلية (المهرج) هذا .

خرجتُ من هذه السينيما فى حالة حماس يصحبنى يقين أجتذبه من معظم انتقالاتى فى مدارس الضاحية الثانوية : العم جول لم يمت ! .

اليوم ما زال يوجد أعمام جول وعمّات جولى الذين رغم صعوبة هذه الإنتقادات الخارقة سيبحثون عن الأطفال حيثما يكونون كى يرفعونهم إلى مستواهم هم أنفسهم عبر دروب اللغة الفرنسية الضيقة .. لغة القرن الثامن عشر بناءً على ذلك . إطلاقاً ليس هذا هو إحساس المشرف على برنامجى المفضل . هو ليس

مُطْمَئِنًّا أَبَداً. ليس ثمة أدنى حَمِيَّة. خرج من السينيما
مرعوباً من لغة شبابه ما إن كفوا عن صداقة ماريثو.
يا إلهى.. من هذه اللكثة لمن هذا النباح المتواصل! من
هذا العنف! من هذا الفقر فى المفردات! من هذه
التجشؤات! من هذا الكلام الجنسى البذئ.. من
هذى الشتائم!.

آه.. كم عانت اللغة الفرنسية بنفسها طوال هذا
الفيلم!.

كأنه يشعر بألم فى لفته الفرنسية! ماذا قلت..
مهدة.. لا بل مذمومة! مذمومة بشكل نهائى بهذه
الضعيفة اللغوية! ماذا قد تصبح اللغة الفرنسية؟ ماذا
قد تصبح فى مواجهة هؤلاء الفوضويين من التلاميذ
الكسالى الذين يصيحون؟

لسوء الحظ لم أُدَوِّن هذا النص.. بارع الأسلوب..
لكن ثمة شيئاً جوهرياً فيه.. لم يعد رجلاً كان يتحدث
عن مراهقيه.. كان هذا هو الخوف داخل الرجل. فى
مكان آخر كان يبدو محدثوه مُبَاغْتِنِ قَلِيلاً. كان
المستمع يُخَمِّن بالإيماءات أنصاف الحركات التى كنا
نُجَرِّبُهَا لنطمئنه.. لكن دونما جدوى.. كان الخوف هو
الأقوى. لبرهة كان شعر رأسى ينتصب.. وانتهى الأمر
بى إلى أن أقول.. وأنا بمفردى فى سريرى الكبير:

أنت مجنون إذ تركت زوجتك تذهب إلى هؤلاء
المفترسين.. سوف يغضبون لها من أجلك غضباً
شديداً!.

بدلاً من شيء ما .. تولدت لدى رغبة فى أن أضم
المشرف على البرنامج بين ذراعى وأن أطمئنه.
هناك.. هناك.. اهْدأ .. أنت تعرف الفقير يتحدث بقوة.
إنها إحدى مميزاته .. ثابتة تاريخية وجغرافية .. يتحدث
بقوة منذ الأزل وفى العالم أجمع .. يتحدث بقوة لاسيما
وهو محاط بالفقراء .. الفقير ومن يتحدثون بقوة هم
أيضاً موجودون ليسمعوا .. هل تفهم؟

لدى الفقير حاجز رقيق يشتم كثيراً .. هذا
صحيح .. لكن دون أن يفكر فى الأذى .. اطمئن .. كلما
يهبط الفقر على الجنوب كلما يشتم الفقير جنسياً ..
لا بل دينياً .. لا بل الاثنين معاً .. لكن بشكل طبيعى.
تقريباً لأنه لم يلتقيك فى طريقه لتجعله يلاحظ أن
هذا مؤذٍ . امسك .. فقط فى طفولتى .. (عاهرة
عذراء!) كان يقولها فقراء قريتى .. لم يتوقفوا عن قول
(عاهرة عذراء!) .. إنها هى (بورسا مادونا) الفقراء
القادمين من الجنوب الإيطالى .. ومع ذلك لم يكونوا
يحقدون لا على عاهرة مساء السبت ولا على مريم
عذراء يوم الأحد . إنه أسلوب فى الكلام .. حين كانوا
يهبون أنفسهم ضربة مطرقة على الأصابع .. هو ذاك
كل شيء! ضربة مطرقة على السبابة .. و .. هوب(*)
لفظ مغربى مزيج: (عاهرة عذراء!).

هل كنت تعلم أن الفقراء يمارسون المغربية
المزيج؟ وبعد! إنها نقطة مشتركة فيما بيننا .. لنقل
هذا!.

(*) لفظة تستخدم للحض على الإسراع فى عمل ما . (المترجم).

نحن القلم.. هم المطرقة.. لكننا معاً مغربية مزيج!
لست متحمساً؟ أنت من يخاف ما دام تدفق
صبيرهم(*) لا يكنس كل حجج لفتنا الدقيقة.. كان
على هذا أن يطمئنك! أما أردت أن أقول لك كذلك لا
تخش صبيرهم. فصبير الفقير اليوم هو عامية فقير
الأمس.. لا أكثر ولا أقل!

منذ الأزل والفقير يتحدث العامية.. هل تعلم
لماذا؟

كى يجعل الثرى يعتقد أنه يمتلك أشياء يستطيع
أن يخبئها!

ليس لديه شيء يخبئه.. بالتأكيد.. إنه فقير
مدقع. فقط.. بعض التجارات هنا وهناك.. بعض
الهبات.. لكنه حريص على جعله يعتقد أن ما يخبئه
عالم كامل.. عالم نحن مُحَرَّمون عليه.. عالم فسيح
جداً قد يحتاج إلى لغة للتعبير عنه.

لكن ليس ثمة عالم.. بالتأكيد.. ولا ثمة لغة..
فقط معجم تواطؤ صغير.. على سبيل المثال.. يمكث
دافئاً.. ويُقنّع اليأس. ليست هذه لغة.. العامية
تحديداً.. هي ألفاظ.. لأن نَحَوَّها بالنسبة إلى
الفقراء هو نَحَوُّنا.. بعد اختصاره بالتأكيد. فاعل..
فعل.. مفعول.. لكن نحونا.. نحوك فاطمئن.. نحوك
الفرنسى لك.. أما نحونا فللجميع.. يحتاج الفقراء إلى
نحونا. كى يتفاهمون فيما بينهم. تبقى ألفاظهم..

(*) الصبير: هو لغة مزيج من العربية والفرنسية والإسبانية
والإيطالية. (المترجم).

بالتأكيد.. لشباب أكثر من نطاق.. ألفاظ تعتبرها من
الفقر العظيم (واعتبارها من سموك.. ليس مريباً)
لكن اطمئن أيضاً.. إنها فقيرة جداً.. ألفاظ
الفقير هذه.

إن أغلبية الكلمات تغضب بسرعة جداً على يد
ريح التاريخ.. أعواد حطب.. أعواد حطب.. لا يكفى
تأمل لكى يُثقلها.. تقريباً ما من لفظة منها توضع فى
القاموس: meuf.. keuf.. teuf (*) على سبيل
المثال.. لشباب اليوم هؤلاء.. هذا كل ما وجدته..

بحثتُ باسترخاء.. يجب أن نقول.. لربع ساعة..
لكن لم أجد إلا.. (teuf).. (keuf).. (meuf) فى
القاموس.. هذا كل شئ.. أنت ترى شخصاً نكرة..
ثلاثة أسماء شائعة جداً ستختفى ذات يوم قالبة
صفحة العصر.. القواميس لا تصون سوى قشة
الأبدية.

كلمة أخيرة كى تَطمئن تماماً: اذهب إلى مكتب
البريد.. افتح باباً.. اركب مترو.. ادخل متحفاً أو
مكتب أمن اجتماعى.. وسوف ترى.. سيكونون:
الأم.. الأب.. الأخ.. الأخت الكبرى لهؤلاء الشباب
الذين سيستقبلونك بلغة يرثى لها جالسة خلف شباك
التذاكر.. أو افعل مثلى.. اسقط مريضاً.. استيقظ فى
المستشفى، وسوف تتعرف على لَكَنَةِ الممرض الشاب
الذى يدفع سريرك فى اتجاه مبنى الجراحة:

(*) كلمات يستخدمها العامة وليس لها معنى فى القاموس.
(المترجم).

- ليس ثمة هلع. يا أخى.. سيجعلونك تسترد
قُواك من جديد!.

ما يجعل الكيل يفيض هو أن أحد كل الأسئلة الأولى التى يوجهها التلاميذ إلى فى فصول الضاحية حيث يدعونى المدرسون.. سؤال يخص فجاجة لغتى.. لماذا يوجد كمّ من الكلمات الضخمة فى رواياتى؟ (إيه.. أجل.. يا صديقى.. مراهقوك المرعبون جداً يُظهرون القلق نفسه الذى لديك: لماذا يوجد كمّ من العنف اللغوى؟)

بالتأكيد.. يوجهون هذا السؤال كى يُجاروا مدرّسهم.. قليلاً.. كى يبحثوا عن احتضانى أنا شخصياً.. أحياناً.. لكن أيضاً لأن الكلمة أمام أعينهم لا تصبح حقيقة ضخمة إلا حين تكتب.. (نهتز) شفاهياً منها.. (تتقاتى الخصى) على امتداد الاستراحة.. (نسخر من أمك) باسم الأرغن.. لكن نجد كلمة (خصية) أو الأفعال (يهتز).. (يسخر) سواد فوق بياض.. فى كتاب.. حين يكون مكانها الطبيعى على جدران الحمامات.. حينئذٍ هذا...! فى مكان آخر فى مرحلة التبادل هذه.. وفى أكثر الأحيان.. تتطوع إحدى المحادثات الناطقة باللغة الفرنسية بين التلاميذ

وبينى: بدءاً من عامية رواياتى.. بدءاً من العامية كلغة
إحلال وتبديل.. لغة إخفاء.. وعلى أى حال لغة
تواطوء.. فى معرض استخدامها.. فى العنف بكل
تأكيد.. بل فى الحنان أيضاً (أكثر من الآخرين..
كلمات العامية محسوسة صوتياً.. ليس لديها شبيه كى
تمر من السباب إلى المداعبة).. فى معرض أصولها
القديمة جداً فى فرنسا التى تعمل منذ عصور على
وحدة ألسنية(*).. فى معرض تنوعها: عامية قُطَاع
الطرق.. عامية الأحياء السكنية.. عامية المهن..
البيئات.. الطوائف.. فى معرض إدغامها التقدّمى
بواسطة اللغة السائدة.. عامية الدور الذى يلعبه الأدب
من أيام فيلون وحتى أيامنا هذه فى هذا الهضم
البطوى (من حيث حضور الكلمات الضخمة فى
رواياتى)..

و.. استطراداً.. ها نحن نتحدث عن تاريخ
الكلمات:

- لأن الكلمات لها تاريخ.. لا تسقط من أفواهنا
كبيضة الوجود!.

الكلمات تتطور.. كائناتها أيضاً غير متوقعة
ككائناتنا. بعضها ينتهى بقول عكس ما كانت تقوله فى
بدايتها:

على سبيل المثال الصفة (énérvé /مقطوع
الأعصاب) كانت تشير إلى ضفدع أنتزعت أعصابه..
حيوان مسكين صغير فى تجربة مُصغرة فى جانب
(*) الألسنية: نسبة إلى اللسانيات، وهو علوم اللغة (المترجم).

مستنقع صغير.. لكن - بلا شك - ليس مولو.. حاضر
هنا.. الذى ينشغل جاره فى (énervé / يثير
الأعصاب) والذى يصبح بلا تردد (vénère / يوقر)!.
بل تتحول الكلمات عن مجراها إلى العامية..
خنوا المسكينة كلمة (vache / بقرة).. وديعة داخل
مراعيها.. والتى على مر الزمن أشارت إلى عدد من
الناس الذين لم تكن نحبهم:

مومس القرن السابع عشر.. الشرطى فى نهاية
القرن التاسع عشر.. أو كل أشقياء اليوم الذين
يجعلوننا (زرائب بقر)!.
البقرة vache / متواضعة للغاية ولدت - ستعرف
لماذا - (vachement) .. (*) لم نعد نستطيع أن نكون
أفعل التفضيل.. كان هذا أثناء إحدى المحادثات التى
يطلبها المدرس من تلاميذه:

- هل هناك أحد يستطيع أن يعطينى مثلاً على
كلمة (عادية) أصبحت كلمة فى لهجتكم العامية؟

... -

... -

- (مُهرَج) .. يا سيدتى؟ إنها كلمة مهرج؟

- نعم (مهرج) على سبيل المثال.

... -

(مهرج) .. سمعتها للمرة الأولى فى بداية
التسعينيات.. تلك.. وأنا أدخل فصلى.. ذات صباح إذ
(*) كلمة vachement ظرف معناها كثيراً لكن المقصود هنا أنها
ولدت من كلمة بقرة / (vache) . (المترجم).

بديكين صفيرين ينتصبان على عاميتهما .. كانا يتهيئان
ليتضاربا فى الأعلى.

- لقد وصفنى بالمهرج يا سيدى!.

الكلمة الصاعدة من القرن الثالث عشر
الإيطالى .. حيث كانت تشير إلى من كانوا يُسلون
الملك .. انجذبت أمامى فى ذاك الصباح كمرادف لـ
(رجل عشيء مسكين). خمسة عشر عاماً جديدة
مرت.

اليوم تعنى السباب لتلاميذ ذاك الفصل .. مثلما
هى بالنسبة لتلاميذ التجنب وعادة أكثر بالنسبة إلى
شباب وسطهم وجيلهم .. كل أولئك الذين لا
يقاسمونهم اصطلاحاتهم .. بمعنى آخر الذين كان
يسمىهم سابقاً شباب أمى العجوز البرجوازيين (إنها
كلمة لديها حقيقة روح برجوازية بإفراط...).

(برجوازى). ها هى الكلمة التى رأينا منها كل
الألوان!.

من احتقار الأرستقراطى إلى غضب العامل
مروراً باندفاع الشباب المتقد .. لعنة السرياليين .. ذم
الماركس - لينين (*) العام .. وازدراء الفنانين أياً مانت
مشاربهم.

كان التاريخ فى ذاك الوقت سيضفرها
بالتضمينات المحقّرة التى ما من طفل من الطبقة
البرجوازية يتصف علانية بالبرجوازى دون شعور

(*) نسبة إلى انصار كل من ماركس ولينين. (المترجم).

غامض من الحقد الأونطولوجى . البرجوازى يخشى
الفقير .. الفقير يحتقر البرجوازى .

كان أمس قميص - أسود (*) مراهقتى يخيف
البرجوازى .. ثم جاء زقاقى شبابى كى يُقلق
البرجوازيين .

اليوم .. هم شباب المدن الصغيرة الذين يخيفون
المُهرَج .. رغم ذلك .. ليس أكثر من برجوازى أمس
الذى لم تكن لديه فرصة لمقابلة القميص الأسود فى
طريقه .. لا يخاطر مهرج اليوم بملاقاة أحد هؤلاء
المراهقين المنذورين لآبار السلم السحيقة .

كم من صبى من صبيان المدن الصغيرة كان
مشرفنا على البرنامج المذعور من مراهقى التجنب
على صلة به شخصياً ؟

أستطيع فقط أن يحصيه على أصابع إحدى
يديه ؟

لا يهم .. يكفيه أن يستمع إليهم وهم يتحدثون فى
فيلم .. أن يستمع إلى ثلاثين ثانية من موسيقاهم فى
الراديو .

أن يراهم وهم يحرقون سيارات عند التهاب
اجتماعى فى الضاحية من أجل أن يمسك برعب
عام .. ويشير إليهم كجيش من التلاميذ الكسالى
سينتصر على حضارتنا .

(*) تعبير يُطلق على الحدث الذى يرتدى قميصاً أسود، وينضم إلى
أمثاله ليفسدوا فى بيئتهم . (المترجم) .

٥

ماجزيميليان

أو

المدّنبُ المثاليّ

المدرّسون ..

يأخذون رءوسنا ..

يا سيدي!

بلقيل .. ذات مساء شتوى .. يهبط الليل على وأنا
عائد إلى منزلى عبر شارع جوليانلاكرو .. الغليون فى
فمى .. حقيبة المئونة فى يدى .. أضغاث أحلام .. حين
استوقفنى شخص يستند على حائط تاركاً ذراعه
تسقط كحاجز موقف سيارات. ضربة خفيفة فى
القلب.

- أشعل لى سيجارتى!.

هكذا .. دون أن يُراعى الأربعين عاماً التى تفصل
بيننا. إنه شخصٌ بالغ يبلغ عمره الثمانية عشر عاماً
أو العشرين .. أسود .. قوى .. يلعب لعبة الهدوء
المزيف .. واثق من عضلاته ومن رغبته الجيدة:

يطلب النار .. أعطيها له .. نقطة .. هذا كل شىء ..
أضع حقيبة مئونتى .. أخرجُ قدأحتى .. أمدُّ
الشفلة نحو سيجارته. يخفض رأسه .. يُقعر خديه وهو
يستنشق .. يُرينى للمرة الأولى الطرف المحمر من
أعلى .. هنا .. تغيير الهيئة. عيناه تجحطان .. يترك
ذراعه تسقط مرة أخرى. ينزع السيجارة من فمه ..
يتلثم:

– أوه! معذرةً يا سيدى...
تَرَدَّدُ.

– ألسَتَ...؟ أأنت تكتب...؟ أأنت كاتب..كلا؟
ليتنى أستطيع أن أقول لنفسي برعشة سرور
لطيفة: حسناً .. ها هو قارئ.. لكنَّ فِطْرَةً عجوز نفثتْ
شيئاً آخر داخلى:
امْسِكْ.. تلميذ على مُدْرَسِهِ للغة الفرنسية أن
يجعله يتمحص فى مالوسان (١).. سيطلب فى ثانية
منى أن أضربه بيدى.
. نعم..أؤلف كتباً.. لماذا؟
ولا مفر من هذا.
. لأن مُدْرَسَتنا جعلتنا نقرأ الجنيّة (٢)..الجنية...
حسناً.. هو يعرف أن هناك كلمة (جنية) فى
العنوان.

. إنه يتحدث عن بلقيس.. عن سيدات عجائز..
وعن...

– الجنية كارابين..نعم..وماذا بعد؟
هنا يصبح مرة أخرى الطفل الذى يبرم أصابعه
فى رأسه قبل أن يُوجه السؤال الفاصل:
. لدى تفسيرٍ لنصٍ لِيُسْتَرْجَع. ألا تريد أن
تساعدنى قليلاً.. أن تقول لى شيئين.. أو ثلاثة؟

(١) اسم كتاب للمؤلف نفسه اسمه كاملاً: سيدى مالوسان.
(المترجم).

(٢) اسم كتاب للمؤلف نفسه اسمه كاملاً: الجنية كارابين.
(المترجم).

أسترد حقيبة مئونتي.

- أرايت كيف طلبت النار مني؟

اضطراباً.

- أردت أن تخيفني؟

اعتراض:

- كلا يا سيدى.. برأس أمى!.

. لا تعرض أمك للخطر.. أنت أردت أن تخيفنى.

(أتجنب أن أوضح ما قد وصل إليه تقريباً).

ولمست أنا أول من فعل به هذا فى هذا اليوم.

تحدثت مع كم شخص اليوم هكذا؟

... -

. فقط أنا.. تعرفت على.. والآن تريد أن

أساعدك.

لكن حين لا يكون لديك واجب لتقوم به عنهم..

ماذا يفعل الناس بذراعك التى تسد الطريق؟

يخافون منك فيما تفرح أنت.. أهو ذاك؟

- لا يا سيدى.. هياً...

- الاحترام.. أنت تعرف مع ذلك أنها كلمة تتفوه

بها مائة مرة فى اليوم الواحد.. كلا؟

لقد كدت لا تحترمنى وتريد أن أساعدك؟

... -

- ما اسمك؟

- ماجز يا سيدى.

يُكْمَلُ مُسْرِعًا:

.. ماجزيميليان!

.. وبعد.. يا ماجزيميليان.. لقد فاتتك فرصة

جيدة.

أنا أسكن هناك.. انظر.. تحديداً هناك.. في
شارع لوزاج.. هناك عند النوافذ التي في الأعلى.. لو
طلبت مني أن أشعل سيجارتك بأدب.. لكنا هناك
الآن.. لكنك ساعدتك في عمل واجبك. لكن الآن..
كلا.. انتهى النقاش.

كلمة أخيرة:

.. هيا يا سيدى...

.. المرة القادمة.. يا ماجزيميليان.. حين تتحدث
مع الناس باحترام.. لكن ليس في هذا المساء.. لقد
أغضبتنى هذا المساء.

غالباً ما أعاود التفكير فى لقائى مع
ماجزيميليان.

إنها خبرة غريبة بالنسبة له مثلما هى بالنسبة
إلى.

فى مسافة ثانية ارتعدتُ أمام الزقاقى^(١)..
استعدتُ بلى^(٢) أمام التلميذ. كان يستلذ وهو يُذعر
المهرج.. بعد ذلك اصْفَرَّ لونه أمام تمثال فيكتور هوجو
(شارع لوزاج .. فى بلشيل.. بين الصبيان الذين رأيتهم
يكبرون.. كان بعضهم ينادينى مُمازحاً سيد هوجو).

كان لدينا.. ماجزيميليان وأنا.. تصوران أحدا
عن الآخر:

الزقاقى لإخافته.. أم التلميذ لمساعدته..المهرج
لإخجاله أم الكاتب ليُتَوَسَّلَ إليه. لحسن الحظ..
مزجهما وميض قدّاحة معاً. فى ثانية كنا معاً الزقاقى
وتلميذ الثانوى.. المهرج والروائى.. الواقع أننا استفدنا

(١) يقصد ماجزيميليان والزقاقى هو من تبنى فى الأزقة.
(المترجم).

(٢) جمع بلية وهى كرات زجاجية صغيرة جداً يلعب بها الأطفال فى
الشوارع. (المترجم).

منها بشكل معقد. لو كنا ظللنا فى مشهد السجارة ولم يتعرف ماجزيميليان على.. لكنتُ عدتُ إلى منزلى وأنا فى حالة خزى إذ جرّيتُ ذرة خوف أمام سوقى يبتهج أن جعل مُهرجاً عجوزاً فى حالة كهذى. كان يستطيع أن يتفاخر بهذا على مقربة من رفاقه .. وكنتُ سأستطيع أن أشفق عليه فى الميكرفون. لبتَ الحياة تبقى بسيطة. فى مُجملها: زقاقى الضواحي يُهين المواطن الحكيم. رؤية العالم تناسب الفنتازيين المعاصرين. لحسن الحظ أظهرتُ شُعلة القداحة حقيقة أكثر تعقيداً: مقابلة المراهق الذى عليه أن يتعلّم الكثير والبالغ الذى عليه أن يُعلّم الكثير. هذا بين الآخرين: إن تريد أن تصبح إمبراطوراً يا ماجزيميليان.. لن يكون مطلوباً منك أن تلعب لتضع المهرج فى حالة ذعر.. لا تُضف جراماً واحداً من الحقيقة إلى تمثال التلميذ الكسول المرعب.. سوى الرعايد المُزيفة التى تمسك بالميكرفون وتنخفض بطمأنينة على ظهرك.

- ياه...-

أعيد قراءة ما كتبته منذ قليل وأسمع ضحكة داخلية قصيرة.

- ياه.. ياه.. ياه...-

لا شك.. هذه السخرية هى سخرية التلميذ الكسول الذى كُتِّه.

- عبارات رائعة.. قل إذا! درّس أخلاقى جميل ذاك الذى حصل عليه هناك.. ماجزيميليان!.

وكالعادة ليغرز المسمار.

- نوية رضا ذاتى خاطفة؟

... -

- بمعنى آخر.. لم تساعد هذا التلميذ...

... -

- لأنه لم يكن مُهذباً.. هو ذاك؟

... -

- أنت سعيد من نفسك؟

... -

ماذا فعلت بمبادئك؟ المبادئ السامية الجميلة

المعرضة عالياً جداً.

تذكر:

الخوف من القراءة يُعالج بالقراءة.. الخوف من

عدم الفهم يُعالج بالانغماس فى النصّ..

هذا نوع من البلاغ الرسمىّ.

أنت تجلس برج عاجى؟

... -

- فى الحقيقة.. لقد تغوّطت فى ذاك المساء مع

ماجزيميليان).

حانقاً بإفراط.. أو مذعوراً بإفراط.. لقد وصلك

هذا أيضاً وكنت خائفاً.. خصوصاً وأنت متعب. تعرف

جيداً أنه كان يجب أن تمسك هذا الصبى من ذراعه..

تصطحبه إلى حيث تقيم.. تساعد فى تفسيره للنص

وتتناقش معه إن دعت الضرورة لهذا . وتترك
توبيخه . لكن بعد عمل الواجب !.

لَبُّ الطلب .. كان هذا شيئاً مُلِحاً بما أنه كان ثمة
طلب !

عُبر عنه بشكل سيئ ؟ موافق ! .
مُنْتَفِع ؟ كل الطلبات مُنتفعة .. أنت تعرف ذلك
جيداً ! .

هذه هي محزقتك (١) لتحويل المنفعة المحسوبة
إلى منفعة من أجل النص ! .

لكن تَرَكَ ماجزيميليان على ذلك الرصيف ليعود
إلى منزله كما فعلتَ فهذا هو ترك الحائط الذي
يفصلكما منتصباً .. بل هذا دعم له ! .

توجد حكاية للافونتين (٢) .. فى هذا الشأن . أتريد
أن أسمعها لك ؟ أنتَ تلعب فيها الدور الأساسى ! .

الطِفْلُ وَالْمُعَلِّمُ

أنتوى فى هذه الحكاية أن أريكم
التحذيرَ اللا جدوى منه من الغبى الأكيد .
طفل صغير أهمل فى الماء ..

وهو يلهو على ضفاف السين

(١) أداة يستخدمها الفلاح فى عزق الأرض . (المترجم) .

(٢) لافونتين: جان دى لافونتين (١٦٢١ - ١٦٩٥م) أشهر كاتب
قصص خرافية فى تاريخ الأدب الفرنسى والعالمى، أبطال
قصصه الخرافية هم الحيوانات والطيور، وقد أثر فى كل الأدباء
الذين كتبوا للطفل بعدء فى العالم، ويطلق على مجمل أعماله
المشهورة عالمياً أساطير لافونتين .

تَأْذَنُ السَّمَاءَ لِلصَّفْصَافِ أَنْ يَعْثُرَ عَلَيْهِ
وَيَنْقِذَهُ بِأَغْصَانِهِ بِأَمْرِ اللَّهِ.
كَانَ مَشْغُولاً .. أَقُولُ .. بِأَغْصَانِ الصَّفْصَافِ ..
يَمُرُّ بِذَاكَ الْمَكَانِ مُعَلِّمٌ ..
يُنَادِيهِ الطِّفْلُ صَارِخاً: النِّجْدَةُ .. إِنِّي أَهْلُكَ.
اسْتَدَارَ الْمُعَلِّمُ إِلَى صِرَاحِهِ
وَبَنْبِرَةٍ وَقُورَةٍ جَدًّا لَيْسَتْ فِي مَحَلِّهَا
ارْتَأَى أَنْ يُوبِخَهُ:
أَهْ أَيُّهَا الصَّبِيُّ الْمَشَاغِبِ الصَّغِيرِ!
انْظُرْ .. يَقُولُ .. أَيْنَ وَضَعَ غِبَاءَهُ!
وَبَعْدَ .. اعْتَنِ بِأَمْثَالِ النَّصَابِينِ.
مَا أَتَعَسَ الْآبَاءُ .. مَا أَضْعَفَهُ هُوَ!
إِذْ دَائِماً مَا يَرْعَى نَذْلاً مُشَابِهاً!
مَا أَشَدَّ مَا يَقَاسُونَ لَوْكُمْ أُرْثَى لِمَصِيرِهِمْ!
بَعْدَ قَوْلِ كُلِّ شَيْءٍ
وَضَعَ الطِّفْلَ عَلَى حَافَةِ السَّفِينَةِ.
هَنَا الْيَوْمَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ لَا أَتَصَوَّرُهُمْ.
كُلُّ ثَرْتَارٍ .. كُلُّ رَقِيبٍ .. كُلُّ مَتَحَذَلِقٍ ..
يُمْكِنُ لَهُ أَنْ يَتَعَرَّفَ عَلَى الْحَدِيثِ الَّذِي أَقُولُهُ:
كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الثَّلَاثَةِ بِقُوَّةٍ يَصْنَعُ شَعْباً كَبِيراً
يُبَارِكُ اللَّهُ الرَّعَاعَ مِنْهُ.
فِي كُلِّ مَشْكَلَةٍ يَكْتَفُونَ بِالْحِلْمِ
بِوَسَائِلِ تَدْرِيبٍ لِفَتَاهِهِمْ فَقَطْ.

هيا يا صديقي. حرّرنى من الخطر
سوف تفعل بعد خطبتك المملة.

ماجزيميليان صورة التلميذ الكسول المعاصر.
الاستماع إلى كلام عن مدرسة هذه الأيام هو في
الأساس استماع إلى كلام عنه. اثنا عشر مليون
وأربعمئة ألف شاب فرنسي يدخلون المدرسة كل
عام.. منهم قرابة مليون مُراهق ينحدرون من
الهجرات الوافدة. لنفترض أن مائتي ألف يرسبون
رسوياً دراسياً يُوجب طردهم من المدرسة. كم من
المائتي ألف يقع في العنف الشفاهي أو الجسدي
(شتائم للمدرسين.. الذين أصبحت حياتهم جحيماً
بسببهم.. تهديدات.. تصادمات.. تخريب أماكن...)?

الربع؟ خمسون ألف؟ لنفترض. ينتج عن هذا أنه
من مجموعة من اثني عشر مليون وأربعمئة ألف
تلميذ.. أربعة من عشرة في المائة تكفي لتُغذي صورة
ماجزيميليان.. التصور التخيلي المُرعب بالنسبة إلى
التلميذ الكسول مُلتهم الحضارة.. الذي يحتكر كل
وسائل المعلومات ما إن نتحدث عن المدرسة.. ويثير كل
التخيلات.. بما فيها الأكثر رزانة. هب أننى أخطئ
في حساباتى.. وأننا نحتاج إلى ضرب (الأربعة من
عشرة في المائة) في اثنين أو في ثلاثة.. سيتمكث

الرقم مُثيراً للسخرية والخوف المصون ضد الشباب
المُخزى تماماً بالنسبة إلى البالغين الذين نكونهم.

مراهق ينحدر من مدينة أو من أى حى يقع فى
محيطها .. بلاك..بير.. أو جولوا المنفى.. هاو كبير
للطوابع وللتليفونات المحمولة.. إلكترون حرّ لكن يتقل
داخل مجموعة.. مُغطى الرأس حتى الذقن.. هاو
للموسيقى المقطّعة على كلمات تدعو للانتقام..
يتحدث بقوة.. معروف بأنه عازف نشيط.. لص
افتراضى.. سمسار.. مُشعل حرائق..أو بذرة للتطرف
الدينى.. ماجزيميليان هو الصورة المُعاصرة لسكان
الضواحي العام الماضى.. وحديثاً مثلما كان البرجوازي
يحب معاشرة أوباش شارع دو لاب أو داخل حانات
شاطئ مارنّ الريفية المسكونة بالمتشردين.. يحب مُهرج
اليوم أن يحاذى ماجزيميليان.. لكن فى صورته فقط..
صورته التى يُطهّرها فى كل صلصات السينما..
الأدب..الدعاية الإعلانية.. الأخبار ماجزيميليان فى
الوقت نفسه هو صورة من يُشيع الخوف.. من يبيع..
بطل أفلام الأكشن.. ناقل الأختام الأكثر حملاً..و..
مادياً.. (تنظيم المدن.. ثمن العقار.. والبوليس
يسهرون فيه).. ماجزيميليان محبوس بأطراف المدن
الكبرى.. صورته تُوزع حتى تصل إلى قلب المدينة
الأكثر ثراءً.. وهذا مع الخوف الذى يرى المهرج أبناءه
يرتدونه مثل ماجزيميليان.. متبنياً صبير
ماجزيميليان.. بل طَفَح الهَلَع.. يمنح صورته الدوى
المُعرب عن صوت ماجزيميليان!.

من هنا إلى النباح.. إلى موت اللغة الفرنسية
والى النهاية القادمة للحضارة.. لا توجد سوى
خطوة.. تُجتاز بسرعة.. بالأحرى مع خوف لذيذ فى
قرارة النفس. إنه ماجزيميليان الذى نعرفه يُضحى
بنفسه.



حين نشاهده عن قرب يبدو ماجزيميليان ظَهْر
ميدالية الشبابية. يصبح عصرنا واجباً للشباب: يجب
أن تكون شاباً.. تفكر وأنت شاب، تستهلك وأنت
شاب.. تشيخ وأنت شاب.. فالموضة شابة.. كرة القدم
شابة.. الإذاعات شابة.. التلفزيون ملئ بالشباب..
الإنترنت شاب.. الناس شباب.. أواخر الأطفال
الرضع الأحياء عرفوا كيف يظلوا شباباً.. رجالنا
السياسيون.. هم أنفسهم.. انتهوا إلى تجديد شبابهم.

يحيا الشباب!.

المجد للشباب!.

يجب أن تكون شاباً!.

على ألا تكون ماجزيميليان.

- المدرسون .. يأخذون رعو سنا .. يا سيدى !
- أنت مُخطئ. رأسك أخذت من قبل ويحاول
المدرسون أن يعيدوها إليك.

جرت هذه الحادثة داخل مدرسة ثانوية فنية فى
منطقة ليون. كى أصل إلى المؤسسة كان على أن أعبر
أرضاً غير مأهولة لمستودعات من جميع الأصناف
حيثما لم أقابل أحداً. عشر دقائق سيراً على الأقدام
بين جدران عالية عمياء.. بين صوامع الحبوب
الأسمنتية بأسقفها التى من الفبرسيما (١) .. كانت
هذه هى نزهة صباحية ظريفة قدمتها الحياة
للتلاميذ المقيمين فى أطراف الضواحي.

عماً تحدثنا فى ذاك اليوم؟ بالتأكيد عن
القراءة.. كذلك عن الكتابة.. عن الطريقة التى تأتى
بها الحكايات إلى عقول الروائيين.. عماً تريد
كلمة [أسلوب] أن تقوله حين لا نصنع منها مرادفاً
لكلمة [مثل]. عن مفهوم الشخصية ومفهوم
الشخص. ومن ثم عن البوهارية (٢) .. عن المخاطرة

(١) مادة مصنوعة من الأسمنت والأميانت. (المترجم).

(٢) البوهارية. هى الهروب من الواقع واللفظة مأخوذة عن مدام
بوهارى بطله رواية «مدام بوهارى» للكاتب الفرنسى «جوستاف
فلوير». (المترجم).

ذات يوم بالتنازل لوقت طويل عن الرواية التي تنفلق مرة أخرى (أو الفيلم الذي يُشاهد).. عن الواقع وعن الخيال.. عمّن نجعلهم يمرون من أجل آخرين في برامج الواقعية التليفزيونية.. عن كل الأشياء التي تفتن التلاميذ حالما يتأملونها من كل جانب بجدية...

وأكثر إجمالاً.. تحدثنا عن علاقتهم بالثقافة. لا حاجة للقول إنهم كانوا يروّون كاتباً للمرة الأولى.. وإنه ما من واحد منهم قد شاهد مسرحية قط.. وإن قليلين جداً كانوا قد ذهبوا إلى ليون. ولأنتى سألتهم عن السبب.. لم تكن الإجابة مُتوقّعة:

- إيه.. لن نذهب إلى هناك لنُعالج من التخثر بكل هؤلاء المهرجين!

كان العالم مُرتّباً في مُجمّله كانت المدينة تخشاهم وكانوا يخشون سُلطة المدينة.

كثيرين من شباب هذا الجيل.. ذكوراً وإناثاً.. كانوا بالنسبة إلى أغليبيتهم كباراً جداً عن أن نعتقد أنهم مدفوعين بين جدران المستودعات في رحلة بحث عن الشمس. كان بعضهم على الموضة.. على موضتهم.. كانوا يعتقدون في الكونيّة.. لكن على نمط وحيد.. وكان الجميع يُكرهون هذه اللكّنة المنتشرة بواسطة الراب الذي يُحزن حتى شباب المهرجين أفضل المتصلين بوسط المدن حيث لم يكونوا يجرعون على الاستسلام. جئنا من هناك لنتحدث عن دراساتهم. كان هذا في طور المحادثة التي شارك فيها الـ ماجزيميليان في الوظيفة. (أجل.. قررتُ أن أمنح

لكل تلاميذ هذا الكتاب الكُسالى.. للتلاميذ الكسالى
فى الضاحية أو التلاميذ الكسالى فى الأحياء
الراقية.. هذا الاسم التفضيلى الجميل. (*)

ـ المدرسون. يأخذون رءوسنا!.

كان هذا عَياناً تلميذَ الفصل الكسول. ربما
سيكون بطئياً فى قول هذا الظُّرْف (عَياناً).. لكن
الحقيقة أن التلاميذ الكسالى يلاحظون بسرعة داخل
الفصل. داخل كل الفصول التى دُعيت إليها..
مؤسسات فخمة.. مدارس ثانوية فنية أو مدارس
إعدادية أياً كانت المدينة..

ال (ماجزيميليون) يُعرفون بسهولة حين ننتبه
إليهم بانقباض أو حين ننظر إليهم نظرة مُبالغ فى
تسامحها.. يستند مُدرسهم عليهم حين يتكلمون..
بابتسامة متوقعة من زملائهم وبشئ غير محدد يُزاح
داخل أصواتهم.. نبرة اعتذار وحِدّة مُترددة بعض
الشئ. وحين يصمتون - غالباً ما يصمت
ماجزيميليان.. كنتُ أميزهم من صمتهم الحائر أو
العُدوانى.. المُختلف جداً عن الصمت المُصْفى للتلميذ
الذى يقوم بعملية تخزين كل ما يَعرُّ له.

يتذبذب التلميذ الكسول دائماً بين اعتذاره عن
أن يكون ورغبته فى أن يعيش رغماً عن الجميع..
ليعثر على مكانه.. بل ليفرضه.. كان هذا عن طريق
العُنف.. الذى كان مُضاداً للانقياد العصبى.

(*) يقصد اسم ماجزيميليان (المترجم).

- كيف هذا .. يأخذ المدرسون برعوسكم؟
- يأخذون الرأس .. هذا هو كل شيء! بمهاراتهم
التي لا تصلح لأي شيء!.
- على سبيل المثال .. أيّة مهارة تلك التي لا تصلح
لأي شيء؟
- الكل .. الذي ..! ال... مواد الدراسية! ليست هي
الحياة!.
- ما اسمك؟
- ماجزيميليان.
- وبعد .. أنت مُخطئ .. يا ماجزيميليان ..
المدرسون لا يأخذون رأسك .. هم يحاولون أن يعيدوها
إليك! لأن رأسك .. قد أخذت من قبل.
- هي مأخوذة .. رأسى؟
- ماذا ترتدى على قدميك؟
- على قدمي؟ لدى (إنّاتى) (*) يا سيدى! (هنا
اسم الماركة).
- ماذا؟
- إنّاتى لدى إنّاتى!.
- هل هذه هي إنّاتك؟.
- كيف هذا .. ما هذه؟ إنها إنّاتى!.
- كشيء محسوس .. أريد أن أقول .. ما هي كشيء
محسوس؟

(*) (إنّاتى) اسم ماركة الحذاء هو حروف ال [N] (المترجم).

- إنها إنَّاتى!.

و.. كان المقصود لم يكن إهانة ماجزيميليان..
هذا بالنسبة إلى الآخرين الذين كانوا لدى.. مرة بعد
ذلك.. وَجَّه السؤال:

- ماذا يرتدى ماجزيميليان على قدميه؟

كان هناك تبادل نظرات.. صمت مُحير.. كنا قد
جئنا لنقضى وقتاً مناسباً معاً.. تناقشنا.. فكَّرنا..
مزحنا.. ضحكنا كثيراً.. كانوا يريدون أن يساعدوني..
لكن كان يجب أن نتفق معاً.. ماجزيميليان معه حق:
- إنها إنَّاته يا سيدى.

- موافق.. رأيتها جيداً.. نعم.. إنها إنَّات .. لكن
كشئ محسوس.. ما هى كشئ محسوس؟
صمت.

ثم فتاة.. تقول فجأة:

- آه! نعم.. كشئ محسوس! يُسر (*).. إنه من
السلال!.

- هو ذاك.. واسم أكثر شيوعاً من (سلال) ليشير
إلى هذا النوع من الأشياء المحسوسة.. ستمتلكه؟
....أحذية؟

- هو ذاك.. إنها سلال.. حذاء.. نعل.. خُفّ... كل
ما تريده لكن ليست إنَّات! إنَّ هو ماركتها والماركة
ليست شيئاً محسوساً!
سؤال مُدرَّستهم:

(*) نبات يستخرج منه دهن. (المترجم).

- الحذاء يصلح للسير.. فلما تصلح الماركة؟

صاروخ مضىء فى عمق الفصل:

- للانفجار يا سيدتى!

مجون عام.

المُدْرَسَة:

يفعلها المدعى.. نعم.

سؤال جديد من مُدرستهم التى تشير إلى بلوثر ولد آخر.

- وأنت يا سمير.. ماذا ترتدى.. هنا؟

الإجابة الفورية نفسها:

. إنه [إلى] ^(١) يا سيدتى!

هنا.. قلدتُ سَكَرَات الموت الفظيعة.. كأنَّ سمير جاء ليُسَمِّنى وكأننى متُّ مباشرة أمامهم.. حين انفجر صوت آخر فى الضحك:

- لا.. لا.. إنه بلوثر! حسناً يا سيدى.. ظلّ معنا.. إنه بلوثر.. إلَّه.. هو بلوثر!

قيامه:

- نعم.. إنه بلوثره.. وحتى لو كان أصل كلمة (بلوثر) إنجليزى فهى أفضل دائماً من كلمة ماركة!.

قد تقول أمى صَدَارِيته.. وتقول جدتى زَرده.. كلمة قديمة (زرده).. ^(٢) لكنها دائماً أفضل من الماركة..

(١) «إلى» ماركة البلوثر.. المقصود هو حروف الـ [L].. (المترجم).

(٢) صدارى صوف أو قطن.. (المترجم).

لأنها هي الماركات يا ماجزيميليان التي تأخذ رأسك..
وليس المدرسون!.

تأخذ رأسك.. ماركاتك: إنها إنأتى.. إنه إلى..
إنها تأتى.. إنه إكسى.. إنها واياتى! إنها تأخذ رأسك..
تأخذ نقودك.. تأخذ كلماتك.. وكذلك تأخذ جسدك..
وكزى تصنع منك إعلانات حية مثل مانىكانات
المحلات البلاستيكية!.

هنا.. أحكى لهم:

فى طفولتى كان هناك رجال إعلانات(*).. مازلتُ
أتذكر أحدهم وهو يقف على الرصيف المواجه
لمنزلى...

كان رجلاً عجوزاً يتحزّم بلافتتين كانا يُمجدان
الخردل:

- الماركات تصنع الشئ نفسه معكم.

ماجزيميليان ليس غيباً جداً:

باستثنائنا.. لا تدفع لنا!.

تدخل فتاة:

- ليس هذا صحيحاً.. على أبواب المدارس

الثانوية.. فى المدينة يأخذون صبية صغاراً.. يتباهون
بالزعامة يهدمونهم مجاناً من أجل أن ينفجرون فى
الفصل. الماركة تُمتع أصدقائهم وهذا يُساوى ما يباع.

ماجزيميليان:

(*) رجال يتقلون فى الأسواق حاملين إعلانات على صدورهم وعلى
ظهورهم.(المترجم).

- رائع!

مُدرستهم:

. أنت ترى؟ أنا أرى أنها باهظة التكلفة..

ماركاتكم.. لكنها تساوى أقل منهم كثيراً.

ثم يَعْقِب ذلك نقاش متعمق عن مفاهيم التكلفة

والقيمة.. ليست القيمة التجارية.. بل الأخرى..

القيمة المشهورة التي عُرِفَتْ بفقد المعنى...

وافترقنا على بيان شفاهى: (حَرِّروا الكلمات!)

حَرِّروا الكلمات!).. حتى كل أشياءهم الأسرية

المحسوسة: أحذية.. حقائب ظهر.. أقلام.. بلوفترات..

سُتُر رياضية.. أدوات.. قبعات.. تليفونات.. نظارات..

فقدت ماركاتها لتعثر على اسمها مرة أخرى.

اليوم التالى لتلك الزيارة.. عُدْتُ إلى باريس..
كأنتى هبطتُ من هضاب القرن العشرين فى اتجاه
مكتبى.. جائتتى فكرة أن أُثْمَن التلاميذ الذين لاقيتهم
فى طريقى.. مُستخدماً حساباً منهجياً: ١٠٠ يورو
للأحذية .. ١٠ اللجينز ١٢٠ .. للقميص الرياضى ٨٠ ..
لحقيبة الظهر ١٨٠ .. للمُسِنَّة النقال.. (إلى ٩٠
ديسبل تدور المدمرة السمعية) ٩٠ .. يورو للتليفون
المحمول المتعدد الأشكال.. دون أن أحكم على ما
تحتويه الحقائق.. أجعل لكم ثمناً جيداً.. إلى ٥٠ يورو
الكل يصعد على بَكَرات جديدة ملتهبة.. إلى ١٥٠ يورو
الزوج. المجموع: ٨٨٠ يورو.. ليكون منها ٥٧٦٤ فرنك
للتلميذ.. هذا يعنى ٥٧٦٤٠٠ لفترة طفولتى. راجعتُ
فى الأيام التالية فى الذهاب كما فى العودة.. مُقارناً
الأسعار المعروضة فى المُتارين التى كانت توجد فى
طريقى. كانت كل حساباتى تصل إلى قرابة نصف
مليون كل واحد من هؤلاء الصبية يساوى نصف مليون
فرنك من طفولتى!.

إنه تَثمانٍ متوسط بواسطة طفل الفصل المتوسط
والمخصص من الآباء ذوى الدخول المتوسطة.. فى

باريس اليوم.. ثمن تلميذ باريس العائد من جديد..
لنقل.. فى نهاية أجازة عيد الميلاد فى مجتمع ينظر
إلى شبابه قبل كل شىء كزبائن.. كمسوق تجارى..
كحقل للتصويب.. أطفال زبائن.. إذا.. مع أو بدون
وسائل.. مَنْ منهم مِنْ المدن الكبرى كَمَنْ منهم من
الضواحي.. منجذبين فى الطموح نفسه إلى
الاستهلاك.. إلى المصاصة نفسها فى الرغبات..
فقراء وأثرياء.. كبار وصغار.. ذكور وإناث.. بلا نظام
فقدوا الوعي على يد الإغراء الوحيد والمُدوم:
استهلك!.

هذا يعنى أن تُغَيَّر المنتج.. أن تريد جديداً.. أكثر
من جديد.. آخر صحيحة.. الماركة! وما تعرفه هذه!.

لو أن ماركاتهم كانت ميداليات.. لكان صبية
شوارعنا يعزفون كجوقة فى أوبريت.. برامج جادة جداً
تُبين لكم طويلاً وعرضاً أنها تأخذ من شخصيتكم حتى
صباح آخر يوم للعودة إلى المدرسة.. صرحت كاهنة
تسويق كبيرة فى الراديو بنبرة واثقة بجدة مسئولة أن
المدرسة يجب أن تفتح أبوابها للدعاية التى قد تكون
نوعاً من الإعلام الذى هو نفسه قوت أولى للتعليم.
وهذا ما يجب بيانه.

أصخْتُ السمع ماذا تحكين لنا هناك يا مدام
ماركتنج (*)..

بصوتك.. صوت جدة حكيم.. رنان جداً؟

(*) Markiting السوق التجارية.

الدعاية فى الحقيقية نفسها كالعلوم .. كالفنون ..
كالآداب القديمة !.

أيتها الجدة .. أنتِ جادة ؟

لقد كانت لثيمة .. وبشدة . إنه ما لم نكن نتحدث
عنه باسمه .. بل باسم الحياة كما هى !.

فجأة بدت لى الحياة حسبما رأت الجدة
ماركتنج : مساحة مهولة للبيع .. دون جدران .. دون
حدود .. دون حواجز .. ودون أى هدف آخر سوى
الاستهلاك !.

والمدرسة النموذجية وفق ما ترى الجدة : منجم
من المُستهلكين الأكثر نهماً دائماً ومُهمة المعلمين :
إعداد التلاميذ لدفع عربتهم الصغيرة فى الممرات
دون نهاية لحياة البيع ! أن نكف عن الإلقاء بهم بعيداً
عن مجتمع الاستهلاك !

كانت الجدة تقلق من أنهم يتخرجون (خبراء)
المعزل الدراسى !.

وأجهزة الإعلام .. لأى غرض كانت تُقلص المعرفة !
أتسمع أيها العم جُول ؟ الصُّبَّية الذين كنتَ
تعرفهم بالْعَتَّةِ الأُسرى .. الذين كنت تنتزعهم من
الأدغال الغامضة للتعصب والجهل .. كان هذا بغية
احتجازهم فى المنجم الدراسى .. لأقلّ إذا !

وأنتِ .. عازفة فيولونسيل (*) بلانك - مِصْنَى ..
أكنت تعرفين أنك كى تُنبهى تلاميذك إلى الأدب أكثر

(*) آلة موسيقية تشبه الجيتار . (المترجم).

منه إلى الدعاية لم تكونى سوى حارسه فظة وعمياء
للمنجم الدراسى؟

آه! أيها المدرسون.. متى ستستمعون إلى الجدة؟
متى إذاً تتبوعون أماكنكم فى الجمجمة التى لم يكن
الكون ليستوعبها لكن ليستهلكها؟

إنها ليست أفكار باسكال ولا محاضرات المنهج..
ولا نقد العقل الخالص.. لا سبينوزا ولا سارتر الذى
يجب أن يضعها بين يدي تلاميذك.. أوه.. أيها
الفلاسفة.. إنه الكتالوج الكبير لمن يصبح بصورة
أفضل فى الحياة كما تكون! هيا.. أيتها الجدة.. لو
تعرفتُ عليكِ مع إخفائك للكلمات.. أنتِ تماماً ذئب
الحكايات الشرير!.

متدثرة باستدلالاتك الساحرة نمتِ وفمكِ مفتوح
على انصراف التلاميذ من مدارسهم كى تلتهمى وقتها
صيفار الطرايطير المُستهلكة.. وعلى رأسهم
ماجزيميليان بالتاكيد.. الذى تقل مقاومته عن
الآخرين. لذيذة فى القضم.. هذه الرأس المشبعة
بالرغبات.. التى سعى المدرسون لانتزاعها منك..
الفقراء.. المسلحون قليلاً جداً.. بساعتيتهم لهذا.. أو
ثلاث ساعات لذاك.. ضد مدفعيتك الإعلانية
الرائعة! فم مفتوح.. أيتها الجدة.. على انصراف
تلاميذ المدارس.. وهذا مقبول! منذ منتصف
التسعينيات وهذا مقبول تدريجياً!.

الذين تلتهمينهم اليوم هم أبناء مَنْ كنتِ تلتهمينهم
بالأمس!.

أمس.. تلاميذى..اليوم ذرية تلاميذى. عائلات
كاملة مشغولة بمزج أكثر رغباتهم صفراً باحتياجات
حيوية فى مزيج هضمك المُستتج المرعب.
تخفيضات..الجميع.. كباراً وصغاراً.. فى حالة
الطفولة نفسها الراغبة دائماً. أيضاً! أيضاً! صيحة..
من أعماق معدتك.. شعب المُستهلكين المُستهلكين..
أبناء وآباء ممتزجون.. أيضاً! أيضاً!
وبطبيعة الحال ماجزيميليان الذى يصيح بقوة.

أحسستُ بـُغْصَةٍ وأنا أترك شبابى ساكنى ضاحية
ليون. كان هؤلاء الصبية مهجورين داخل صحراء
حضرية. مدرستهم الثانوية بنفسها كانت مُحْتَجَبَةً..
تائهة فى متاهة المستودعات. لم تكن مدينتهم تتنشى
كثيراً.. ما من مقهى فى المشهد.. ما من سينما.. لا
شئ يجىء.. لا شئ لِنُوجَةٍ إليه عينيك إن لم يكن
سوى دعايات عملاقة تُفخِّمُ أشياء خارج إدراكها...

كيف يلومهم هذا المظهر الخداع الأبدى.. صورة
الذات المركبة لمرآة المجموعة الشعبية؟ سهل جداً أن
نسخر من حاجتهم لأن يُروا.. هم من يختبئون فى هذه
النقطة من العالم والذين لديهم القليل جداً ليرووا ما
هى الأشياء الأخرى التى تقدمها لهم سوى إغراء
الوجود بما أنهم صور.. هم من سيرثون البطالة وماذا
تمتلك مصادفات التاريخ بالنسبة إلى الأغلبية
المنوعين من الماضى ومن الجغرافيا؟

على أى شئ آخر يستطيعون أن يستريحوا - من
جهة حيثما نستريح.. حيثما ننسى أنفسنا قليلاً..
حيثما نتشكل من جديد - سوى على لعبة المظاهر؟

لأن هذه هي الشخصية حسبما ترى الجدة
ماركتنج: كساء شباب المظهر.. إرضاء هذه الرغبة
الدائمة في توليد الضوء.. يا الله.. أية منافسة
للمدرسين.. بائعة الصور المُعدّة سلفاً هذه).

داخل القطار الذى أعادنى من ليون.. قلت
لنفسى وأنا عائد إلى منزلى.. ليس منزلى الذى عدت
إليه: أعود إلى قلب تاريخى.. سوف أجثم فى وسط
جغرافيتى. حين أعبر بابى.. أدلف إلى مكان حيثما
كنت بنفسى قبل مولدى: أقل شىء.. أصغر كتاب فى
مكتبتى.. يشهداننى داخل شخصيتى القديمة.. ليس
هذا صعباً جداً.. بهذا الثمن.. أن أفلت من إغراء
الصورة. كل شىء نتحدث عنه فى ذاك المساء.. مين
وأنا:

- لا تبخس هؤلاء الصبية قيمتهم.. تقول هى..
يجب أن يُثمنوا بقدرتهم! ووعيتهم.. ذات يوم.. أزمة
المراهقة ستمضى. كثيرون يُشفون منها جيداً.
واستشهدت بأسماء أصدقائنا الذين شُفيوا منها.

أخص من بينهم (على) الذى استطاع أن يؤل
الأمر بشكل سيئ، والذى يغطس اليوم فى قاع المشكلة
كى ينقذ المراهقين المُهددين كثيراً.. و.. بما أنهم
ضحايا صور.. تحديداً بواسطة لمس صورة قرر على
أن ينقذهم من مأزقهم هذا. إنه يُسلّحهم بالكاميرات
ويعلمهم كيف يُصورون على فيلم سينمائى مراهقتهم
كما هى.. بعيداً عن المظاهر.

محادثة مع على (مقتطف)

- إنهم صبية فى خيبة دراسية.. يُبين لى.. الأم تظل وحيدة فى أغلب الأحيان.. يتعرض بعضهم للملاحقات البوليس.. لا يريدون أن يسمعوا كلاماً عن البالغين.. يلتقون داخل فصول بالتناوب.. شىء ما كفصولك التى أُعدت فى السبعينيات.. أنا أفترض.. أنتقى الزعماء.. الرؤساء الصغار ذوو الخمسة عشر عاماً أو الستة عشر عاماً.. أفصلهم عن المجموعة مؤقتاً.. لأنها المجموعة هى التى تقتلهم.. دائماً.. تعوقهم عن أن يتشكّلوا.. ألصق كاميرا بأيديهم وأُعهد إليهم بواحد من رفاقهم ليُجروا معه مقابلة صحفية.. صبى يختارونه هم بأنفسهم.. يُجرون المقابلة بمفردهم فى ركن ما.. بعيداً عن العيون.. يعودون.. ونرى جميعاً بعدسة مكبرة الفيلم معاً.. مع المجموعة.. هذه المرة.. وهذا ما لا يخيب سعيه أبداً: الصبى الذى تُجرى معه المقابلة يكرر عادة أمام الهدف.. والذى يصور الفيلم يدخل فى لعبته.. يجذبون الأنظار إليهم.. يعيدون إضافة نبرتهم إلى الفيلم.. يدحرجون آليات فى معجم الصف الرابع وهم يصيحون بأعلى صوت ممكن.. كحالتى حين كنت طفلاً.. يصنعون منه خزائن.. كأنهم كانوا يتوجهون إلى المجموعة.. كأن المُشاهد الوحيد الممكن هو المجموعة.. وأثناء العرض يفرق رفاقهم فى الضحك.. أعرض الفيلم مرتين.. ثلاث.. أربع مرات.. تتسع الضحكات.. تصبح أقل رسوخاً.. من يُجرى المقابلة ومن تُجرى معه يشعرون أنهما يرتقيان شيئاً

ما عجيباً.. لن يتوصلا إلى التحقق من هويته فى العرض الخامس أو السادس.. يستقر ضيق حقيقى بينهم وبين جمهورهم.. فى السابع أو فى الثامن (أطمئنتك.. وصل الحال بى إلى عرض الفيلم نفسه تسع مرات!).. يفهمون جميعاً.. دون أن أشرحه لهم.. أن الذى يصعد ثانية على سطح هذا الفيلم هو المظهر الخداع.. السُخرة.. الكذب.. مزاحهم العادى.. إيماءات المجموعة.. كل حيلهم المعتادة.. وأن كل هذا بلا فائدة.. صفر.. ما من حقيقة.. حين يصلوا إلى هذه المرحلة من الوعى.. أوقف العروض وأعيدهم مع الكاميرا لإعادة إجراء المقابلة.. دون تفسير إضافى.. فى هذه المرة نحصل فضلاً عن ذلك على شىء ما جاد.. له صلة بحياتهم الواقعية: يقدمون أنفسهم.. يذكرون ألقابهم.. أسماءهم.. يتحدثون عن عائلاتهم.. عن موقفهم الدراسى.. ثمة صمت.. يبحثون عن كلماتهم.. نراهم يفكرون.. من يجيب كمن يسأل.. و.. شيئاً فشيئاً.. نرى المراهقة تظهر لدى هؤلاء المراهقين.. يكفون عن كونهم شباباً يَتَمَلَّون بإخافة سواهم.. يصبحون مرة أخرى أولاد وبنات عمرهم.. خمسة عشر عاماً.. ستة عشر عاماً.. مراهقتهم تُعبر مظهرهم تفرض نفسها.. ملابسهم.. قبعاتهم تصبح أشياء مُكَملة مرة أخرى.. تلقائيتهم تتخفّض.. فطرياً مَنْ يصنع الفيلم يُضيق الكادر.. يُقَرِّب الكاميرا أو يبعدها.. إنه وجههم الذى يَعد الآن.. قد تقول إن مَنْ يُجرى المقابلة يصفى إلى وجه الآخر.. وعلى هذا

الوجه.. الذى يظهر.. يبدو مجهود الفهم كأنهم كانوا
يتراءون للمرة الأولى كما هم يكونون: يصنعون المعرفة
مع التعقيد.

من جانبيها تحكى مين أنه فى داخل الفصول الصغيرة التى تدخلها .. تلعب لعبة تبهج الأطفال لعبة القرية. إنها لعبة بسيطة .. تركز - فى الثثرة مع الصفار .. فى اكتشاف أكثر الخطوط ضخامة لطباعهم .. لكفاءاتهم .. لرغباتهم .. أفكار بعضهم وبعضهم الآخر الثابتة - على تحويل الفصل إلى قرية حيث يجد كل واحد منهم مكانه .. متخيلاً ضرورياً بواسطة الآخرين:

بائعة الخبز .. مستخدم البريد .. معلمة الابتدائى .. الميكانيكى .. البقالة .. الدكتور .. الصيدلانية .. المزارع .. السباك ..

الموسيقى .. لكل واحد منهم مكانه .. بما فى ذلك الذين من أجلهم اخترعت حِرفاً مُتخيلة ضرورية كذلك مثل جامعة الأحلام أو رسامة السحاب ...

- وماذا تفعلين من قاطع الطريق؟ الأربعة من عشرة .. قاطع الطريق الصغير .. ماذا تفعلين منه؟

تبتسم:

- الشرطى .. بالتأكيد ..

واحسرتاه.. لا نستطيع أن نستبعد حالة قاطع الطريق الحقيقي.. قاطع الطريق القاتل.. حتى عن طريق اللعب.. لن يتحول أبداً إلى شرطى. نادراً جداً لكنه موجود. فى المدرسة كما فى أماكن أخرى فى خمسة وعشرين عاماً من التعليم.. فى قرابة ألفين وخمسمائة تلميذ.. كان على أن ألتقيه مرة أو مرتين. رأيت أيضاً على كرسى المستقرين.. هذا المراهق بحقه المبكر.. بنظرته المتجمدة.. الذى نقول عنه فى أنفسنا إنه ينتهى الأمر به فى خبر تافه فى جريدة لأنه لن يُوقف أى نزوة.. لن يحتفظ بصدماته.. يرمى اندفاعه.. يهين ثأره بحساب.. يحب أن يؤلم.. يُرهب الشهود ويبقى حاجزاً للندم تماماً.. جريمته الموظفة ذات يوم. هذا الولد ذو الثمانية عشر عاماً.. على سبيل المثال.. الذى كسر العمود الفقرى للشاب (ك.) بضربات فأس لسبب وحيد وهو أنه من حى مواجه لحيه.. أو ذاك الآخر.. ذو الخمسة عشر عاماً.. الذى طعن المُدرس الذى يُدرس له اللغة الفرنسية بالخنجر. لكن الكل بمقدار هذه الشابة التى تربت فى مدارس خاصة.. تلميذة بالنهار.. ومغربة بالليل لنوى الأربعين

عاماً الذين كانت تُسلمهم لكومبارسين فى مثل عمرها ومن بيئتها.. لقد كانت تُنكّل بهم حتى الموت كي تسرقهم. بعد استجوابها سألت رجال البوليس المشدوهين هل تستطيع أن تعود إلى منزلها!.

من كانوا هناك لم يكونوا مراقبين عاديين. ذات يوم.. مُفسّرةً بواسطة كل العوامل الاجتماعية - النفس مادية التى يمكن تصورها تظل الجريمة خبيثة جنسنا. هى ليست مفاجئة كالعنف الجسدى الذى يزداد مع الاحتياج.. الحبس.. البطالة.. إغراءات مجتمع التشيع.. لكن كولد عمره خمسة عشر عاماً صمم على طعن مدرسه بالخنجر - وفعلها! - يظل حدثاً من وجهة نظر علم الأمراض فردياً. عملياً.. بمساعدة عدد كبير من صفحات الجرائد الأولى والتحقيقات التليفزيونية.. رمز مرحلة الشباب المُسلم به فى مكان معين (فصل الضاحية) .. هو جعلها تُعرف بعش السفاحين والمدرسة ببؤرة إجرامية. فى مادة القتل.. ليس مفيداً أن نذكر أنه ذات يوم سنكتشف أن الهجوم المسلح.. أن المشاجرات على الطريق العام.. أن جرائم السرقات والثأر بين الجماعات المتناظرة ستمثل نسبة ٨٠٪ من الجرائم الدموية التى تحدث داخل نطاق الوسط العائلى. إنه قبل كل شيء يتقاتل الرجال فى منازلهم .. أسفل أسقفهم.. داخل هيجان سِرِّى لمنزلهم.. فى قاع سِرِّهم الخاص بهم. جعل المدرسة تُعرف بمكان إجرامى هو - فى حد ذاته - جريمة خرقاء ضد المدرسة.

على ذكر سَمَت الزمن.. لم يكن يدخل العنف إلى المدرسة إلا بالأمس.. عبّر الأبواب الوحيدة للمضاحية وعبّر الطرق الوحيدة للخيال. لم يكن العنف موجوداً من قبل. إنه عقيدة.. وهذا ما لا يُناقش. يتبقى لى رغم ذلك ذكرى الفقراء الذين يُنكّل بهم ضجيجنا. فى سنوات الستينيات.. هذا المُدرس الذى تجاوز الحد بإلقائه مكتبه على فصلنا فى الصف الثالث.. على سبيل المثال أو هذا المُشرف الذى أمسك الأغلال بيديه كى يُوسّع تلميذاً ضرباً.. التلميذ الذى أخرجهُ حد الجنون.. وفى كل بداية عام من أعوام الثمانينيات.. هؤلاء الفتيات العاقلات كثيراً ظاهرياً.. اللاتى أرسلن مُدرسهن ليعالج من النوم (كنت أنا من حل محله)؛ لأنه كان يطمح إلى أن يجعلهن يصادقن أميرة كليف.. التى كانت هؤلاء الأنسات يرينها (مُملّة بإفراط)...

فى سبعينيات القرن التاسع عشر.. هذه المرة.. الفونس دوديه كان يُبين من قبل أنه كمعلم معذب: أقمت فى دراسة الوسائل وجدت هناك قرابة خمسين شريراً فاسداً.. كانوا جبليين ممتلئى

الخدود.. أعمارهم من الاثنى عشر عاماً حتى الأربعة عشر عاماً.. أبناء مزارعين حديثى الثراء.. أرسلهم آبائهم إلى المدرسة كي يصنعوا منهم برجوازيين صغاراً.. بسعر مائة وعشرين فرنك فى التيرم. بدائيون.. سفهاء.. يتحدثون فيما بينهم بلهجة السافانين(*) الفظة. لم أكن قد استمعت إلى شىء منها.. كانوا جميعاً لديهم هذا القبح الخاص فى الطفولة التى تتناسل.. أياد حمراء ضخمة بها تشققات.. أصوات شباب كديوك أصابها الزكام.. نظرات بلهاء.. وفى الأعلى رائحة المدرسة. فى الحال يفضوننى.. دون أن يتعرفوا إلى.. كنت عدواً بالنسبة إليهم.. المعلم. حتى اليوم الذى أجلس فيه على كرسى الأستاذ. كانت هذه هى الحرب بيننا.. حرب أبدية ضروس.. دونما هدنة.

آه! الأطفال قساة القلب.. كأنهم يعذبوننى. كم أود أن أتحدث عنهم لنتسالم. بعيدة جداً هذه الأحزان! وبعد لكلا.. لم أستطع.. عجباً!.

حتى فى الوقت الذى أكتب فيه هذه الأسطر.. أشعر بيدي ترتعش من الحمى ومن التأثير. يبدو لى أننى ما أزال هناك.

(...)

إنه لشيء مرعب جداً أن تعيش محاطاً بالعدوانية.. أن تظل فى حالة خوف سرمدية.. أن تكون على حذر دائماً.. مسلح دائماً.. مرعب جداً أن

(*) نسبة إلى غابات السافانا (المترجم).

تعاقب.. ن ظلم أحياناً رغماً عنا - مرعب جداً أن
ترتاب.. أن ترى المكائد في كل مكان.. ألا تأكل وأنت
مطمئن.. ألا تنام في هدوء.. أن تقول لنفسك دائماً
حتى في لحظات الهدنة:

(آه.. يا إلهي.. ماذا سيفعلون بي الآن؟)

هيا.. أنت تُبالغ يا دوديه.. بحيث أننا نقول لك
عليك أن تنتظر عصراً مناسباً من أجل أن يدخل
الغنف إلى المدرسة!.

وليس من خلال غابات السافانا.. يا دوديه.. من
خلال الضاحية.. الضاحية الوحيدة!.

منذ عهد قريب.. كنا نتصور التلميذ الكسول واقفاً على وتد.. قبعة الكسول على رأسه كشئ لولبي. لم تكن هذه الصورة تسمُ أى طبقة اجتماعية على وجه الخصوص.. كانت تشير إلى طفل وسط الآخرين.. ألقى به فى الركن لأنه لم يستذكر الدروس ولم يعمل واجبه.. أو لأنه ضجَّ على السيد دوديه.. المعروف بـ "الشئ الصغير" (*). اليوم وللمرة الأولى فى تاريخنا.. تكون هذه هى طبقة الأطفال والمراهقين الذين يوسمون يومياً وبصورة مطلقة كتلاميذ رمزيين كسالى. لم نعد نلقى بهم فى الركن لم نعد نلصق بهم قبعة الكسول.. حتى كلمة (تلميذ كسول) بذاتها باتت مهجورة. تُعرف العنصرية بأنها عمل شائن.. لكننا نُصورهم على فيلم سينمائى دونما توقف.. بل نشير إليهم فى فرنسا بأكملها.. نكتب عن إساءات بعضهم مقالات تصفهم جميعاً بالتلميذ الكسول الذى لن يُشفى أبداً إلى جوار التربية المحلية. لا يسُرُّنا أن نجعلهم يعانون ممن ينتمى إلى التمييز العنصرى الدراسى.. يجب علاوة على ذلك أن نتوجَّس خيفة

(*) اسم رواية لألفونس دوديه (المترجم).

منهم كما لو كانوا داءً محلياً:هم [كل] شباب [كل]
الضواحي. تلاميذ كسالى.. جميعاً.. فى تصور
الجمهور.. تلاميذ كسالى وخطيرون: المدرسة.. هى
هُمّ.. بما أننا لا نتحدث إلا عنهم حين نتحدث عن
المدرسة.

بما أننا لا نتحدث عن المدرسة إلا من أجل أن
نتحدث عنهم.

صحيح أن بعض أعمال العنف المُستخدمة
(تلاميذ مُبتدئين مالياً .. مُدرسون تمَّ ضربهم .. مدارس
أُحرقت .. اغتصابات) بلا مِغيار مُشترك مع ضجيج
العام الدراسي الماضي .. الذي كان يقتصر على أعمال
عنف تقريباً تُراقب في نطاق المؤسسات المدرسية
المحدد . مهما بلغت ندرتهم .. فإن النتائج الرمزية لهذه
الإساءات مرعب وتتاسلهم الآن تقريباً بواسطة صور
التليفزيون .. اللوحة .. هواتف محمولة تُزيد على
عشرة أضعاف الخطر الذي يتخلق منهم . زيارة .. منذ
زمن .. لمدرسة ثانوية للتعليم العام والتقني .. في اتجاه
دينى(*) . كان على أن أقابل فصولاً عديدة فيها .

ليل الفندق .

سُهاد .

تليفزيون .

تحقيق تليفزيوني .

أرى فيه مجموعة صغيرة من الشباب في شامب

- دى - مارس على هامش مظهر الطلاب .. يهاجمون

(*) اسم مدينة (المترجم) .

ضحايا بالمصادفة. يسقط إحدى الضحايا. إنه ولد من نفس عمر جلاديه. يضربونه.. ينهض.. يلاحقونه. يسقط مرة أخرى.. يضربونه من جديد. تتناسل المشاهد. دائماً ما يحدث السيناريو نفسه.. يتم اختيار الضحية بالمصادفة.. بتحريض أى عضو أياً كان من المجموعة.. الذى ينسلخ عن رهطه.. ينصب عليها. يركض الرهط خلف من يركض.. كل منهم يندفع إليها بواسطة الآخرين.. الذين يكون هو بنفسه مُحركهم. يركضون بسرعة القذائف. بعد ذلك بفترة سيقول أب عن ابنه فى البرنامج نفسه.. إنه تركه ليتدرب.. هذا صحيح.. مهما حدث بالمعنى الحركى للعبارة: مُتَدَرِّب مُدَرَّب. أَيْكون ماجزيميليان (الخاص بى) فى عداد هذه المجموعات؟

تخطر ببالى فكرة. لكن مجانية العدوان هنا قد تسمح بأن يكون ماجزيميليان من بين الضحايا. ليس الوقت لما يُعرَض.. عنف أعمى.. مباشر.. مبالغ فيه. (يَحْظَر رَأْيُ البرنامجِ على مَنْ هم دون الثانية عشر. كان يلزم هذا البرنامج للمرة الأولى أن أقضى ساعة فى الإصغاء التام إليه وأن أتخيل أن عناقيد من الصبية المفتونين بالمنع لصقوا فى الحال خطمهم فى الشاشة).

يُعَقَّب على هذه المشاهد رجل بوليس وعالم نفس. يتحدث عالم النفس عن إعادة التحقق من أناس دون عمل مغمورين فى صور من العنف.. أما رجل البوليس فيتحدث عن عاقبة الضحايا ومسئولية

الجُناة. كلاهما مُحَقَّقٌ.. بالتأكيد.. لكنهما يُعطيان انطباع الإقامة المؤقتة في ميدانى رأى متناقضين موسومين بقميصِ عالم النفس المفتوح ورابطة عنق رجل البوليس المعقودة.

الآن.. نتابع مجموعة من أربعة شباب قُبِضَ عليهم لأنهم قتلوا بارمان^(١). قاموا بضربه حتى الموت من أجل أن يلعبوا. كانت فتاة شابة قد صورت هذا المشهد عن طريق هاتفها المحمول. هى ذاتها التى أطلقت الكرة فى رأس الضحية كأنه تعلق بكرة بسيطة. المندوب الذى ألقى القبض عليهم يؤكد أن الضياع الكلى للشعور بالواقع هو بالتالى ضياع لكل شعور أخلاقى. هؤلاء الأربعة قضوا الليلة فى اللهو بهذا: ضرب الناس وصناعة فيلم عنهم. نراهم.. بفضل كاميرات المراقبة.. ذاهبين من عدوان إلى آخر.. بخطى مطمئنة.. مثل رفاق "برتقالة آلية"^(٢) الذين يتزهون. تصوير أعمال العنف هذه باستخدام الهواتف المحمولة هو موضحة جديدة.. يوضح المعلق. امرأة شابة.. مُدرسة.. كانت ضحية لهم. فى فصلها (صور). تظهر.. مُلقاة على الأرض بيد تلميذ.. ضُربت وصُورت. أى إنسان ينقل اليوم تليفزيونياً وببساطة هذا النوع من المشاهد. بل يستطيع أن يضيف عليها موسيقى تصويرية حسب اختياره. تأويلات متفرزة من

(١) النادل الذى يعمل فى حانة أو بار (المترجم).

(٢) اسم رواية وفيلم لكاتب إنجليزى اسمها الأصلى: A

clockwork orange.

بعض المراهقين المنشغلين بمشاهدة فيلم المُدرّسة التى
ضُرِبَتْ باستخدام عدسة مكبرة.

أنتقل بين القنوات بالريموت كونترول.

نسبة غريبة من أفلام العنف على القنوات
الأخرى. إنها ليلة وديعة.. ينام المرء فى هدوء.. لكن
على مقربة من سريرهِ.. فى صمت مُعتم.. تسهر
الصور. نُفْتَال من خلالها تحت كل الأشكال.. على كل
الإيقاعات.. وبكل النبرات.

البشرية المعاصرة تُخْرِج اغتيال البشرية المعاصرة
المستمر.

على قناة مستثناة من هذا.. بعيداً عن حضور
البشر.. فى ظل وئام الطبيعة الضوئى.. كانت هى
الحيوانات التى تفترس بعضها بعضاً. على إيقاع
الموسيقى.. هى أيضاً.

أعود إلى القناة التى بدأت بها. الولد الجرىء
الذى تركز مهارته فى نقل كل مشاهد العنف المُبالغ
فيه تليفزيونياً عبر العالم (إعدامات تعسفية..
انتحارات.. حوادث.. عراقيل.. قنابل.. قتلى.. إلخ.)
يؤيد عمله القذر بالثيمة الكلاسيكية لواجب التحقيق.
إنّ لم يفعلهُ سيفعله آخرون.. يؤكد.. هولا يُجسّد
العنف.. هو ليس إلا رسوله.

دنىء عادى.. يجعل الآلة تدور.. بطريقة الجدة
ماركتنج نفسها.
تُخور قُواى.

ما من وسيلة للعثور على النوم. لقد أبتليت بدورى باختيارى التشاؤم بنهاية العالم. فقر نظامى من جانب.. دعر وهمجية مُطلقة من جانب آخر. إعادة تحقّق مطلقة فى العسكرية: أوهام بورصية(*) لدى الأثرياء.. فيديو مذبحة لدى المُبْعدين.. العاقل عن العمل يُحوّل إلى فكرة العاقل عن العمل بواسطة كبار المساهمين.. الضحية فى صورة ضحية بواسطة صغار السوقيين.

فى كل الحالات.. اختفاء الإنسان بنفسه.. بقضه وقضيضه. ووسائل الإعلام مُنسقة هذه الأوبرا المخرجة بالدماء حيث تترك التأويلات مجالاً للاعتقاد - بالقوة - بأن كل صبيّة الضواحي كان بمقدرتهم قَطْع الشوارع ركضاً كي يقتلوا عزلتهم المقبلة فى صورة الجميع. مكان التربية. فى هذا المكان؟ المدرسة؟ مكان الثقافة؟ الكتاب؟ العقل؟ اللغة؟ ما جدوى خضوعى غداً فى مدرسة ثانوية للتعليم العام والتقنى لو أن التلاميذ الذين قابلتهم فيها يُفترض أنهم قضوا الليلة داخل أحشاء هذا التلفزيون؟

نوم.

استيقاظ.

استحمام.

الرأس أسفل الماء البارد.. يا لها من لحظةٍ ما أنسبها.

(*) نسبة إلى البورصة. (المترجم).

أيها الرب الطيب.. أية طاقة تلزمنى كي أعود
إلى الواقع بعد رؤية هذا!.

عجيباً.. للصورة التى أعطيتها انطلاقاً من بعض
هؤلاء البلهاء عن الشباب!.

أرفضها لنستمع جيداً أنا لا أنكر واقعية هذا
التحقيق.. ولا أبخس أخطار الانحراف قيمتها. كثيراً
جداً ما ترعبنى أشكال العنف الحضرى المعاصرة..
أخشى تقثير الرهط الشديد.. كذلك لا أتجاهل معاناة
العيش فى بعض الأحياء المحيطة.. أحس فيها بالخطر
الطائفى.. أعرف تماماً بين آخرين صعوبة مولد بنت
فى هذه الأحياء.. صعوبة أن تصبح امرأة هناك.. أنا
أقيس الأخطار المبالغ فيها حيث ثمة أطفال ينحدرون
من جيل أو من جيلين من العاطلين عن العمل..
يُعرضون هناك.. أية غنيمة ينشئونها من أجل المهرين
من كل جنس!.

أعنى هذا.. أنا لا أقلل من الصعوبات التى تواجه
المدرسين الذين يواجههم التلاميذ الأكثر انهداماً جراء
هذه الورطة الاجتماعية المرعبة.. لكنى أرفض أن
أقارن بصور العنف المبالغ فيه هذه (كل) المراهقين فى
(كل) الأحياء المعرضة للتهلكة. وخصوصاً.. خصوصاً..
أمقت خوف الفقير الذى يُؤججه هذا النوع من
الدعاية فى كل مرحلة انتخابية جديدة!.

عارٍ على كل من يجعلون من الشباب الأكثر هجراً
شيئاً فانتازياً للرعب القومى!.

إنهم حثالة مجتمع بلا شرف فقد حتى الإحساس
بالأبوة.

يُتفق أن هذا هو يوم حفلة في مدرسة ثانوية
للتعليم العام والتقني .. صباحئذ. حفلة المدرسة.
مدرسة بأكملها تحولت ليومين أو لثلاثة أيام إلى مكان
لعرض كل ما أبدعه التلاميذ خارج دائرة دراستهم
الرسمية: رسم.. موسيقى.. مسرح.. فن عمارة حتى
(لقد أنشأوا بأنفسهم منصّات العرض).. تحت
إشراف مديرة وفريق من المدرسين الذين يعرفون كل
فتاة وكل فتى باسمه في القاعة الكبرى .. توجد
أوركسترا صغيرة من التلاميذ. يرافقني الكمان طوال
الممرات. ثلاثة أو أربعة فصول تنتظرني داخل قاعة
فسيحة. نلعب لمدة ساعتين لعبة الأسئلة والإجابات
الحرّة. مرحهم.. ضحكاتهم.. رزانتهم العنيفة..
لُقياتهم(*) .. طاقتهم الحيوية خاصة.. طاقتهم
المذهلة تتقدّني من كابوسي التلفزيوني.

عودة.

رصيف المحطة.

رسالة علىّ في حقيبتى:

(*) الأشياء النفيسة التي يكتشفها الإنسان. (المترجم).

- تحياتي.. أنت! لا تنسَ موعدنا غدًا: تلاميذي
ينتظرونك. إنهم يعكفون على مَنْتَجَةٍ (*) أفلامهم. لا بد
من أن ترى هذا. هذا يستهويهم!.

(*) من المونتاج. (المترجم).

مَا يُرِيدُ أَنْ يَقُولَهُ أَيْمِيهِ

يجبُ أن تكونَ طيبًا قليلًا جدًا في هذا العالمِ
حتى تعيشهُ كما ينبغي .

(ماريشو)

لعبة الحب والمصادفة .

- ١ -

ما إنْ تَقَطَّعَ الأمهات القانطات اتصالهن.. أبداً أنا
اتصالى كى أسعى لتحديد أولادهن. أقوم بجولة الزملاء:
أصدقاء الزمن الجميل.. اختصاصيون فى حالات
القنوط الشهيرة.. وأنا بدورى أَلْعِبُ دور الأم المحزونة.
فى الطرف الآخر من الحَبْلِ ثمة مَنْ يتسلى بهذا:
- آه! أنت ذاك! عموماً إنه الموسم الذى تتجلى
فيه!.

- كم تَغِيَّبُ فى العام.. قلْ؟ سبعة وثلاثون! لقد
غاب سبع وثلاثون مرة وتريد أن نأخذه؟ أنت تُسَلِّمه
بالأغلال؟

ديديه.. فيليب.. ستيلا.. فانشون.. بيير..
فرانسواز.. إيزابيل.. على.. كلُّ بقدر ما يكون!..
نيكول ش.. إليها وحدها.. تفتح مدرستها الثانوية
للجميع ذراعيها المكسورتين لِيَمْرُؤَا...
حتى وصلتُ إلى أن أحتج فى منتصف العام.
- هيا.. يا فيليب...

مطرود لأى سبب؟ سَدًّا فى داخل وخارج
المدرسة؟ حتى مع حراس المركز التجارى الليلين! وهذه

ليست هي المرة الأولى؟ هدية رأس السنة الجميلة.. لتقل إذا أرسل دائماً.. سأرى ما يمكن أن نفعله. أو ذاك الحوار مع الأنسة ج. مديرة مدرسة. أجدتها مشغولة بمراقبة واجب جهازاً. فصلان يُمتحنان أمام عينيها. صمت تركيز. أقلام تُمضغ.. أو تدور بأقصى سرعة فيما بين السبابة والإبهام (كيف ينجحون في هذا؟ هذا ما لم أتوصل إليه أبداً)..

أوراق مُسوَّدة خضراء بالنسبة للبعض.. وصفراء بالنسبة إلى آخرين.. هدوء الدراسة. ثمّة مَنْ ينوى أن يختلس شيئاً ما. دائماً ما أحببتُ صمت القيلولة وهدوء الدراسة. لقد توصلتُ في طفولتي للربط بينهما. كان لدى ذوق الراحة غير المستحقّة. أعرف كل شيء عن فن التظاهر بالكتابة مُجهزاً نسخة بيضاء. لكن ما أصعب أن تُلعب هذه اللعبة الصغيرة في ظل رقابة الأنسة ج.

رأتني وأنا أدخل بطرف عينيها. لم تتعثر. هي تعرف أنني لن أزعجها مجاناً وأنه.. لو أنني استتدت إلى هذا فلا أخبرها بنياً سار. أسير دونما جلبية نحو مكتبها.. أنحنى على أذنها.. أهمس لها بحججي للبيع: - خمسة عشر عاماً وثمانية أشهر.. بعيد سنته الدراسية في الصف الثالث.. فقدّ الاعتياد على العمل من عشرات السنين.. طُرد لِإِلَلٍ لا تُحصى.. قُبِض عليه الشهر الماضي في محطة المترو بسبب بيعه للبريتات(*) .

(*) البريت: عبارة عن قلنسوة مُقرّنة (المترجم).

أم هاربة.. أب غير مسئول.. أتاخذونه؟

... -

الآنسة ج. لا تنظر إلى دائماً.. هي تنظر إلى رعيّتها.. تكتفى بإشارة من رأسها تعنى نعم لكن: - مع إمكانية أن تُتمتم دون ضجة بشفتيها. - أي منها؟

- ما لا تطلب مني أن أشكرك عليها.

يا آنستي ج. البريطانية جداً.. الرضا الصامت هو أفضل ذكرياتي كمدرس! هذا في ماريثوا (*) في ماريثوا أتسمعي؟ ليس في أحد كتبك المتدّينة.. في ماريثوا.

إذ وجدت الجملة التي لا بد أن تخدمك سرّاً كشعار: (يجب أن تكون طيباً قليلاً جداً في هذا العالم حتى تعيشه كما ينبغي.)

إنّ أضيف أنّك قدّدت هذا الصبيّ حتى الثانوية العامة.. فسأروى عنه القليل فيما يخص نتائج هذه الطّيبة.

(*) يقصد في كتاب ماريثوا لعبة الحب والمصادفة (المترجم).

يكفى مُدرس - مدرس وحيداً - كى ينقذنا من أنفسنا ويُنسينا كل الآخرين. إنها.. على أى حال.. الذكرى التى أحتفظ بها عن السيد بَالْ. كان يُدرس لنا مادة الرياضيات فى الصف الأول. من وجهة نظر الحركية هو نقيض لكيتج.. المدرس الذى لا يمكن أن نصفه بأقل من السينمائى: بيضاوى.. أقول.. صوت مرتفع.. ولا شىء خاص يستوقف النظر. كان ينتظرنا جالساً فى مكتبه. كان يُحيينا بمحبة.. ومن كلماته الأولى كنا ندخل فى الرياضيات. مما كانت تُجهز هذه الساعة التى كانت تحتجزنا إلى حد ما؟

جوهرياً من المادة التى كان يُعلمها لنا السيد بَالْ والتى كان يبدو مُقيماً فيها.. ما كان يفعله بغرابة هو كائن حى.

هادىء وطيب. طيبة غريبة.. ولدت من المعرفة نفسها.. رغبة طبيعية ليقسم معنا (المادة) التى كانت تخلق عقله والتى لم يكن يتصور أننا ننظر منها.. أو أنها فقط غريبة. كان بَالْ معجوناً بمادته وبتلاميذه. كان لديه شىء من انفراج الأسارير بالمهد الرياضى.. براءة مرعبة. فكرة أن يستطيع أن يحدث ضجيجاً لم

تكن تمسّه أبداً.. والرغبة فى أن نسخر منه لم تخطر
ببالنا أبداً.. درجة أن سعادته بالتدريس كانت مُقنعة.
ومع ذلك.. لم نكن نحن مستمعين ودُعَاءَ . كلنا تقريباً
خرجنا من صندوق قمامة جيپوتى.. ونادراً ما نمتلك
الجاذبية. لدى بعض الذكريات عن الحواجز الليلية..
فى المدينة.. وعن الانتقامات الباطنية التى لم تكن
تقتضى أى داع للشفقة. لكن.. منذ أن كنا نجتاز باب
السيد بَالْ كنا كأننا تَطَهَّرْنَا بتغطيسنا فى الرياضيات
و.. الساعة الماضية.. كان كل واحد منا يُعيد عمل
سطح رياضى (١).

يوم أن نلتقى.. وحين كان من هم أكثرنا غباءً
يتباهون بأصفارهم المُنْقَطَة (٢).. كان يَرْدُ بابتسامة أنه
لا يعتقد فى المجموعات الخاوية. علام.. وَجَّه بعض
الأسئلة البسيطة بشدة واعتبر إجاباتنا البسيطة كَتَبَرٍ
نفيس جداً.. وهذا ما كان يُسلينا كثيراً.

ثم.. كان ينقش العدد ١٢ على السبورة سائلاً
إيانا ما الذى كتبه هناك. كان أكثرنا يقظة يحاولون
الخروج:

– أصابع اليد الاثنا عشرًا.

– الاثنا عشر تنبيه رسميًا.

لكن البراءة.. فى ابتسامته.. كانت تشجع حقيقة:

– إنها أقل درجة ستحصلون عليها فى البكالوريا.

(١) نسبة إلى مادة الرياضيات ووردت فى الأصل الفرنسى هكذا:
وهى ليست فرنسية. (المترجم). mathematikos.

(٢) الصفر المُنْقَط هو الذى يرسم الحاصل عليه فى الامتحان.
(المترجم).

أضاف:

- لو كففتم عن أن تخافوا.

وأيضاً:

- من جهة أخرى.. لن أعود إليها مرة أخرى. إنها

ليست البكالوريا التي سننشغل بها هنا.. إنها

الرياضيات. في الحقيقة.. لم يعد يحدثنا ولو مرة

واحدة عن البكالوريا.

أمّ تلو أمّ.. انشغل هذا العام بجعلنا نصعد مرة

أخرى من هاوية جهلنا.. لاهين بجعله يمر من بئر

العلوم نفسه.. دائماً ما كان مندهشاً بشدة مما كنا

نعرفه رغم كل شيء.

- أعتقدون أنكم لا تعرفون أي شيء.. إذا أنتم

مخطئون.. مخطئون.. أنتم تعرفون عنها الكثير!

انظر.. يا بناكشيونى.. أكنتَ تعرف أنك تعرف

هذا؟

بطبيعة الحال.. هذه التسّالية^(١) لا تكفى لتجعل

منا عباقرة في الرياضيات.. ولأن بئرنا كانت عميقة

جداً.. فقد قادنا السيد بَال مرة أخرى جميعاً إلى

مستوى مثابة البئر^(٢): المتوسطة في البكالوريا.

ودون أدنى إشارة.. أبداً.. إلى مستقبلنا المشئوم

الذي وفقاً لعدد من المدرسين الآخرين ومنذ زمن

طويل جداً.. كنا ننتظره.

(١) هي استخراج الحق من النفس عن طريق توجيه الأسئلة في

منهج سقراط. (المترجم).

(٢) حجر منقور مثبت حول فوهة البئر. (المترجم).

هل كان هو نفسه عالم رياضيات كبيراً؟
 و.. العام التالى الأنسة جى مؤرخة عملاقة؟
 و.. طوال فصلى الدراسى الثانى.. السيد س.
 الفيلسوف منقطع النظير؟ أقتّره.. لكنى والحق يُقال
 أتجاهله.. أدرك وحسب أن هؤلاء الثلاثة كانوا
 مسكونين بشغف مادتهم السارى. مسلحين بهذا
 الشغف جاعوا يبحثون عنى فى قاع إحياطى ولم
 يرخوا لقدمى الهادئتين بصلاية فى درسهم العنان
 سوى لمرة واحدة.. درسهم الذى تناوب فى كونه
 مدخلاً لحياتى. لم يكن اهتمامهم بى أكثر من
 الآخرين.. كلا.. لقد كانوا ينظرون إلى تلاميذهم
 الجيدين وتلاميذهم الكسالى بالتساوى. كانوا يعرفون
 كيف يُنعشون لدى تلاميذهم فى الصف الثانى الرغبة
 فى الفهم. كانوا يرافقون مجهوداتنا خطوة بخطوة..
 كانوا يبتهجون بِتَقْدَمنا.. لم يكونوا ليعيل صبرهم من
 توانينا.. لم يعتبروا إخفاقاتنا أبداً كإهانة شخصية
 وكانوا يلتزمون معنا بضرورة قاسية لا سيما وأنها
 كانت مُشيدة على الجودة.. مثابرة وسخاء عملهم
 الخاص بهم. بالنسبة إلى الباقين .. لا نستطيع أن

نتخيل مدرسين أكثر اختلافاً.. السيد بَالٌ.. هادئ جداً ومبتسم كثيراً.. بوذا (١) رياضى.. الأنسة جى على العكس جذع الريح (تروند لير) (٢) كما يقولون فى قرىتى).. إعصار كان يقتلعنا من غطاء كَسَلْنَا كى نتدرب معها فى حصّة التاريخ الصاخبة.. حين كان السيد س. الفيلسوف الشكّاك والمُقرّن (أنف مقرنة.. قبعة مقرنة.. بطن مقرن).. الثابت وثاقب الفكر.. يتركنى مساءً أجيء مدندناً بالأسئلة التى كنت أحترق للإجابة عليها. كتّ أعيد إليه المقالات الغزيرة التى كان يصفها بالتامة.. مشيراً من هناك أن رفاهيته كمُصحّح كانت ترتضى واجبات أكثر إيجازاً. بعد إعمال الفكر.. لم يكن لدى هؤلاء المدرسين الثلاثة قاسم مشترك سوى: لم يكونوا ليُفْلِتونا أبداً.. لم ينخدعوا باعترافاتنا.. اعترافات الغباء. (كم مقال جعلتّى الأنسة جى أعيدها بسبب عدم انضباط خطى؟

كم درس إضافى أعطاه لى السيد بَالٌ؛ لأنه كان يجدنى فى هيئة الغائب فى الرواق أو شارد الذهن فى قاعة المراقبة؟ (٣) لو أننا درسنا رياضيات لمدة ربع ساعة قصير.. يا بناكشيونى.. ما دمنا فيها؟ هيا.. إنه ربع ساعة قصير وجيد... ب).

(١) بوذا لقب يطلقه البوذيون على الحكيم الذى توصل إلى حالة الفناء المطلق. (المترجم).

(٢) الجملة الأصلية التى تعنى جذع ريح هي (tronc de lair) وتطلق فى قرية المؤلف هكذا: (tronde lèr) (المترجم).

(٣) قاعة يُراقب فيها التلاميذ الذين لا يتلقون دروسهم لسبب ما. (المترجم).

صورة الإشارة التي تتخذ من الفرق .. قبضة اليد التي تسحب إلى أعلى رغم إيماءاتكم الانتحارية .. هذه الصورة الفظة لحياة يدٍ ممسكة بصلاية بياقة چاكت هي الأولى التي تخطر ببالی حين أفكر فيهم . فی حضورهم - فی مادتهم - كنت أفتح على نفسي: جزء منی عالم رياضيات .. إن جاز لی أن أقول هذا .. جزء منی مؤرخ .. جزء منی فیلسوف .. جزئی الذی فی مسافة ساعة كان يُنسينی القليل .. یلصقني بين قوسين .. يتملص من جزئی الذی إلى أن قابلت هؤلاء المعلمين كان بمنعني أن أشعر حقيقةً هناك بنفسی .

ثمة شيء آخر .. كان يبدو لی أنهم كان لديهم أسلوب . كانوا فنانيين فی توصيل مادتهم . كانت دروسهم أفعال اتصال .. أكيد .. بل علمٌ سیطر علیه فی ذاك الوقت الذی كان يمر من أجل الإبداع الذاتی تقريباً . كانت رفاهيتهم تجعل من كل ساعة حدثاً نستطيع أن نتذكر جزءاً منه إلى حد ما . لنعتمد أن الأنسة چی كانت تُجدد التاريخ .. أن السيد بال كان يُعيد اكتشاف الرياضيات .. أن سقراط يتكلم عن طريق فم السيد س.ا.

كانوا يعطوننا دروساً جديدة بالذکر مثل النظرية .. معاهدة السلام أو الفكرة الجوهرية التي كانوا ينشئونها منها .. فی ذاك اليوم .. الموضوع وهم يعلموننا كانوا يبتكرون الحدث . تأثيرهم علينا كان يتوقف هناك على أي حال .. تأثيرهم يتصاهر خارج المادة التي كانوا يجسدونها .. لم يكونوا يبحثون عن

إثارة شعورنا. لم يكونوا من أولئك المدرسين الذين يفتخرون بهيمنتهم على مجموعة من مراهقين يشتاقون إلى صورة الأبوة. أكانوا يشعرون فقط أنهم معلمون مُنقذون؟

أما من جهتنا.. فقد كنا تلاميذهم. تلاميذ الرياضيات.. التاريخ.. الفلسفة.. ولم نكن إلا هذا. بالطبع.. كنا نجذب منهم أنفة متحذقة بعض الشيء.. كأعضاء في نادٍ محكم الغلق.. لكنهم كانوا أوائل المُبَاغَتين حين علموا بعد ذلك بخمسة وأربعين عاماً أن واحداً من تلاميذهم أصبح بفضلهم مُدرساً.. ربما يخدع التلاميذ إلى الحد الذي ينصب لهم تمثالاً! بالقدر نفسه.. مثل عازف فيولونسيل بلان. مِسْنَى.. ذات يوم.. وهم عائدون إلى منازلهم.. خارجين من تصحيح كراساتنا أو من تحضير دروسهم لا يفكرون فينا إلا نادراً. كان لديهم بالتأكيد مراكز أخرى لمصلحتهم.. فضول مفتوح.. كان يجب أن يُغذى قوتهم.. الذي كان يفسر بين الآخرين.. كثافة حضورهم في الفصل. (آنسة جى بخاصة كانت تبدو لى أنها تمتلك شهية التهام العالم ومكتباته).

لم تكن ذى فقط هى معرفتهم التى كان هؤلاء المدرسون يقتسمونها معنا.. كانت هذه هى الرغبة نفسها فى المعرفة!.

وهذا هو ذوق توصيلها الذى كانوا يوصلونه إلى.. بضربة.. كنا نذهب إلى دروسهم والجوع بعض بطوننا. لن أقول إننا كنا نشعر أنهم يحبوننا لكننا كنا مُعتبرين منهم بالتأكيد (مُحترمين.. قد يقولها شباب هذه

الأيام). الاعتبار الذي كان يتجلى حتى فى تصحيح كراساتنا .. حيث كانت تعليقاتهم لا تتوجه إلا إلى كل واحد منا بوجه خاص نموذج هذا النوع هو تصويبات السيد بو مدرّس التاريخ فى إيبوكانى. كان يُلزمنا بترك الصفحة الأخيرة من مقالاتنا عذراء كي يتمكن من الكتابة عليها باستخدام الآلة الكاتبة - باللون الأحمر.. على فاصل وحيد بين سطرين - التصويب التفصيلى لكل واجب!.

هؤلاء المدرسون.. الذين قابلتهم خلال سنوات دراستى الأخيرة.. جعلونى أتغير كثيراً عن كل الذين كانوا يُقَلِّصون تلاميذهم إلى كتلة مشتركة وبلا كثافة.. (هذا الفصل).. الذى لم يكونوا يتحدثون عنه إلا باستخدام أفعل تفضيل النقص. كنا دائماً فى عيون هؤلاء أسوأ تلاميذ صف رابع.. ثالث.. ثان.. أول أو صف مهنتهم النهائى.. لم يكن لديهم أبداً فصل أقل... جداً.

كنا نقول إنهم يخاطبون مُستمعين فى تناقص من سنة إلى سنة جديرين بأن يعلموهم. كانوا يشكونهم إلى الإدارة.. إلى مجلس الفصول.. إلى مجلس الآباء. كانت شكاواهم توقظ فىنا شراسة خاصة.. شىء ما كالحنق الشديد الذى يرتديه الفارق ليسحب أثناء غرقه قائداً نذلاً ترك المركب ترتفع على خازوق على صخرة قرب الشاطئ. (*) (نعم.. إنها صورة فى

(*) هنا يستخدم المؤلف كلمة: récif التى تعنى الصخرة، وهى مأخوذة عن الكلمة العربية : رصيف (المترجم).

النهاية.. لنقلُ إنهم كانوا خاصةً مذبذبين المثاليين كما
كنا نحن كذلك بالنسبة إليهم.. كان انخفاضهم
النمطى يطعم فينا أذىً من الرفاهية.)

كان أكثرهم إرعاباً السيد بلامار (بلامار اسم
مستعار) جلادى الحزين وأنا فى عامى التاسع..
والذى كان يجعلها تمطر فوق رأسى درجات سيئة
ومازالت إلى اليوم.

ثابتاً فى ذيل هيئة إدارية.. بلغ الأمر بى أن اعتبره
تذكرة انتظارى كحكم قضائى من بلامار: (رقم ١٧٥..
بناكشيونى.. دائماً ما يكون بعيداً عن التهانى!).

أو مدرس العلوم الطبيعية هذا.. فى السنة
النهائية.. الذى طُردتُ من المدرسة الثانوية بسببه.
متذمراً من أن المتوسط العام لـ (هذا الفصل) لم
يتجاوز ٢,٥ / ٢٠ .. اقترف هو نفسه تغابينا سائلاً
عن السبب. جبهة متعالية.. ذقن ممدود.. ملتقى
شفتين نازل: حينئذ هل فى مقدور شخص ما أن
يشرح هذا... الإقدام؟

رَفَعْتُ بِأَدَبِ جَمِ سَبَابَتِي واقترحت تفسيرين
ممكنين: أو فصلنا الذى كان يتكون من مسخ إحصائى
(٢٢) تلميذاً لا يستطيعون أن يتجاوزوا المتوسط ٢,٥
فى العلوم الطبيعية).

أو هذه النتيجة التى تتصور جوعاً التى كانت تُقرُّ
جودة التعليم المجانى.

سعيد منى.. أفترض.

وقبيح على الباب.

- بطولي لكن دون جدوى.. جعلني لاحظ رقيقاً:

أتعرف الفرق بين مدرس وأداة؟ المدرس السيئ غير قابل للإصلاح أو الترميم.

تغير لونه وقتها.

هيجان أبي بكل تأكيد.

ذكريات قنرة.. سنوات الغلّ المألوف هذه!

بدلاً من أن أجمع وأنشر لآلئ التلاميذ
الكسالى.. الذين كانوا يُبهجون عدداً من قاعات
المدرسين.. على أن أكتب أنطولوجيا^(١) عن المعلمين
الجيدين. لن يفتقر الأدب إلى هذه الشهادات:
فولتير يُثني على يسوعى تورنمين وبوريه..
رامبو يُخضع قصائده للمدرس إيزمبار..
كامي يكتب رسائل بنوية^(٢) إلى السيد جيرمين..
مدرسه العسكرية المحبوب..
جوليان جريه يُرجع ذكراه العطوفة إلى الصورة
العليا الملونة للسيد ليزيليه.. مدرسه لمادة التاريخ..
سيمون ويل تغنى مديحها لمعلمها ألين.. الذى لن
ينساه أبداً جول لانيو الذى جعله يتفتح على الفلسفة..
ج.. ب. بونتالى يحتفى بسارتر الذى كان
(يختلف) عن كل المدرسين الآخرين إلى درجة عالية..
لو.. فضلاً عن المعلمين ذائعى الصيت.. كانت
هذه الأنطولوجيا تقدم بورتريهاً للمدرس الذى لا

(١) الأنطولوجيا: هى المختارات أو المقتنيات. (المترجم).

(٢) نسبة إلى الابن. (المترجم).

يُنسى الذي قابلناه جميعاً على الأقل مرة وحيدة تقريباً
في فترة دراستنا.. ربما كنا اجتذبنا منه بصيص ضوء
عن المميزات الضرورية لممارسة هذه المهنة الفريية.

على مدى تذكّرى.. حين يُوهن عزم المدرسين
الشبان على يد تلاميذ فصل.. يشكون من أنهم غير
مُهيّئين لهذا. الـ [هذا] الخاص بأيامنا هذه.. واقعاً
تماماً.. يُعيد تغطية مجالات متنوعة مثلها مثل تربية
الأطفال السيئة بواسطة الأسرة خائفة القوى..
الأضرار الثقافية وثيقة الصلة بالبطالة والطرْد.. فقد
القيم الوطنية التى تنجم عن العنف فى بعض
المؤسسات.. التباينات الألسنية.. العودة إلى الدين..
بل أيضاً التليفزيون.. الألعاب الإلكترونية.. باختصار..
كل ما يُغذّى - كثر أو قلّ - المجتمع التشخيصى الذى
تقدمه لنا كل صباح نشرات الأخبار الأولى. مِنْ (نحن
لسنا مهيّئين لهذا) إلى (نحن لسنا هناك لـ) لا توجد
سوى خطوة يمكن أن نوضحها هكذا: (نحن -
المدرسين - لسنا هناك لنذيب داخل المدرسة مشكلات
المجتمع التى تضع حجاباً على توصيل العلم.. ليست
هذه هى مهنتنا. ليتهم يلحقون بنا عدداً كافياً من
المشرفين.. من المُربين.. من المساعدين الاجتماعيين..
من علماء النفس.. باختصار.. عدداً من الاختصاصيين
فى كل المجالات وسنستطيع أن نُدرّس بجديّة المواد

الدراسية التي قضينا سنوات عديدة في دراستها .
مطالبات لم نعد نستطيع أن نُبررها والتي يقاومها
الوزراء المتعاقبون تنزعاً بحدود الميزانية. ها نحن
ندخل مرحلة جديدة من تهيئة المعلمين، والتي
ستمحور أكثر فأكثر حول مهارة الاتصال التامة مع
التلاميذ. هذا العون لا غنى عنه.. لكن لو أن المدرسين
الشيان في انتظارهم لمحاضرة معيارية تسمح لهم
بإذابة كل المشكلات التي يواجهونها داخل فصل..
سيذهبون في اتجاه خيبات جديدة.. فسيصمدون في
الـ (هذا) الذي لم يتهيأوا له بالاختصار.. أخشى أن
(هذا) لن يُترك أبداً ليُحاصر تماماً.. أن (هذا) لن
يكون من طبيعة أخرى سوى مجموع العناصر التي
تُكوّنه موضوعياً.

الفكرة التى نستطيع أن نُدرّسها دونما صعوبة تتعلق بتصوّر التلميذ الروحى. يجب أن يصوّر لنا العقل التربوى التلميذ الكسول كالتلميذ الأكثر طبيعية الذى قد يكون: الذى يؤيد - بلا تحفظ - وظيفة المدرس بما أننا لدينا كل شئ لنعلمه له.. لنبدأ بالاحتياج نفسه إلى التعلم .)

والحالة هذه.. هو ليس شيئاً منه. منذ ليلة الفترات الدراسية والتلميذ الذى يُعتبر طبيعياً هو التلميذ الذى يواجه أقل صدود فى التعليم.. الذى لا يشك فى علمنا ولا يضع جدارتنا تحت التجربة.. تلميذ يكتسب تقدماً.. موهوب بملَكة الفهم الحاضرة.. الذى كان يوفر لنا البحث عن طرق الوصول إلى قوة فهمه.. تلميذ مسكون - بشكل طبيعى - بالاحتياج إلى التعلم الذى قد يكف عن كونه صبيّاً مشاغباً أو مراهقاً لديه مشكلات أثناء وقت درسنا.. تلميذ مقتنع منذ المهد أنه يجب أن يُخمد شهواته ومشاعره بتدريب عقله إن لم يُردّ أن يعيش فى أدغال النشّالين.. تلميذ مطمئن من أن الحياة الفكرية / العقلية هى منبع السعادات التى نستطيع أن

نُشكِّله إلى ما لا نهاية.. نُصَفِّيه إلى أقصى حد.. حين يكون معظم سعادتنا الأخرى وقفاً على رتبة التكرار أو إضعاف الجسد.. باختصار تلميذ يفهم أن العلم هو الحل الوحيد: حل للعبودية حيثما يُبقينا الجهل والمواساة الفريدة لعزلتنا الأنطولوجية.

إنها صورة التلميذ المثالي التي تظهر في الأثير حين أسمع جملة: (أدين بكل شيء لمدرسة الجمهورية!) تُنطق.. أنا لا أتهم اعتراف من ينطقها بالجميل. (كان أبى عاملاً وأنا أدين بكل شيء لمدرسة الجمهورية!) أنا لا أنتقص كذلك من مزايا المدرسة وجدارتها. (أنا ابن مهاجر وافد وأدين بكل شيء لمدرسة الجمهورية!).

لكن.. هذا أقوى منى بكثير.. ما إن أسمع هذا الإفصاح العلني للاعتراف بالجميل.. أرى فيلماً يتجلى للعيان - فيلم طويل - على شرف المدرسة بالطبع.. بل على شرف هذا الطفل خاصة الذي كان يفهم منذ ساعته الأولى في الحضانة.. والذي كانت مدرسة الجمهورية مهياة لتكفل له مستقبله لو أنه كان التلميذ الذي تنتظره منه.. والخزى لمن لا يلبون هذا الانتظار! آنئذ.. صوت صغير يروح يُعلق على الفيلم داخل رأسى:

- هذا صحيح. يا صبيى.. أنت مدين بالكثير لمدرسة الجمهورية.. بل بكثرة.. لكن ليس بكل شيء.. ليس بكل شيء.. أنت مخطئ بخصوص هذه النقطة. أنت تنسى تقلبات المصادفة. ربما كنتَ طفلاً فاقت

موهبتك المتوسط - على سبيل المثال - أو كنت شاباً
وافداً ربى على يدى أبوين ودودين متطوعين وثاقبى
الفكر. كأبوى صديقتى كإينا (١).. اللذين كانا يريدان
ألا يُعامل أى رجل ذات يوم بناتهما الثلاث المستقلات
والحاصلات على شهادات مثلما كما كان التعامل مع
نساء جيلهم ستستطيع على العكس أن تكون مثل
(بييرى) (٢) القديم.. نتاج مأساة عائلية.. أن تعثر على
نجاتك الفريدة فى دراساتك. تغوص فيها بعمق كى
تنسى.. وقت الفصل.. ما تخبئه لك العودة إلى المنزل.
أو كذلك كنت مثل مين.. طفلاً حبيس قفصه.. قفص
من أصابه الريو والذى يتعطش لتعلم كل شىء فى
الحال كى يخرج من فراش المريض: (تعلم لتتنفس..
قالت لى.. كمن يفتح نوافذ.. تعلم لئلا تختنق.. تعلم..
اقرأ.. أكتب.. تنفس.. افتح الكثير من النوافذ دائماً..
الهواء.. الهواء.. أقسم لك.. العمل الدراسى كان هو
طريقتى الوحيدة لأخلق خارج ربوى (٣).. وكنت أهزأ
جيداً من صفة المدرسين.. أخرج من سريرى.. أذهب
إلى المدرسة.. أعد.. أضرب عدداً فى عدد.. أقسم..
أتعلم قاعدة النسبة.. أسرد قواعد مندل.. أنا فى
علم فى كل الأيام تقريباً.. إلا إذا كنت ممهوراً بتضخم
شخصية جيروم المهازرة: (منذ أن تعلمت كيف أقرأ
وأعد عرفت أن العالم كان لى أنا!).

(١). Cahina

(٢) هنا ينسب الشخص الذى يدعى بيير إلى نفسه. (المترجم).

(٣) يقصد داء الريو. (المترجم).

فى من العاشرة كنت أقضى عطلاتى الأسبوعية
فى فندق - مطعم جدتى وبحجة أن أقدم يد العون فى
الردهة كنتُ أكسر الأقدام للزيائن موجهاً إليهم كل
أنواع الأسئلة العويصة: فى أى عمر مات لويس الرابع
عشر؟ إلى أى نعت وصُفى تنتمى ...؟ ١٢٣ مضروبة
فى ٧٢ ؟ الإجابة التى كنتُ أفضلها كانت: لا أعرف
عنه شيئاً لكنك سوف تخبرنا عنه. كان غريباً أن
أعرف عنه فى عمر العشر سنين أكثر من الصيدلى أو
كاهن ركن! كانوا يُرَبِّتون على خدى مع رغبة فى انتزاع
رأسى منى.. كان هذا ما يُسلبنى بجنون).

تلاميذ ممتازون.. كإينا.. مين.. بيير.. جيروم
وأنت.. وصديقتى فرانسواز التى تعلمت كل شىء وهى
تلعب.. منذ نعومة أظافرها دون أدنى كبُح - آه! ملكتها
المذهلة فى اللهو بجديّة! - حتى اجتياز شهادة
الأستاذية عبر الرسائل الكلاسيكية كأن المقصود
اللعب بآلاف اليوروهات(*)..

أبناء أو بنات مهاجرين وافدين.. عمال..
موظفين.. فنيين.. معلمى ابتدائى.. أو كبار
البرجوازيين.. بعضهم مختلف كثيراً عن بعضهم
الآخر.. هؤلاء الأصدقاء.. لكنهم جميعاً تلاميذ
ممتازون. كان هذا هو الحد الأدنى الذى وسّمتكم به
مدرسة الجمهورية.. هم وأنت!.

والذى ساعدتك به لتصبح ما تكونه الآن!

لم يعد ينقصها إلا أن تُخطئك!.

(*) جمع يورو .. العملة الأوروبية الموحدة. (المترجم).

أنت ترى أنها لم تترك منه شيئاً كافياً على حافة الطريق .. مدرسة الجمهورية؟

مُجَلَّلاً المدرسة للغاية.. إنه أنت مَنْ تُطَرِّيه مِيراً.. وتستقر أكثر أو أقل بوعي داخل التلميذ المثالي. أثناء هذا.. تُمَوِّه ثوابت (*) لا تُحصى تجعلنا إلى حد ما غير متساوين في تَمَلُّك العلم: حالات.. حاشية.. علوم الأمراض.. مزاج.. آه للغز المزاج!.

(أنا مدين بكل شيء لمدرسة الجمهورية!).

أكان هذا ما تريد أن تجعله يجتاز كفاءاتك من أجل عدد من الفضائل؟ (البعض والبعض الآخر لم يكن متعارضاً في مواطن أخرى...).

قَلْبُ نجاحك إلى مسألة مشيئة.. عناد.. تضحية.. أهذا ما تريد؟

صحيح أنك كنت تلميذاً مجتهداً ودعوباً وأن الجدارة تعود إليك منه.. لكن أيضاً لأنك تمتعت مبكراً جداً باستعدادك للفهم.. جريت منذ مقابلاتك الأولى في العمل الدراسي بهجة الفهم العارمة.. وأن المجهود الذي كنت تبذله كان يحمل في طياته الوعد بهذه البهجة!.

في الوقت الذي كنتُ أجلس على طاولتي المفروشة باعتقاد بلاهتي الراسخ.. كنتُ تستقر أنت على طاولتك التي ترتج من نفاذ الصبر.. نفاذ صبر الانتقال إلى شيء آخر أيضاً.. لأن مسألة الرياضيات

(*) الثابتة: هي كمية محددة تتوقف عليها دالة من المتغيرات المستقلة. (المترجم).

هذه التى كنتُ أنام عليها كنتُ أنت تتجزها فى لحظة.
واجباتنا.. التى كانت مَقْفَز^(١) عقلك.. كانت هى
الرمال المتحركة التى يغوص فيها عقلى. كانت تدْعُكَ
طليقاً كالهواء.. مع رضا الواجب المكتمل.. وأنا بليد
الجهل.. أمْكَيْج موجة مشوشة فى نسخة قطعية
بمساعدة عدد وافر من عمليات السَّحْب التى تجذب
بعناية والتى لم تكن تخدع أحداً. فى الوصول.. كنتُ
أنت المجتهد وأنا كنتُ الكسول. إذاً كان هذا هو
الكسل؟ هذا هو الغوص فى الرمل بذاته؟ والاجتهاد
ماذا كان إذاً؟

كيف كان يتعاطونه من كانوا يعملون جيداً؟

من أين كانوا يفترقون هذه الطاقة؟

كان هذا هو لغز طفولتى. المجهود.. حيثما كنتُ
أتلاشى.. كان بالنسبة إليك منذ بداية اللعبة دليل
انشرح. كنا نجهل أنت وأنا أنه (يجب أن تنجح كى
تفهم).. طبقاً لكلمة بياجيه الواضحة للغاية.. وأنا كنا
أنت مثلى.. المثل الحى الواضح لهذه المُسَلِّمة^(٢). هذا
الشفغ بالفهم.. أنت حافظت عليه بتصميم طوال
حياتك.. لقد أحسنت صنْعاً وبقسوة. إنه لا يزال يلمع
اليوم فى عينيك!).

مَنْ كان يلومك عليه كان سيكون حسوداً أبله...
لكن أرجوك كُف عن أن تجعل كفاءاتك تنتقل إلى
فضائل.. فهذا يخلط الأوراق.. يُعَقِّد المسألة المعقدة

(١) لوح مائل مرن يقفز منه الغاطس (المترجم).

(٢) الحقيقة غير القابلة للجدل أو النقاش (المترجم).

سلفاً بشدة من التعليم (إنه عيب الخلق المنتشر بما فيه الكفاية). أتعرف من كنت في الحقيقة؟

كنت تلميذاً / قطعة حلوى.

على هذا النحو.. بعد أن أصبحت مدرساً كنت أطلق (في سرّي) على تلاميذي الممتازين.. اللآلئ نادرة الوجود.. حين كنت أجد أحدهم في فصلی. أحببتهم كثيراً.. تلاميذي قطع الحلوى!.

كانوا يُريحونني عن الآخرين. كانوا يُنعشونني. مَنْ يفهم أسرع.. يُجبّ بدقة.. وغالباً في فكاهة.. هذه العين التي تتوقد.. هذه الفطنة في يُسر التي هي النعمة السامية للذكاء.

الصفيرة نوآمي(*).. على سبيل المثال (عفواً.. نوآمي الكبيرة.. هي الآن في الصف الأول!).. التي كان يشكرها مدرستها.. مدرس اللغة الفرنسية.. في العام الماضي.. على شهادتها الدراسية: (شكراً) بكل بساطة. كان مدرستها محروماً من التقديرات التقريظية: نوآمي ب. اللغة الفرنسية ١٩/٢٨.. شكراً. للإنصاف: مدرسة الجمهورية مدينة بالكثير لنوآمي. مثلما هي مدينة لابن عمي الشاب بيير الذي أخبرنا أنه حصل على درجة جيد جداً في البكالوريا قبيل أن يعود ليجابه من فوق مركب شراعى المحيط خاصة وهو سريع الغضب في الأيام الأولى من شهر يولية : (أحاسيس أكثر قوة قليلاً من الامتحانات...).

Noémie (*)

يُلَوِّحُ لَنَا بِضَحْكَتِهِ الْجَمِيلَةِ.

نعم.. دائماً ما أَحْبَبْتُ التَّلَامِيذَ الْجَيِّدِينَ. كُنْتُ أَشْفَقُ عَلَيْهِمْ.. أَيْضاً.. لِأَنَّهُمْ كَانَتْ لَدَيْهِمْ أَلَامُهُمُ الْخَاصَّةُ: أَبَداً لَا يُخَيِّبُونَ أَمَلَ انْتِظَارِ الْبَالِغِينَ.. يَنْزَعِجُونَ مَنْ أَلَا يَكُونُوا سَوَى فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ حِينَ يَحْتَكِرُ قِمَى أَوْنَتِ الْمَرْتَبَةِ الْأُولَى.. يَخْمَنُونَ حُدُودَ الْمَدْرَسِ فِي تَمَلُّكِ دُرُوسِهِ.. وَبِنَاءِ عَلَيْهِ.. يَسْأَمُونَ فِي الْفَصْلِ قَلِيلاً.. يَعْانُونَ مِنْ تَهْكِمْ أَوْ غَيْرَةِ عَدِيمِ الْكَفَاءَةِ.. يَكُونُونَ مُتَّهَمِينَ بِالْتِّحَالِفِ مَعَ السُّلْطَةِ.. وَإِلَى هَذَا تَنْضُمُ مِثْلَمَا هِيَ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْآخَرِينَ عَقِبَاتُ النَّمُو الْمَأْلُوفَةِ.

بُورْتَرِيهِ لِتَلْمِيذِ قِطْعَةِ حُلْوَى: فِيلِيبْ.. فِي الصَّفِّ السَّادِسِ.. فِي السَّبْعِينَيَّاتِ.. نَحِيفٌ جِداً فِيلِيبِي.. عَمْرُهُ أَحَدُ عَشَرَ عَاماً.. ذُو أَذْنَيْنِ عَمُودِيَيْنِ.. وَهُبْ خَاصِيَّةٌ هَائِلَةٌ تَتَعَلَّقُ بِعَمْرِهِ تَجْعَلُهُ يُزَارِي (١) كُنْحَلَةَ.

سَأَلْتَهُ إِنْ كَانَ قَارِناً جِداً بَيْنَ مَفْهُومِ اللُّغَةِ الْعَادِيَةِ هَذَا وَبَيْنَ مَفْهُومِ اللُّغَةِ الْمَجَازِيَةِ الَّتِي كُنَّا نَتَحَدَّثُ بِهَا عَنْ الْأَرْقِ.

. لُغَةٌ عَادِيَةٌ وَلُغَةٌ مَجَازِيَّةٌ؟ تَمَاماً يَا سَيِّدِي.. أَنَا مَكْتَنُظٌ بِالْأَمْثَلَةِ الَّتِي أَعْرَضْتُهَا عَلَيْكَ (٢).

– أَرْجُوكَ يَا فِيلِيبْ.. كَلِّمْنَا آذَانَ صَاغِيَّةٍ.

– حَسَناً هُوَ ذَاكَ.. مَسَاءُ أَمْسٍ كَانَ ثَمَّةَ مَدْعُودِينَ

فِي مَنْزِلِنَا. قَدِمْتَنِي أُمِّي لَهُمْ بِلُغَةٍ مَجَازِيَّةٍ. قَالَتْ: (إِنَّهُ

(١) زَاوَا: أَيُّ نَطْقِ حُرُوفِ الْجِيمِ زَاوِياً. (الْمُتَرَجِمُ).

(٢) فِي هَذَا الْحَوَارِ نَطْقُ فِيلِيبْ كُلِّ حُرُوفِ الْجِيمِ زَاوِياً. (الْمُتَرَجِمُ).

فيليب.. صغيرى الأخير.. أنا الأخير.. هذا صحيح
أنياً على أى حال.. لكن ليس صغيراً على الإطلاق..
بالأحرى كبير بالنسبة إلى عمرى!.

(لديه شهية عصفور).. هذه حماقة.. العصافير
تأكل وزنها مرة فى اليوم.. وأنا على ما يبدو لا أكل
شيئاً تقريباً. وقالت أيضاً إننى دائماً على القمر.. فى
حين أننى كنتُ هناك.. على المنضدة.. معهم.. كان
الجميع يستطيعون أن يشهدوا بذلك!.

وبالنسبة إلىّ لا تحدثنى إلا بلغة عادية:

(أخرس.. جفف فمك.. لا تضع مرفقيك على
المنضدة.. قل مساء الخير.. واذهب لتنام...)

جذب فيليب من هذا خلاصة أن اللغة المجازية
كانت هى لغة معلمات المنزل وأن اللغة العادية هى لغة
أمهات العائلة.

- وبعض المدرسين يا سيدى.. وضَّحَ. مدرسون
مع تلاميذهم!.

لا أعرف ماذا أصبح فيليب المزأزئ.. نموذج
مثالى للتلميذ قطعة الحلوى. إلام ينقل حياته؟ أصبح
مدرساً؟ كم أحب أن يكون كذلك. أو.. الأفضل.. أن
يكون قد كُلف فى نورمال سوب أو فى IUFM بتدريب
المدرسين على حقيقة التلاميذ كما هم فعلاً. لكن ربما
يكون فقد مَلَكَاته التربوية. ربما تخيلناه أكثر ابتكاراً
ليقوم بمهنة التدريس.. ربما يكون قد نام.. ربما يكون
قد توارى.

إذا .. التلميذ كما كانه .. هو تماماً هناك ..
(انتبه .. نبهني أصدقائي حين شرعتُ في تأليف
هذا الكتاب .. التلاميذ تغيروا كثيراً جداً منذ
طفولتك .. بل منذ عشرات السنين التي توقفت فيها
عن التدريس !).

لم يعودوا على الإطلاق هم التلاميذ أنفسهم ..
أنت تعرف !)

نعم ولا . إنهم أطفال ومراهقون لهم عمرى نفسه
فى نهاية الخمسينيات .. هى ذى على أى حال نقطة
العرفان بالجميل . يستيقظون دائماً مبكراً جداً ..
مواعيدهم وحقائبهم ثقيلة جداً ومدرسوهم .. جيئون
وسيئون يبقون أطعمة لذيذة على قائمة محادثاتهم ..
ثلاث نقط مشتركة أخرى . أه ! اختلاف : هم أكثر كثيراً
مما كانوا عليه فى طفولتى .. حين كانت الدراسة
تتوقف كثيراً بشهادة الاسم نفسه . هم من كل الألوان ..
على أى حال فى حَيِّى .. حيثما يعيش المهاجرون
الوافدون الذين بنوا باريس المعاصرة . العدد واللون
يصنعان بعض الاختلافات البارزة .. هذا صحيح .. لكن

من يتلاشون بمجرد أن نترك العشرين دائرة (١) ..
خاصة اختلافات اللون كثيرون في تناقص .. تلاميذ
اللون .. هابطين من هضابنا في اتجاه وسط باريس ..
تقريباً ما من أحد في المدارس الثانوية التي تلتصق
بالبانتيون (٢) . عدد قليل من التلاميذ المُبْعدين .. في
أواسط مُدننا - تقديم الرحمة فننقل - وها نحن نعود
إلى المدرسة البيضاء في الستينيات . لا .. الاختلاف
الجوهري بين تلاميذ اليوم وتلاميذ الأمس مذهل : لا
يرتدون بلوفترات أخوتهم الكبار القديمة هو ذا
الاختلاف الحقيقي !.

كانت أمي تَزُرد بلوفرأ لأخي برنار الذي .. بعد أن
كبر .. أعطانيه . الشيء نفسه بالنسبة إلى دومييه وچان -
لويس .. أجدادنا (صديريات) أمنا الصوف كانت تُكوّن
مفاجأة عيد الميلاد الذي لا مفر منه . لم تكن توجد
ماركة . ولا بدجاً مكتوباً عليه بلوفر أمي .. على الرغم
من أن أغلب أطفال جيلي كانوا يرتدون بلوفترات ماركة
بلوفر أمي (٣) .

اليوم .. لا .. إنها الجدة ماركتيج التي تكسو الكبار
والصغار . إنها هي التي تكسو .. تُغذّي .. تسقى .. تلبس
الأحذية .. تُصفّف الشعر .. تزود المرء بكل شيء .. هي
من تُدرِّع تلميذ الإلكترونيات .. ساعة بتروس ..
دراجة .. سكوتر .. موتوسيكل .. دراجة أطفال .. إنها

(١) يقصد عدداً من المناطق في المدينة . (المترجم) .

(٢) البانتيون هو مجمع الأرياب عند القدماء . (المترجم) .

(٣) يقصد البلوفترات التي تصنعها الأمهات في المنازل بيديها .
(المترجم) .

هى من تُلْهيه.. تُشكّله.. تَجثم فوقه.. وتضعه تحت
إصفاق موسيقى^(١) مستمر وتنثره مأكولاً فى أركان
الكون الأربعة.. إنها هى التى تُتيمه.. هى التى توقظه..
وحين يجلس فى الفصل هى التى تهتز فى قاع جيبه
لكى تطمئننه:

أنا هنا.. لا تخف.. أنا هنا.. فى هاتفك.. أنت
لست رهينة المنبذ^(٢) الدراسى!

(١) الإصفاق: هو نقل سائل من إناء إلى آخر. (المترجم).

(٢) المنبذ: هو مكان يقيم فيه أقلية منبوذة. (المترجم).

طفل مات.. فى السبعينيات. لنسميه الطفل
ول.. على اسم چول فيرى.. وزير المعارف العامة (١)
بين عامى ١٨٧٨ و ١٨٨٣. نقول كأن الطفل چول كان
خالداً وكان يوجد منذ الأزل.. لكنه كان جنيئاً منذ أقل
من قرن.. أتحقق بانشداه أنه كان يعيش ملياً لكن أقل
من أمى العجوز. تخيله روسو قرابة عام ١٧٦٠ فى
صورة عَسِب (٢) عقلى يُدعى إيميل.. ثم جاء به إلى
العالم فيما بعد بقرن فيكتور هوجو الذى تعهد بواجب
انتزاع الأطفال من العمل حيث كان يُكبلهم العالم
الصناعى الناشئ: (حق الطفل أن يكون إنساناً.. كتب
هوجو فى أشياء منظورة.. (٣) ما يصنع الإنسان هو
الضوء.. ما يصنع الضوء هو التعليم المجانى.. إذاً حق
الطفل هو التعليم المجانى.. الإلزامى).

فى نهاية أعوام ١٨٧٠ أٌجلست الدولة الطفل على
مقاعد المدرسة العلمانية.. المجانية.. الإلزامية من
أجل أن تُشبع احتياجاته الجوهرية:

(١) المعارف العامة هي التعليم الرسمى الآن. (المترجم).

(٢) نبات تتجلى فيه جميع الصفات النموذجية. (المترجم).

(٣) أحد كتب هوجو المعروفة. (المترجم).

يقرأ .. يكتب .. يَعدُّ .. يُفكِّر .. ينشأ داخل مُواطن
يشعر بشخصيته الفردية والقومية . كان لدى الطفل
جول قبعتان :

كان تلميذاً داخل الفصل .. وابناً داخل عائلته .
كانت العائلة تتكفل بتربيته والمدرسة بتعليمه . كان
هذان العالمان عملياً مُحكما السدّ وكان عالم الطفل
جول كذلك : كان يشاهد دون أدنى توثيق تبرعات
المراهقة المرعبة .. كان يتوه وهو يخمن مواصفات
الجنس الآخر .. كان يبتكر كثيراً وكان يُصلح باستخدام
وسائل الشاطئ . أما من جهة ألعابه فمعظمها كان
يقوم على مهارته الوحيدة فى تخيلها . ما عدا
الظروف الاستثنائية .. لم يكن الطفل جول يشارك فى
انشغالات البالغين العاطفية .. الاقتصادية .. أو
المهنية . لم يكن خادماً المجتمع ولا هو موضع ثقة
العائلة .. ولا مُخاطب مدرسيه . بطبيعة الحال .. ككل
العوالم .. هذا المجتمع المحصور جداً لم يكن بسيطاً
إلا فى مظهره .. كان الإحساس يُصنّف فيه بواسطة
عدد من الفجوات لكى يضافى عليه تعقيده
الإنسانى . يبقى أن حقوق الطفل جول تقتصر على
حقوق التعليم .. وواجباته فى أن يكون ابناً جيداً ..
تلميذاً جيداً .. وإذا لزم الأمر ميتاً جيداً . من جيش
من ستة ملايين طفل جول يُقتل ١٢٥٠٠٠٠ بين عامى
١٩١٤ و ١٩١٨ ومعظم الآخرين لم يعودوا منه
سالمين .

عاش الطفل حول مائة عام ١٨٧٥ - ١٩٧٥
إجمالاً مُنتزَعاً من المجتمع الصناعي أثناء الربع
الأخير من القرن التاسع عشر. واهباً مائة عام فيما
بعد للمجتمع التجارى الذى جعل منه طفلاً زيوئاً.

- ٩ -

ثمة مائة نوع من الأطفال على كوكبنا..اليوم:
الطفل الزيون لدينا.. الطفل المُنتج تحت سماوات
أخرى.. فى أماكن أخرى الطفل الجندي.. الطفل
البغى.. وعلى لافتات المترو المقوسة.. الطفل المحتضر
الذى تُحَنّى فى أوقات معلومة صورته على تقزنا
نظرة الجوع والهجران.
إنهم أطفال.. الخمسة كلهم.
آليون(*).. الخمسة كلهم.

(*) نسبة إلى الآلة (المترجم).

من بين الأطفال الزبائن ثمة من يتصرفون بإمكانات آبائهم وثمة من لا يتصرفون بها.. من يشترون ومن يتدبرون أمورهم. فى كلتا الحالتين نادراً ما تكون النقود نتاج عمل شخصى.. الشاب المشتري يصل إلى الامتلاك دونما سجل حسابى. صدقت.. الطفل الزبون: الطفل الذى.. على عدد من ملاعب الاستهلاك المطابقة لملاعب أبويه أو مدرسيه (كساء.. غذاء.. تهااتف.. موسيقى.. إلكترونيات.. تنقل.. أوقات فراغ...) يصل بيُسْر إلى الامتلاك الخاص. وبهذا يلعب الدور الاقتصادى نفسه الذى يلعبه البالغون الذين تقع على عاتقهم نفقات تربيته وتعليمه. إنه يُنشئ مثلهم جزءاً ضخماً من السوق. إنه يتداول مثلهم الشعارات (الحقيقة أن هذه الشعارات ليست شعاراته ولا تدخل فى الحساب).

رغباته كـرغبات أبويه يجب أن تُطلب بإلحاح وتُجدد دوماً كي تُواصل الآلة دورانها. من وجهة النظر هذه.. هو شخصية مهمة زبون بنصيب كامل كالكبار.

مُسْتَهْلِكٌ تَلْقَائِيٌّ.

منذ رغباته الأولى وهو طفل.

الرضا الذى يقيس الحب الذى نوصله إليه
محسوب منها .

البالغون ولو أنهم يدافعون عنه لا يستطيعون فعل
شئ حيال هذه الرغبات .. هكذا يسير المجتمع
التاجر: يحب طفله: (هذا الطفل .. مرغوب فيه لدينا
جداً درجة أن مولده يحضر داخل أبويه دين الحب بلا
قاع) .. إنه حب رغباته التى تفصح عن نفسها بسرعة
كاحتياجات حيوية: احتياج الحب أو رغبة الأشياء ..
الشئ كأنه نفسه .. بما أن شواهد هذا الحب تمر
بشراء هذه الأشياء .

رغبة الطفل ...

خذ .. ها هو اختلاف آخر بين طفل اليوم وبين
الطفل الذى كنته:

هل كنتُ طفلاً مرغوباً فى؟

محبوب نعم .. على طريقة عصرى البعيد .. لكن
مرغوب فيه؟

أى رأس صنعتها أمى العجوز .. التى احتفلنا
بعامها الأول بعد المائة (الحاصل أننى أكتب هذا
الكتاب على الهوينى) .

لو أنى كنتُ سألتها دون إلحاح:

- بالمناسبة .. يا أمى الصغيرة .. أكنتِ ترغبين فى؟

- ... ؟

- نعم .. أنتِ استمعتِ جيداً إلى ما قلتُ:

بصراحة .. هل كنتُ الطفل الذى تريدينه أنتِ

ويريده أبى .. تريدانه أنتما - الاثنين - ؟

أرى عينها تحط علىّ. أصفى إلى الصمت
الطويل الذى كان و. سؤال مقابل سؤال:

- قل لى.. هل تتخلص جيداً من مأزق.. أنت ..
فى هذه الحياة؟

لو أنى كنتُ حفرتُ أكثر قليلاً.. لكنتُ حصلت
وقت اللزوم على عدة توضيحات وقائعية (١).

- وقتها كانت الحرب.. كان أبوك فى إجازة.. ثم
نقلنا إلى كازابلانكا.. إخوانك وأنا. كى ينزل مع
الجيش السابع الأمريكى فى بروفانس. لقد وُلِدَتْ
فى كازابلانكا.. أنت.

أو أيضاً.. فى أم الجنوب الطيبة:

- كنتُ أخاف أن تولد بنتاً.. أنا دائماً ما أُفضل
الأولاد. لكن أن أعرف ما إذا كنتُ مرغوباً فى.. لا.
كان هناك نعت لنصفٍ به هذه الأسئلة فى ذلك العصر
وفى عائلتى: كانت شاذة. حسناً.. لنعد مرة أخرى إلى
الطفل الزيون ولنضع الأشياء فى نصابها: وأنا أصفه
لا أبحث عن تقديمه كشخص سيباريسى (٢) حقير
وأحمق.. ولا أوصى كذلك بالعودة إلى بلوثر أمى..
إلى المقاعد الصفيح.. إلى الأحذية المُرْتَقَة.. إلى
الصمت العائلى.. إلى منهج أوجينوو (٣) إلى كل ما

(١) التوضيح الوقائعى: هو الذى يكتفى بسرد الأحداث. (المترجم).

(٢) السيباريسى: هو المترف أو المنغمس فى الملذات على غرار مكان
المدينة الإغريقية القديمة سيبارس التى اشتهرت بالشراء
والترف. (المترجم).

(٣) أحد المناهج التى كانت تُدرّس فى فرنسا قديماً. (المترجم).

يجعل شباب اليوم يتخيلون شبابنا كفيلم بالأبيض والأسود. كلا.. أنا أتساءل وحسب أي نوع من التلاميذ الكسالى كنته أنا. لو أن المصادفة جعلتني أُولد فلنقل منذ خمسة عشر عاماً. على الأرجح عند ذاك: كنتُ سأكون تلميذاً كسولاً مستهلكاً. إن لم يكن ثمة نضج عقليّ/فكريّ مبكر.. كنتُ سأرتد إلى الإدراك التجارى الذى يضيف على رغبات المراهقين شرعية رغبات الآباء نفسها. كنتُ سأصنع منها مسألة مبدأ. أنا أسمع من هذا المكان: أنتم تملكون أجهزة حاسوبكم.. ولى الحق فى حاسوبى تماماً!.

خاصة إن كنتم لا تريدون أن المس حاسوبكم!

وكنتُ سأتنازل عنه. بواسطة الحب حب ضال؟
ما أسهل الكلام. كل عصر يفرض لغته على الحب العائلى. وعصرنا يأمر بلغة الأشياء. لا تنسوا تشخيص الجدة ماركيتج: (شخصيته فى خطر).

كعدد كثير من الأطفال أو من المراهقين الذين أسمعهم قليلاً فى كل مكان.. كنتُ سأعرف كيف أقنع أمى بأن انقيادى لمجموعة.. وبالتالي اتزانى الشخصى كان سيتوقف على المثل أو على شراء كهذا:

— أمى..حتماً تلزمنى [إنأتى / NNN] الأخيرة!.

أكانت أمى تريد أن تجعلنى منبوذاً؟

ألم تكن تكتفى بنتائجى الدراسية التافهة؟

أكان علينا أن نبالغ فى هذا؟

- أمى.. أقسم لك.. سيكون لدى مظهر
غُرَّير..(*) والإلا..

(تصحيح: اغرَّيرب كلمة قديمة نوعاً ما.)
سيكون لدى مظهر قصعة.. وهذا ما لا يحدث
شيئاً!.

(فى زمنه كان ميشيل أوديار يتحدث عن كهف أو
عن مزلاج. (أمى.. إن لم تدفعى لى ستأخذنى هذه
الأحذية إلى الكهف!)

وأمى العطوفة كانت ستتازل.
فقط.. منذ خمسة عشر عاماً أكنتُ ساكون
المولود الأخير لأربعة إخوة؟
أكنتُ ساكون مرغوباً فى؟
أكنتُ سأمنح تأشيرة الخروج؟
سؤال ميزانية.. كبقية الأسئلة.

(*) حيوان من الفصيلة السرعوية ورتبة اللواحم. (المترجم).

أحد عناصر الـ [هذا] (*) الذى لم يتهياً له
مُدرسُ هذه الأيام الشابُ هو اللقاء وجْهاً لوجه مع
فصلٍ من الأطفال الزيائن. بالطبع المدرس بنفسه هو
أحد هذه العناصر وأطفاله هو هم بأنفسهم أحدها..
لكنه فى هذا الفصل هو المدرس. وبما أنه المدرس فلا
يشعر بواجب الحب المحتوم الذى يُثير قلب الأب لديه.
التلميذ ليس طفلاً مرغوباً فيه حتى لِيُضطر لإذابة
امتحان أعضاء الجسد التعليمى. نحن هنا فى المدرسة
الابتدائية.. الإعدادية.. الثانوية.. ولسنا فى المنزل..
لسنا فى قاعة عرض تاجرة: نحن لا نستجيب إلى
رغباتٍ ظاهريةٍ بواسطة عدد من الهدايا.. نحن نُشبع
احتياجاتٍ جوهريّةٍ من خلال عدة التزامات.
احتياجات التعلّم بالأحرى الصعبة على الإرضاء والتي
لا بد أولاً من تشييطها!.

هذا النزاع بين الرغبات والاحتياجات هو مهمة
شاقة بالنسبة إلى المدرس!.

وبالنسبة إلى الشاب الزيون مهمة بصرية مؤلمة
أن يهتم باحتياجاته فى ضرر رغباته: يُغلى الرأس كى
(*) يمكن العودة إلى الباب الخامس من هذا الفصل. (المترجم).

يُكَوِّنُ العقل.. يُقَطِّعُ كى يرتبط بالعلم.. يُقَايِضُ كُلِّيَّةَ شلّ الآلات بعمومية العلوم.. ينسى الأشياء التافهة البراقة كى يُقَارَنَ بين أوهام خفية. وعليه أن يُسَدِّدها.. هذه العلوم الدراسية حين لا يُرْهَنُه إشباع الرغبات لأى شىء! لأنه.. تناقضاً مع التعليم المجانى المتوارث من چول فيرى.. تظل اليوم مدرسة الجمهورية المكان الأخير للمجتمع التاجر حيث يجب على الطفل الزيون ألا يدخّر شيئاً من جهده.. أن يرضخ لـ أعطٍ تُعْطَى : العلم مقابل العمل.. المعرفة مقابل المجهود.. الدخول فى العمومية (*) مقابل التدريب المنعزل لرد الفعل.. وعد غامض بالمستقبل مقابل حضور دراسى تام.. هو ذا ما تتطلبه منه المدرسة.

لو أن التلميذ الجيد.. مُعْضَدٌ بكفائته يحسب حساب كل شىء.. يَشْفَى غُلَّتُهُ من هذا الموقف.. لماذا يوافق عليه التلميذ الكسول؟ لماذا يتخلى عن وضع نضجه التجارى لوضع التلميذ المطيع.. الذى يعتبره طفولياً؟

لماذا يدفع للمدرسة فى مجتمع تُقدم فيه بدائل المعرفة من الصباح إلى المساء مجاناً فى صورة أحاسيس ومقايضة؟

ألا يشعر كل تلميذ كسول كالذى كنته فى الفصل أنه سيد الكون حين يكون، وهو محتجز فى حجرته جالساً أمام منضدة حاسوبه؟ ألا يُجرب وهو على (*) العمومية : هى منهب يتعلق بكل ما هو كلى أو عمومى. (المترجم).

الشَّاتِ حتَّى مطلع الصِّباح إحساسَ التَّواصل مع
الأرض بأكملها؟

ألا تسمح له لوحة مفاتيحه بالدخول إلى كل
المعارف التي تتطلَّبها رغباته؟

ألا تُقدِّم له معاركه ضد الجيوش المُفترضة حياة
نابضة؟

لماذا يُقايض هذا الوضع المركزي بمقعد في
الفصل؟

لماذا يُعاني من الأحكام الرفضية للبالغين المُحنَّين
على شهادته الفصلية^(١) في حين أنه وهو حبيس
حجرته ومنفصل عن أقاربه وعن المدرسة يسود؟

ما من شك لو أن التلميذ الكسول الذي كنته كان
قد وُلِد منذ خمسة عشر عاماً ولو أن أمه كانت قد
تنازلت عن أقل رغباتها لقام هو بنهب الخزانة
العائلية. لكنَّ ليهبها لنفسه هذه المرة.

لكان قدَّم لنفسه تملُّصاً طبيعياً آخر صيحة.
لترك لتمتصه شاشته.. لتحول فيها إلى أشعة كي
يتزلَّج على حيزٍ وفتى^(٢) بلا ضغط وبلا نهاية.. بلا
موعد وبلا أفق.. لكان سيثرثر إلى الأبد وبلا حديث
مع الآخرين.

كان يعشقه.. إنه العصر الذي.. وإن لم يكفل أي
مستقبل لتلاميذه السيئين.. فهو سخيٌّ في الآلات
التي تسمح له بإلغاء الحاضرا.

(١) يحصل عليها التلميذ كل ثلاثة شهور ويقصد بها شهادة التيرم
الدراسي. (المترجم).

(٢) حيز بأربعة أبعاد حسب النظرية النسبية. (المترجم).

لكان فريسةً نموذجيةً للمجتمع الذى يفلح فى
هذا الإقدام:

يصنع شباباً بُدناء(*) مُجرِّداً إياهم من الواقع.

(*) جمع بدين، وهو السمين. (المترجم).

- ١٢ -

- أنا .. شابٌ بدين مُتجرد من الواقع؟
(أوه! يا إلهي الطيب .. هو ذا أيضاً ...)
- مَنْ الذى يسمح لك أن تتحدث نيابةً عني؟
عجباً .. لماذا أتذكره .. هذا التلميذ الكسول الذى
كُنْتُه .. هذه الذكرى غير القابلة للإصلاح عني؟
ها أنا أصل أخيراً إلى صفحاتى الأخيرة .. لقد
تركنى وشأنى منذ أن تحدثت مع ماجزيميليان .. فإذا
بى أستدعيه فى هذه الذكرى! .
- أجبنى لما الذى أنن لك أن تعتقد أننى لو ولدتُ
منذ خمسة عشر عاماً كنتُ ساكون التلميذ الكسول
المستهلك بإفراط الذى تتحدث عنه؟
ما من شك .. إنه هو .. دائماً يُطالب بتفسيرات
بدلاً من أن يتزود بنتائج .. حسناً .. هيا:
- ومنذ متى أحتاج إلى إذنك كى أكتب أياً ما كان
هذا؟

- منذ أن تتكلم بسرعة عن التلاميذ الكسالى! .
فى مادة الكسل .. أنا الخبير .. فى رأى! .
أأكون خبيراً فيما أعانى منه؟

الأبد. للمرضى لا محالة من تبديل أطبائهم
وللتلاميذ السيئين من أن يحلُّوا محلَّ مُدرسيهم؟

غير مُجدِّ الدفع به إلى هذا المضمار.. فقد يكون
قادرًا على جعلِ أُسودِّ عددًا من الصفحات. لننته منه
بأقصى سرعة:

. فلنقبِّل. أى نوع من التلاميذ الكسالى تكونه
اليوم. فيما ترى؟
. لو كان هذا موجوداً.. اليوم سأخلص منه
جيداً!.

ألا يوجد فى الحياة سوى المدرسة .. أتتصور!.
منذ البداية وأنت تجعلنا نسأم من المدرسة. لكن
ثمة حلول أخرى!.

لديك عدد كبير من الأصدقاء الذين نجحوا
خارج نطاق المدرسة.

يجب أن تقولها أيضاً.. خارج نطاق هذا!
انظر إلى برتران.. روبير.. ميك.. وفرانسواز:
فروا مبكراً جداً من المدرسة وشُفيوا منها كما ينبغي.
لقد صنعوا لأنفسهم حياة جميلة.. لا؟

حينئذ.. لمَ لستُ أنا؟ أنا.. قد أكون اليوم بطلاً
إلكترونياً.. هيا لتعرف!.

....

. لا؟ هذا سيُخيب لك هذه الإمكانية.. أنت الذى
لستَ أهلاً للتدرب على أقل جهاز كمبيوتر!.
أنتَ تريدنى تلميذاً كسولاً.. قطعاً وثاقب
صناديق!.

أهذا لاحتياجات البرهنة؟

حسناً.. قبلتُ.. لو ولدتُ منذ خمسة عشر عاماً
لكنْتُ تلميذاً كسولاً.. أسوأ من فى فصلك.. وأنتَ كنتَ
تدفقتَ: (لَمْ يدرينى أحد على هذا.. لم يدرينى أحد
على هذا).

وهذا سيرضيك هكذا؟

...

- مهما يكن الأمر إن كنتُ كنته أم لا فليس هذا
هو السؤال.

- ما السؤال؟

الطبيعة الحقيقية لـ (هذا) التى يُصرح المدرسون
الشباب أنهم لم يتدربوا لها.. هو ذا السؤال الوحيد..
أنت بنفسك الذى طرحته.

- إجابة؟

- عجوز العالم: لم يُحضّر المدرسون للتصادم بين
العلم وبين الجهل.. هذا هو كل شيء!.

- ستحكى لى الكثير عن هذا.

- بالتمام.. حكايات فقدان مَعْلَم الطريق..
العنف.. الاستهلاك.. كل هذا الكلام الخلاب.. إنه
تفسير اليوم.. أما غداً فسيكون شيء آخر.

من ناحية أخرى.. قلتها بنفسك: الطبيعة
الحقيقية لـ (هذا) لا تُصغّر بالنسبة إلى إجمالى
العناصر التى تُكوّنها موضوعياً.

- ما لا يكشف لنا ما تكونه بالفعل.

لقد قلتها لك منذ قليل: صدمة العلم ضد
الجهل! كم هي عنيفة!.

هي ذى الطبيعة الحقيقية لـ (هذا). أنت
تسمعنى.. نعم؟

- أسمعك.. أسمعك..

أسمعه فإذا به يقترح درساً عظيماً.. صاعداً
على منصة.. لم أعد أتأكد منه.. من حيث يخرج مرة
أخرى.. لو أفهمه جيداً.. أن الطبيعة الحقيقية لـ
(هذا) قد تكمن فى النزاع الأبدى بين العلم كما هو
يُتصور وبين الجهل كما هو يُعاش: عجز المدرسين
المطلق عن فهم حالة الجهل حيث يطهون على نار
هادئة تلاميذهم الكسالى.. بما أنهم كانوا هم أنفسهم
تلاميذ جيدين.. على الأقل فى المادة التى يُدرسونها!.

عقبة المدرسين الكئود تمكث فى عجزهم عن أن
يتصوروا أنفسهم لا يعرفون ما يعرفون. أياً كانت
الصعوبات التى يُبتلون بها فى امتلاكها.. حين تكون
معارفهم مكتسبة تصبح متعايشة معهم.. يلمحونها من
الآن فصاعداً كبديهيات (بل إنها بديهيات.. فلنراً)..
ولا يستطيعون أن يتخيلوا غرابتهم المطلقة بالنسبة
للذين.. فى هذا المجال المحدد.. يعيشون فى حالة من
الجهل.

- أنت.. على سبيل المثال.. الذى قضى عاماً فى
تَعْلُم حرف الـ [a] أتستطيع اليوم أن تتخيل نفسك لا
تعرف كيف تقرأ وكيف تكتب؟ كلا!.

أكثر من مدرس رياضيات لا يستطيع أن يتخيل نفسه يجهل أن $2+2=4$.

وبعد.. كان هناك وقت لم تكن تعرف تقرأ فيه! كنتُ تتخبط في الحروف الأبجدية. أستطيع الآن أن أذكرك بوقت ليس بعيداً جداً.. يوم إن كانت أليس ابنتك.. هي اليوم تقرأ أكثر منك.. تُكرّس سوء نية لقراءة النصوص الأولى التي كانت المدرسة تضعها أمام عينيها وهي طفلة؟

أحمق! أب غير مؤهل!.

أنسيت أن هذه الصعوبة هي ذاتها صعوبتك أنت!.. وأنت كنتَ للغاية أكثر بطئاً من ابنتك في هذا المجال!.

لكن هو ذا.. أصبح بالغاً وعارفاً. كان سيدي يبدو نافذ الصبر بصعوبة صبيّة تتدرب!.

علمك كمدرس وقلقك كأب جعلاك ببساطة تفقد الإحساس بالجهل!.

أستمع إليه.. أستمع إليه. معروفاً بسرعة مشابهة.. أعرف أنه ما من شيء كان يستطيع أن يستوقفه. أنتم جميعاً أنفُسكم.. أيها المدرسون!.

ما ينقصكم.. دروس الجهل!.

نجعلكم تجتازون كل أنواع الامتحانات والمسابقات على المعارف المكتسبة.. حين يجب أن تكون ميزتكم الأولى هي كفاءة فهم حالة من يجهل ما تعرفون!.

أحلم بتجربة كابيه.. أو بتجربة أخرى حيث نطلب من المرشح للامتحان أن يتذكر رسوباً دراسياً - سقوط

مُباغت في الرياضيات على سبيل المثال في الصف
الثالث أو الثاني - وأن يسعى لفهم ما حدث له في ذاك
العام!.

- قد يتَّهم مدرسٌ وقتئذٍ.

- غير كاف! يعود الخطأ لمدرس.. أعرف.. لقد
اعتدت على ذلك.

لا بد من أن نطالب المرشح للامتحان أن يُنقَّب
في مناطق أكثر عمقاً.. أن يبحث حقيقة عن سبب
سقوطه في ذاك العام. أن يبحث داخله.. حوله.. في
رأسه.. في قلبه.. في جسده.. في جهازه العصبي..
في هرموناته.. أن يبحث في كل مكان. وأن يتذكر
كذلك كيف تخلص من ذاك الرسوب!.

الوسائل التي استخدمها! الحيل الشهيرة!

أين كانت تختبئ.. حيله؟

وماذا كانت تُشبه؟

سأذهب إلى أبعد من هذا.. يجب أن نسأل
المدرسين المتدربين عن الأسباب التي من أجلها كرسوا
أنفسهم لمادة بدلاً من أخرى. لماذا يُدرِّسون اللغة
الإنجليزية وليس الرياضيات أو التاريخ؟ بالإيثارة
وبعد.. أن يحضروا في اتجاه المواد التي كانوا لا
يفضلونها!.

أن يتذكروا ضعفهم في الفيزياء.. عدم كفاءتهم
في الفلسفة.. أعذارهم الوفيرة في الألعاب البدنية!.

باختصار.. يجب على من يريدون أن يُدرِّسوا أن
تكون لديهم رؤية واضحة للفترة التي قضوها بأنفسهم

فى الدراسة . أن يشعروا قليلاً بحالة الجهل إن كانوا يريدون أن يكون لديهم بصيص فرصة ليخلصونا منها!.

- إن أفهم جيداً .. فستقترح تجنيد المدرسين لدى التلاميذ السيئين بدلاً من التلاميذ الجيدين؟
- لم لا؟ لو أنهم تخلصوا من حالة الجهل وتذكروا التلميذ الذى كانوا يوماً ما .. لم لا؟
على أى حال .. أنت مدين لى كثيراً!.

... -

- كلا؟

... -

- كلا؟ أنا .. أنا أرى تعليمياً أنك مدين لى للغاية . كان يجب أن تكون تلميذاً كسولاً سابقاً كى تصبح مدرساً .. كلا؟

كُنْ أميناً لو أنك كنت متفوقاً فى الفصل .. لفعلت شيئاً آخر . فى الحقيقة .. أنت عدت إلى صندوق قمامة جيبوتى .. مُتَنَكِّراً فى صورة مدرس .. كى تنقذ تلاميذ كسالى آخرين! وبفضلى أنا وصلت إلى هذا! لأنك كنت تعرف ماكنت أشعر به . كان هذا من معرفة (هذا) أيضاً . ألا تفكر؟

(ماذا لو يتخيل أنى سأجعله سعيداً ...)

- أنا أعتقد خاصة أنك ستحطمها لنا بواجبك .. واجب تفهم شخصية الآخرين .. وأنه أزعج أكثر من مدرس! لو أنك أمسكت بزمام الأمور نهائياً لكنت أنقذت نفسك بنفسك!.

هناك.. ينفرز في حَتَق أسود . أولاً لأنه لم يفهم
كلمة (empathé)(*) بعد ذلك لأنها شُرحت ذات مرة
وفهمها جيداً . ليس تَفْهُم شخصية الآخرين! إنما
نسخر من كلمتكم: تفهم شخصية الآخرين! إنها تتدفق
أمامنا .. كلمة: تَفْهُم شخصية الآخرين!.

لا أحد يطلب منكم أن تمسكوا بنا ..إننا نطلب
منكم أن تنقذوا الصَّبَّية الذين ليس لديهم الوسائل
التي تطلبونها منهم... أتستطيع أن تفهم هذا؟
نطلب منكم أن تضيفوا إلى كل علومكم حَدْس
الجهل.. أن تذهبوا إلى اصطلياد التلميذ الكسول فهي
ذى مهمتكم!.

التلميذ السيئ سيمسك بزمام الأمور حين
تعلمونه كيف يمسك بزمامها!.

هذا هو كل ما نطلبه منكم!.

- مَنْ (هذا) ..نحن؟

- أنا!.

- آه.. أنت.. وماذا تقول عنها.. أنت..
الاختصاصى .. عن حالة الجهل هذه؟

- أقول عنها إنها ليست الثقب الأسود الكبير
الذى تتخيلونه . بل العكس . سوق تُباع فيه الأشياء
القديمة حيث تجد كل شيء أياً ما كان ما عدا رغبة
تَعْلَم ما دَرَسَه لك المدرسون . التلميذ السيئ لا يعيش
كجاهل أبداً . أنا لم أرني جاهلاً .. أنا .. رأيتى أحقق ..
وهذا مختلف جداً!.

(*) تعنى القدرة الفطرية على تفهم شخصية الآخرين . (المترجم).

يعيش التلميذ الكسول كغير مؤهل.. أو كضعيف الإدراك.. أو كمتنرد..أو حينئذ يسخر منه.. إنه يعيش كعارف لعدد من الأشياء الأخرى. بسرعة جداً.. يريد الكثير من معرفتكم. يصنع منها حزنه. حزن مؤلم أحياناً.. لكن كيف يقول؟

التحدث عن هذا الألم يشغله أكثر من الرغبة في الشفاء منه. وهذا صعب على الفهم.. لكن هو ذاك!. جهله.. يأخذه لطبيعته العميقة. هو ليس تلميذ رياضيات.. هو غير كفاء للرياضيات.. هكذا هو. ولو لحقت به بعض التعديلات.. فسيتفوق في ميادين أخرى. ثاقب صناديق.. كما في حالتى. أشوه الوجوه قليلاً. وحين يقبض عليه من قِبَل البوليس.. يسأله المساعد الاجتماعى لماذا لم يجتهد في المدرسة.. أتعرف بما أجاب؟

- الشئ نفسه كالمدرس.. بالضبط: الـ (هذا)!. المدرسة ليست من أجلى.. أنا لست مُهيأ لـ (هذا).. هذا ما يجيب به. وهو أيضاً.. دون أن يعرف.. يتحدث عن التصادم المرعب بين الجهل والعلم. إنه (هذا) نفسه.. (هذا) المدرسين. يعتبر المدرسون أنفسهم أنهم لم يُحضروا أنفسهم لأن يلتقوا داخل فصولهم بالتلاميذ الذين يعتبرون أنفسهم ليسوا مهيين ليكونوا داخلها.

من الناحيتين.. هو (هذا) نفسه!.
- وكيف نُداوى (هذا) لو كان ثمة تحذير من تفهم شخصية الآخرين؟

هناك.. يتردد كثيراً.

على أن أُلح:

- هيا.. أنت من يعرف كل شيء دون أن يتعلم شيئاً.. طريقة التدريس دون التحضير لـ (هذا)؟ هل ثمة طريقة؟

- ليست هذه ما تنقص.. طرق التدريس.. إنه لا يوجد حتى سوى (هذا).. طرق تدريس!.

أنتم تقضون وقتكم في الاعتصام داخل طرق التدريس.. في حين أنكم في قرارة أنفسكم تعرفون جيداً جداً أن الطريقة لا تكفى.

ينقصها شيء ما.

- ماذا ينقصها؟

- لا أستطيع أن أقولها.

- لماذا؟

- لأنها كلمة قبيحة.

- أقبح من (تفهم شخصية الآخرين)؟

- بلا تشبيه. كلمة لن تستطيع أن تنطقها مطلقاً

داخل مدرسة.. مدرسة ثانوية.. كلية.. أو كل ما يشبهها.

- أقابله لأن تُعرف؟

- لا.. حقيقة لا أستطيع...

- هيا.. هيا!.

- لا أستطيع أن أتفوه بها! لو أنك تُخرج هذه

الكلمة من فمك متحدثًا عن التعليم.. فسوف تُلقى
بنفسك للعقاب.

... -

... -

... -

- الحب.

- ١٣ -

هذا صحيح.. شئ معيب عندنا أن نتحدث عن
الحب تعليمياً.. فلنحاول.. لنرى..

كذلك التحدث عن حبٍ داخل منزل مشنوق..
من الأفضل أن نلجأ إلى المجاز كي نصِفَ نمط
الحب الذى أحيا الأنسة ج.. .. نيكول هـ.. .. المدرسين
الذين أتحدث عنهم طوال هذه الصفحات.. معظم
الذين يدعوننى إلى فصولهم وكل من لا يملّون.. الذين
لا أعرفهم.. مجاز.. إذا..

مجاز ذو أجنحة.. بالنظر إلى ذلك..

فيركور.. ذات يوم فضلاً عن ذلك..

ذات صباح من شهر سبتمبر الماضى.. كل أيام
شهر سبتمبر الأولى.. متأخراً نمتُ على صفحة - أياً
كانت - من هذا الكتاب.. أستيقظ مسرعاً لأواصل..
أتهياً للقفز من السرير لكن ضجة نافذة استوقفتى..
صباح بلا انقطاع حول المنزل.. زقزقة لا تحصى وفى
الوقت نفسه حادة وفى التورقيفة.. آه! نعم.. رحيل
طيور السنونوا..

كل عام فى التاريخ نفسه تقريباً تتواعد على
الأسلاك الكهربائية.. حقول الطريق وجانباها مغطاة

بتقسيمات كما فى صورة بثلاثة فلسات. تتهيا للهجرة. •
إنها ضجة التلاقى. الطيور التى تُحوم فى السماء
تطلب إذنأ بالاصطفاف من التى حطت قبلاً على
سلكها.. جميعها يرتعش من تمنى الأفق. أسرعوا..
نحن ذاهبون إليه! نصل! نصل! هذا يطير بأقصى
سرعة. هذا يجرى من الشمال.. فى أفواج.. الرأس
متجه ناحية الجنوب. والحالة هذه.. إنه بدقة اتجاه
حجرتنا: الشمال.. الجنوبى. كوة فى الشمال.. نافذة
مزدوجة فى الجنوب. وكل عام تتكرر الدراما نفسها:
منخدعاً بشفافية هذه النوافذ المتراسة يحطم عدد
كبير من طيور السنونو رأسه فى زجاج الكوة. ليست
هناك كتابة فى هذا الصباح.. إذا. أفتح الكوة
الشمالية والنافذة المزدوجة الجنوبية.. أغطس فى
سرى مرة أخرى.. وها نحن مشغولون صباحاً
بمشاهدة أسراب طيور السنونو وهى تعبر مسكننا..
يخفت صوتها فجأة.. خائفة ربما من هذين الممرين
الذين تستعرضهما.

فقط.. فى جانب النافذة المزدوجة وفى جانبها
الآخر.. فتحتان دقيقتان رأسيّتان تظلان مغلقتين.
فسيح هو الفضاء فيما بين هاتين الفتحتين.. اللتين
تسمحان لكل عصافير السماء بالمرور. ومع ذلك.. لا
مفر من هذا أبداً.. لا بد وأن يشتري ثلاثة أو أربعة من
هؤلاء الحمقى الفتحات!.

إنه حجمنا.. حجم التلاميذ الكسالى. المنحرفون
عنا. ليسوا فى الصف. لا يتبعون الطريق اليمين..

يلهون كما الأطفال فى الهامش. النتيجة: فتحة. بؤك! متعبة فوق السجادة. آنذاك.. ينهض أحدنا.. يأخذ طائر السنونو الصريع فى باطن يده.. إنه لا يزن شيئاً.. عظامه فى مهب الريح.. .. ينتظر أحدنا ريثما يُفِيق.. .. ويطلقه ليلحق برفاقه. الطائر الذى بُعث من جديد يُحلّق.. .. يترنّح قليلاً.. يطير متعرجاً فى الفضاء الذى عاد إليه مرة أخرى.. ثم يفرز مستقيماً فى اتجاه الجنوب وفى مستقبله يتوارى. هو ذا.. مجازى يُساوى ما يساويه لكن هذا لما يشبه الحب فى تعليمنا. حين يُقدّر تلاميذنا كعصافير طائشة. هذا ما لأجله انشغلت الأنسة ج. أو نيكول هـ. بكينونتهما: الخروج من السُّبُبات الدراسى بموكب من طيور السنونو المحطمة. لا تفلح دائماً تفشل أحياناً فى رسم الطريق.. بعضها لا يستيقظ.. يظل فوق السجادة أو يحطم عنقه فى زجاج النافذة التالى.. والذين يظلون فى ضميرنا كثقوبٍ ندامةٍ حيث ترقد طيور السنونو الموتى فى قاع حديقتنا.. لكننا نحاول دائماً.. كنا سنحاول. إنهم تلاميذ(نا). أسئلة المشاركة الوجدانية أو التعارض الغريزى بالنسبة إلى البعض ولللبعض الآخر منهم (أسئلة واقعية أكثر من اللازم.. رغم ذلك!) لا تدخل فى الحساب. ماهر جداً من يستطيع أن يتحدث عن منزلة إحساننا بالنسبة إليهم. ليس هذا هو الحب المقصود.

طائر سنونو صريع هو طائر سنونو فى انتظار
البعث مرة أخرى.
نُقْطَةُ خَيْرَةٍ.

شكر

يذهب شكرى كما فى أكثر الأحيان إلى:
ج.ب. بونتال..جان . فيليب بوستل.. چاك
بياناك.. چان چيران.. چان . مارى لاكلافتين.. هوج
لكيرك..

إلى بيير چيستاد..إلى فيليب بن لاسان أيضاً..

إلى چان . لوك چيانيتو..

إلى فيرونيك ريشارد..

إلى كريستين و فرانسوا مورل..

إلى شارلوت وفتسان سشنيجانس..

إلى چان . ميشيل ماريو..

باختصار..

إلى كل الذين تَحْمَلُونَا.. تلميذى الكسول وأنا..

وأنا أكتب هذه الصفحات.

صدر من هذه السلسلة

- ١ - «ملكة الصمت».. للكاتبة الفرنسية «مارى نيميه»
.. رواية .. جائزة ميديسيس.
- ٢ - «فتاة من شارتر».. للكاتب الفرنسى «بيير
بيجى».. رواية .. جائزة إنتر.
- ٣ - «موال البيات والنوم».. للكاتب المصرى «خيرى
شلبى» .. رواية .. جائزة الدولة التقديرية.
- ٤ - «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد
عفيفى مطر» .. سيرة ذاتية .. جائزة سلطان
العويس.
- ٥ - «اللمس».. للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله»..
مسرح .. جائزة أبها.
- ٦ - «عاشوا فى حياتى».. للكاتب المصرى «أنيس
منصور» .. سيرة ذاتية .. جائزة مبارك.
- ٧ - «قبلة الحياة».. للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» ..
رواية .. جائزة التفوق.
- ٨ - «ليلة الحنة».. للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ..
مسرح .. جائزة التفو.
- ٩ - العاشقات.. للكاتبة النمساوية «إفريدة يلينك» ..
رواية .. جائزة نوبل.
- ١٠ - نوة الكرم.. للكاتبة المصرية.. «نجوى شعبان»..
رواية .. جائزة الدولة التشجيعية.

١١- «الفسكونت المشطور».. للكاتب الإيطالى
«إيتالوكالڤينو» رواية (عدد خاص).. جائزة
فياريچيو.

١٢- القلعة البيضاء.. للكاتب التركى «أورهان باموق»
.. رواية .. جائزة نوبل.

١٣ - أين تذهب طيور المحيط.. للكاتب المصرى
«إبراهيم عبدالمجيد».. أدب رحلات .. جائزة
التفوق.

١٤ - قرية ظالمه.. للكاتب المصرى «محمد كامل
حسين» .. رواية .. (عدد خاص).. جائزة الدولة
للأدب.

١٥ - الرجل البطيء.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م .
كوتسى» رواية .. جائزة نوبل.

١٦ - طحالب.. للكاتبة الجنوب إفريقية «مارى
واطسون» .. متتالية قصصية .. جائزة كين .

١٧ - شوشا.. للكاتب البولندى «اسحق باشيفتس
سنجر».. رواية .. جائزة نوبل.

١٨ - شارع ميجل.. للكاتب من ترينداد «ف. س.
نايبول».. رواية .. جائزة نوبل.

١٩ - الحياة الجديدة.. للكاتب التركى «أورهان باموق»
.. رواية .. جائزة نوبل.

٢٠ - عشر مسرحيات مختارة.. للكاتب الإنجليزى
«هارولد بنتر».. مسرح .. جائزة نوبل.

٢١ - الآخر مثلى.. للكاتب البرتغالى «جوزيه
ساراماجو» .. رواية .. جائزة نوبل.

٢٢ - المستبعدون.. للكاتبة النمساوية «إفريدة يلينك».. رواية - جائزة نوبل.

٢٣ - الأنثى كنوع .. للكاتبة الأمريكية «جويس كارول أوتس».. قصص.. جائزة بن مالمود.

٢٤ - ثلاثة أيام عند أمي.. للكاتب الفرنسي «فرانسوا فايرجان» .. رواية.. جائزة الجونكور.

٢٥ - اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركي «أورهان باموق».. جائزة نوبل.

٢٦ - الطوف الحجري.. للكاتب البرتغالي «جوسيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٢٧ - نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريجيته كروناور» مختارات.. جائزة جورج بوشنر الكبرى.

٢٨ - الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالي «جوسيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

٢٩ - إليزابيث كُستلّو.. للكاتب الجنوب إفريقي «ج. م. كوتسي» .. رواية.. جائزة نوبل.

٣٠ - السيدة ميلاني والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية «بريجيته كروناور» .. قصص.. جائزة جورج بوشنر الكبرى.

٣١ - حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دايللا».. قصص.. جائزة بيريارويا.

٣٢ - مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.. جائزة البوليتزر.

٢٢ - اغتتم الفرصة.. للكاتب الكندي «سول بيللو»..
رواية.. جائزة نوبل للآداب.

٢٤ - البصيرة.. للكاتب البرتغالي «جوسيه
ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٢٥ - بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية..
«مونیکا علي».. رواية.. جائزة البوكر.

٢٦- بريد بغداد.. للكاتب التشيلي «خوسيه ميغيل
باراس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب.

٢٧ - عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادي سميث»
رواية.. جائزة الأورانج.

٣٨ - العار.. للكاتب الجنوب إفريقي «ج. م. كوتسي»..
رواية.. جائزة نوبل.

٣٩ - قبيلات سينمائية.. للكاتب الفرنسي «إيريك
فوتورينو».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٠ - هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسباني «خوان
خوسيه مياس».. رواية.. جائزة نادال.

٤١ - الشلالات.. للكاتبة الأمريكية «چويس كارول
أوتس».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٢ - العشب يغنى.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس
ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٣ - العالم.. للكاتب الإسباني «خوان خوسيه
مياس».. رواية.. جائزة بلانيتا.

٤٤ - ميراث الخسارة.. للكاتبة الهندية «كيران
ديساي».. رواية.. جائزة البوكر.

- ٤٥ - الطفل الخامس.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.
- ٤٦ - بن يجوب العالم.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.
- ٤٧ - ثورة الأرض.. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.
- ٤٨ - ملك أفغانستان لم يزوجنا.. للكاتبة الفرنسية «انجريد توبوا».. رواية.. جائزة الرواية الأولى فى فرنسا.
- ٤٩ - الكهف.. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.
- ٥٠ - يوميات عام سئ.. للكاتب الجنوب إفريقى «جيم كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.
- ٥١ - كازانوفافا.. للكاتب الإنجليزي «أندرو ميللر».. رواية.
- ٥٢ - إنقطاعات الموت.. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.
- ٥٣ - العم الصغير.. للكاتب الألماني «شيركو فتاح».. رواية.. جائزة هيلده دومين لأدب فى المنفى.
- ٥٤ - اللعب مع النمر.. للكاتبة الانجليزية «دوريس ليسنج».. مسرح.. جائزة نوبل.
- ٥٥ - فى أرض على الحدود.. للكاتب الألماني «شيركو فتاح».. رواية.. جائزة نظرات أدبية.
- ٥٦ - الإرهابية الطيبة.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٧ - المسرحيات الكبرى جـ ١.. للكاتب الإنجليزي «هارولد بنتر» .. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٨ - المسرحيات الكبرى جـ ٢.. للكاتب الإنجليزي «هارولد بنتر» .. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٩ - نصف شمس صفراء.. للكاتبة النيجيرية «تشيما ماندا نجوزي أديتشي» .. رواية.. جائزة الأورانج.

٦٠ - مذكرات چين سومرز «مذكرات جارة طيبة».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦١ - مذكرات چين سومرز «إن العجوز استطاعت».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦٢ - الحوت.. للكاتب الفرنسي «جان ماري جوستاف لوكليزيو».. رواية.. جائزة نوبل.

٦٣ - رقة الذئاب.. للكاتبة الأسكتلندية «ستيف بيني».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٤ - رحلة العم ما.. للكاتب الجابوني «چان ديقاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٦٥ - مسيرة الفيل.. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٦٦ - كرسى النسر.. للكاتب المكسيكى «كارلوس فوينتيس».. رواية.. جائزة ثرفانتيس.

٦٧ - داي.. للكاتبة الأسكتلندية «أ. ل. كيندى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٨ - الحب المدمر.. للكاتب الأمريكى الكندى «دي واى بيشارد».. رواية.. جائزة الكومنولث.

٦٩ - أين نذهب يا بابا؟.. للكاتب الفرنسى «جون لوى فورنييه».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٧٠ - نداء دينيتى.. للكاتب الجابونى «جان ديقاسا نياما» رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٧١ - صخب الميراث.. للكاتب الجابونى «جان ديقاسا نياما» رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٧٢ - المؤتمر الأخير.. للكاتب الفرنسى «مارك بروسون».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية.

٧٣ - كتاب الرسم والخط.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل فى الآداب.

٧٤ - كلُّ رجل.. للكاتب الأمريكى «فيليب روث».. رواية.. جائزة فوكنر.

٧٥ - نريد أن نتحدث عن كيثين.. للكاتبة الأمريكية «ليونيل شرايفر».. رواية.. جائزة الأورانج.

٧٦ - ألم فذ.. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.. جائزة جيمس تيت بلاك.

٧٧ - أناقة القنفذ.. للكاتبة الفرنسية «مورييل باربرى».. رواية.. جائزة المكتبات للرواية.

حزن مدرسي

يصير قريباً من هذه السلسلة

١- غداً.. فالتر، كاباخر.. جائزة جورج بوشنر ٢٠٠٩.

٢ - ملك كهل.. تيرنومو مونيمبو.. جائزة رينودو
٢٠٠٨.

٢ - الكلمة المكسورة.. آدم فولدز.. جائزة كوستا ٢٠٠٨.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص.ب : ٢٣٥ الرقم البريدي : ١١٧٩٤ رمسيس

[www. egyptianbook org.eg](http://www.egyptianbook.org.eg)
E - mail : info@egyptian.org.eg

الرواية

تتماس هذه الرواية مع السيرة الذاتية للكاتب في سنواته المبكرة وحزنه طوال فترة المدرسة، فـ"دانييل بناك" كان هو ذلك التلميذ البليد الكسول الفاشل، وهو هنا يفتح جرحه هذا حتى منتهاه ليطل على جميع الأطراف المشاركة فيه مثل المدرسين والعملية التعليمية برمتها وعلى الأطراف المتألّمة من هذا الفشل مثل أسرته وعلى وجه الخصوص أمه.

وعلى الرغم من سيخريته اللاذعة أحياناً من نفسه إلى حد وصفه لغبائه بأنه كان صحراء شاسعة تمتد من تعلم أحد حروف الهجاء إلى الحرف الذي يليه، فإن "دانييل" يقدم رواية أسيرة وشديدة العبقرية والعمق والبساطة في الوقت ذاته، وتكاد تكون كتاباً تربوياً للمدرسين والتلاميذ على حد السواء إذا أتيحت لهم فرصة قراءته!! وهذه إحدى وصايا المؤلف حيث يكرر طوال صفحات الرواية.. إن الخوف من القراءة يعالج بالمزيد من القراءة والخوف من النحو يعالج بالنحو والخوف من عدم فهم النص يعالج بالانغماس في النص.

المدهش أن "دانييل بناك" هذا التلميذ الذي كان يليداً هو نفسه الذي عمل بعد ذلك مدرساً ربما لكي يهتم بالتلاميذ الكسالى، ثم صار هذا المؤلف الشهير الذي نعرفه، وربما ليس من قبيل المصادفة تماماً أن يكون المبدع عاطف محمد عبد المجيد، الذي يقدم لنا هذا الحزن المدرسي باللغة العربية هو يعمل الآن مدرساً للغة الفرنسية إحدى مدارسنا التي نطمح أن يزول حزنها المدرسي.

الروائي: الكاتب الفرنسي دانييل بناك
الجائزة: جائزة رينودو عام ٢٠٠٧



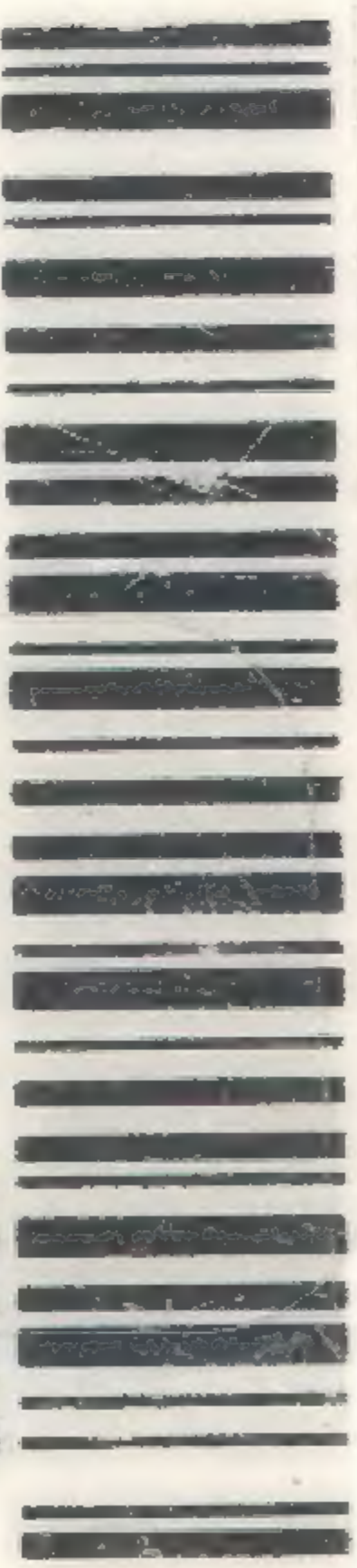
الهيئة المصرية العامة للكتاب

ISBN # 9789774216515



6 221149 018334

Bibliotheca Alexandrina



0940405

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٥ جنيهات